د.نبيل فاروق

والجاسوسية فنون

دار دوّن

Remove Watermark Now

لكل جديد وقديم وكل ما هو نادر
من من كتب ومجلات ومجلدات

تابعوا موقعنا
#دوده_الكتب

اضغط علي اي جزء من الصوره
للدخول الى الموقع

pdfelement

تابعوا على التلجرام

t.me/book100100

د. نبيـــل فـــاروق

وللجاسوسية فنـــون

\book100100

دَوِّن
للنشر و التوزيع

إلى رجال المخابرات العامة المصرية، الذين أكن لهم كل الاحترام والتقدير، والذين لولا سنوات عديدة، من نشر أعمال وروايات الجاسوسية، تحت رعايتهم وإشرافهم، لما كان هذا الكتاب بين أيديكم الآن.

\book100100

مقدمة

منذ زمن طويل، وبالتحديد عندما نشأت الأمم، وبدأ الصراع على السلطة والسطوة، أدرك الباحثون عن الاثنتين، أنه من المستحيل الفوز بهما دون قتال، وهكذا نشأت الحروب؛ كوسيلة لذلك، ولكن سرعان ما كشف الكل، أن خسائر الحروب تفوق الاحتمال، ولابد من البحث عن وسيلة؛ للإقلال من الخسائر، ومن زمن الحرب والقتال في آن واحد، وأن سباق التسلّح وحده لن يكفي... ومن هنا نشأت الجاسوسية، كثاني أقدم مهنة في التاريخ...

في البداية، اقتصرت الجاسوسية على جمع كل المعلومات الممكنة عن العدو، وعن تسليحه وقوة جيشه وعدده، ثم تطوّر الأمر إلى معرفة اقتصاده، وروحه المعنوية، ومدى قناعة وحماسة جنوده، للحرب التي يخوضونها، وإيمانهم بشرعيتها وضرورتها ونبلها...

ثم، وفي القرن السادس قبل الميلاد، برز (صن تزو)، ذلك القائد العسكري الصيني العبقري، الذي وضع قواعد الحرب الحديثة، ووضع أيضًا الركيزة الأولى، والقواعد الأساسية للجاسوسية، تحت مصطلح (الحرب السرية)، في كتابه، الذي مازال يعد دستور العسكريين، حتى يومنا هذا (فن الحرب)...

ولأن (صن تزو) استطاع، بفضل قواعده تلك، وبجيشه الذي

لم يتجاوز الثلاثين ألف محارب، في هزيمة ممالك أكبر، يتجاوز أقل جيوشها عشرة أضعاف جيشه، ووضع بذرة الامبراطورية الصينية، تبعه الكل، وشغف بحربه السرية وقواعدها، التي راحت تتطوّر أيضًا، مع مرور الزمن، واكتساب الكثير من الخبرات، وتعلّم الدروس من الأخطاء، وتطوّر المعارف والعلوم، فأضيفت قواعد أخرى، مثل تحليل المعلومات، وقياسها، وتجنيد الجواسيس وزرعهم، وفن نشر الشائعات وتقسيماتها، وسبل منع العدو من الفوز بالمعلومات، وتطوّرت تكنولوجيا جمع المعلومات، وإخفاء الأسرار وغيرها...

وهكذا لم تعد الجاسوسية هي الأساس، بل صارت مجرّد جزء من عالم أكبر وأوسع، اعتمد على الذكاء ولعبة العقول، فيما يشبه لعبة شطرنج بشرية، رقعتها تمتد إلى الكوكب كله...

لعبة أجهزة قوية عملاقة، وصراع لا يمكن أن يتوقّف لحظة واحدة، من الليل والنهار، وتساوي فيه الثانية الواحدة أحيانًا، الفارق بين النصر والهزيمة...

أجهزة المخابرات

د. نبيل فاروق

\book100100

(١)

من الأمور التي لا ريب في أنك قد لاحظتها يومًا، أنه ما إن يبدأ الحديث عن الجاسوسية وعالمها، حتى ترهف الآذان، وتصغي العقول، وتتسع الأعين، ويرتسم الاهتمام والانبهار على الوجوه...

هذا لأن عالم الجاسوسية والمخابرات، هو عالم مثير ؛ لما فيه من غموض وأسوار، تخفي خلفها أطنانًا من الأسرار، وتطلق في الخيال قناطير من الإثارة واللهفة، والشغف بمعرفة أسرار وغوامض ذلك العالم، الذي لا يكشف أستاره لأحد قط، حتى لبعض العاملين فيه...

وهذا يتعلق بعمليات التخابر الخاصة فحسب، والتي تحوي أسرارًا، تخص دولة بعينها، سواء في زمن الحرب، أو زمن السلم، أما بالنسبة لفنون عالم التخابر والتجسَّس، فهي ليست فنونًا سرية أو غامضة، كما يتصوَّر البعض، بل هي اليوم علم معروف، له قواعده وأساليبه، ونظمه وأساسياته، ولكن معرفة العلم شيء، وممارسة فنه شيء آخر...

تمامًا مثل لعبة الشطرنج... من السهل أن تعرف قواعدها

وقوانينها، ولكن ليس من السهل أبدًا أن تتفوَّق فيها، أو أن تصل معها إلى مرحلة الإتقان...

وكل لاعب شطرنج في العالم يعرف قواعد اللعبة، ولكن هناك من يمارسها على مقهى شعبي بسيط، ومن يتنافس فيها على بطولة العالم... وبالقواعد نفسها...

وفنون الجاسوسية هذه لم تتكَّون في يوم وليلة، بل هي تراكم لخبرات سنوات عديدة، قد يدهشك أن أقول: إنها آلاف السنين، وهذا ليس أمرًا مبالغًا، بل هي حقيقة تاريخية مدهشة، إذ يسجل لنا التاريخ أن (تحتمس الثالث) هو أوَّل من وضع لبنة في فن الجاسوسية، عندما طال حصار جيشه لمدينة (يافا)، فأرسل مجموعة من جنوده، داخل أكياس دقيق إلى المدينة المحاصرة ؛ لكي يعملوا على إشاعة الفوضى والاضطراب فيها، ولقد أشار (تحتمس الثالث) إلى خططه المخابراتية باسم (العلم السري)، وكأنه كان يعلم أنه يضع أول طوبة، في جدار هائل، صار يحيط اليوم بكل شيء تقريبًا...

وحتى عندما أراد (موسى) عليه السلام أن يدخل أرض (كنعان)، فقد أرسل إليها جواسيسه أوَّلًا ؛ ليخبروه عن قوتهم، واستعداداتهم، ومدى تحصينهم ومقدار مؤنهم، وكان بهذا يستخدم فن الجاسوسية بفطرة ربَّانية مدهشة، جعلت ما طلبه من رجاله، هو نفس ما تطلبه الدول الآن من أجهزة مخابراتها، وهي تستعد للحروب...

ولكن (صن تسو)، أبو الجاسوسية الصينية، هو أوَّل من وضع قواعد فن الجاسوسية في كتابه

(أصول الحرب)، عام ٥١٠ ق.م، وهذا الكتاب لم يكن أوَّل ممارسة تجسسية صينية، ولكنه كان أوَّل تنظيم لشبكات الجاسوسية ونظمها، التي مازالت متبعة، حتى يومنا هذا ؛ إذ أن ذلك الكتاب قد قَسّم الجواسيس إلى خمسة أقسام: جاسوس محلي:وهو الجاسوس الذي يتم تجنيده، داخل الدولة التي يتجسَّس عليها، ويكون من أبنائها، ويتقاضى مقابلًا نقديًا لعمله... وجاسوس داخلي:وهو الجاسوس الخائن لوطنه، في الصفوف الأولى لهذا الوطن... وجاسوس محوَّل: أي ما نطلق عليه الآن اسم الجاسوس المزدوج، وهو جاسوس أمكن السيطرة عليه، أو إقناعه بتغيير جهة انتمائه...ثم جاسوس هالك:وهو شخص يعتمد عليه ؛ لتزويد العدو بمعلومات خاطئة، وهذا سيلقى حتفه حتمًا، فور انكشاف أمره... وأخيرًا جاسوس أساسي:وهو ذلك الذي يفترض فيه أن يؤدى مهمته، ويعود منها بسلام ونجاح...

ولقد تغيَّر ذلك التقسيم بالطبع، مع تطوَّر علم الجاسوسية، وتطوَّر فنونها وتقنياتها، ولكن يبقى كتاب (صن تسو) أحد أقدم كتب فن التجسَّس في التاريخ..

وما من عصر أو حرب، أيًا كانت، لم يستخدم فيها التجسَّس، كسلاح رئيسي، ينقل المعلومات والأسرار عن العدو، حتى تنخفض احتمالات المفاجآت، إلى الحد الأدنى،

وترتفع في الوقت ذاته، القدرة على مفاجأة الخصم، وتوجيه ضربات موجعة إليه...

وعلى الرغم من أن (صن تسو) قد وضع أوَّل قواعد اللعبة، إلا أن فن الجاسوسية له طابع خاص، يتواكب دومًا مع تطوَّرات العصر، بل ويسبقها دومًا بخطوتين على الأقل، مستفيدًا طوال الوقت بكل خبرة يكتسبها، وكل خطأ يقع فيه، أو تقع فيه حتى أجهزة مخابرات أخرى...

هذا لأن فن الجاسوسية يتطوَّر دومًا، في سرعة تفوق سرعة تطوَّر أي فن آخر، وللمعلومات فيه أكبر قيمة، خاصة وأن تراكمها يصنع مع الوقت قاعدة معلوماتية، يستحيل أن تجد مثلها، في أي نظام آخر، حيث يتم فيه الاهتمام بأبسط وأدق المعلومات، التي قد تبدو سطحية أو تافهة ؛ بالنسبة لأي تفكير غير تخابري، وأرض الواقع تثبت أحيانًا الأهمية القصوى للمعلومات الصغيرة، ففي عملية قديمة، كانت معرفة المشروب المفضَّل للشخص المستهدف، هي أساس نجاح العملية برمتها ؛ إذ كان يحمل حقيبة خاصة، مربوطة في معصمه بأغلال فولاذية، وفي الطائرة التي تقله، قدمَّت إليه مضيفة الطيران مجموعة مشروبات، كان من الطبيعي أن ينتقي منها مشروبه المفضل، الذي كان الزجاجة الوحيدة، التي تحوى عقارًا أصابه بآلام معوية حادة، شخصها أحد الأطباء، على الطائرة نفسها، بأنه انفجار زائدة دودية، وهكذا، ولأنها حالة طارئة، هبطت الطائرة

في أقرب مطار، وهو نفسه الذي انتظره فيه رجال المخابرات، وفقًا لحساباتهم، وبسرعة أيضًا، تم نقله إلى مستشفى بعينه، وإلى حجرة عمليات صغيرة، تم فيها تخديره، وفتح رجال المخابرات الحقيبة، والتقطوا صورًا لكل ما تحويه من وثائق وتصميمات سرية، ثم أعيد إغلاقها بنفس الإحكام، قبل أن يستعيد وعيه ويطمئن إلى أن الحقيبة ما زالت مربوطة في يده بإحكام...

ولأن المعلومات هي الركيزة الأساسية، التي تستند إليها أجهزة المخابرات، فقد راح كل جهاز مخابرات يبتكر وسائله لجمع المعلومات، وعلى رأس تلك الوسائل كان التجسّس، كوسيلة سرية لجمع المعلومات من مصادرها، مما استتبع بالتالي عمليات زرع العملاء في صفوف العدو، وتجنيد من يمكن تجنيده من صفوفه، وهكذا...

ولكن تطوّر الأحداث، في بدايات ثلاثينيات القرن العشرين، أدهش الكل بوسيلة غير متوقّعة، لجمع المعلومات ؛ففي تلك الفترة كان (أدولف هتلر) قد تولى مقاليد السلطة في (ألمانيا)، وبدأ مع حزبه النازي يضعون خطة سرية ؛لإعادة تكوين وتسليح الجيش النازي،استعدادًا لخرق معاهدة (فرساي)، التي أجبرت (ألمانيا) على توقيعها، عقب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، وكان الفوهلر يحلم بغزو العالم كله، ورفع العلم النازي على كل قاراته، ولكن، وبينما يستعدون لهذا، فوجئوا بكتاب أصدره صحفي سويسري، يدعى (برتولد جاكوب)، ينشر

كتابًا، يشرح تفاصيل الجيش النازي، ووحداته، وفصائله، وأماكن تمركزها، وأسماء ضباط وقادة ألويته وكتائبه...

وأصيب (هتلر) بالذهول، واشتعل غضبه، وطلب من مخابراته إحضار ذلك الصحفي من (سويسرا)، بأية وسيلة كانت ؛ لمعرفة كيف حصل على تلك المعلومات...

وبالفعل، تم اختطاف (جاكوب)، ونقله بطائرة خاصة إلى (برلين)، حيث فوجئ بنفسه في قبو مقر (الجستابو)، وزبانية جهاز الرعب النازي يسألونه، عن كيفية حصوله على المعلومات...

وكانت المفاجأة... فذلك الصحفي السويسري لم تكن له أية صلة بأي جهاز مخابرات، وأنه إنما حصل على كل تلك المعلومات، من الصحف الألمانية نفسها، ومن صفحات الوفيات بالتحديد، ففي كل نعي عسكري، كانت هناك عبارات مثل « الفصيلة رقم كذا، الكائنة في (....)، تنعي زوجة الجنرال فلان، قائد اللواء رقم كذا، في المنطقة (.....) «... وهكذا حصل الصحفي، بشيء من الصبروكثير من البحث والتنظيم، على كم هائل من المعلومات، عن الجيش النازي، وبدأ في ترتيبها وتنسيقها ؛ ليضع بها كتابه، الذي تسبب فيما هو عليه...

وهكذا دخلت وسيلة جديدة، من وسائل جمع المعلومات، إلى عالم المخابرات، وابتكر فرع جديد، تحت اسم (المعلومات العلنية)، والذي يعتمد على جمع المعلومات من الصحف، والنشرات الدورية، والقرارات الاقتصادية، وغيرها من

المعلومات المعلنة، والتي يطالعها الجميع بعيون عادية، وتطالعها أجهزة المخابرات بعيون استخباراتية..

والأهم أنه، ومنذ تلك الواقعة، لم يعد هناك نعي واحد لأحد العسكريين، يحوي أية تفاصيل، عن وحدته، أو موقعه، أو حتى رتبته، اللهم إلا بعد خروجه من الخدمة، فقد أدرك الكل، وبلا شك، خطورة المعلومات العلنية، في عالم تراكمي كهذا....

ولقد أثبتت الأيام هذه الخطورة...

ففي مرحلة ما قبل يونيو ١٩٦٧م، جلس عامل، في إحدى شركات الأغذية المحفوظة، يتحدَّث مع صديق له، على مقهى شعبي بسيط، في مدينة مجاورة للقاهرة، وشكا له من أن العمل مضاعف هذه الأيام؛ لإنتاج ضعف المعتاد، من علب الخضروات المحفوظة...والتقط أحد جواسيس العدو المعلومة، وأبرق بها فورًا، إلى سادته، الذين وضعوا تلك المعلومة، إلى جوار معلومة أخرى، تقول إن الجندي، في حالات الحرب، يحصل على ضعف عدد علب الخضروات المحفوظة، التي يحصل عليها في الظروف العادية، وتوصلوا من هذا إلى أن (مصر) تستعد جديًا للحرب، فتم توجيه ضربة إليها، قبل أن تكتمل استعداداتها...

وهكذا، كان حديثًا بسيطًا، يتصوَّر صاحبه أنه بلا معنى، سببًا في نكسة يونيو ١٩٦٧م...

ولكن، ولأن عمل المخابرات تراكمي، يستفيد من كل خطأ، فقد أدرك رجال المخابرات، أهمية وخطورة المعلومات العلنية،

واستخدموها بنجاح ساحق، في خطة الخداع الاستراتيجي، قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣م، بل وطوَّروا أسلوبها إلى أسلوب لم يستخدم من قبل قط، ألا وهو الإغراق في العلنية، إلى حد عدم تصوَّر العدو أنها متعمَّدة، وهكذا نشرت الصحف كافة، قبيل حرب أكتوبر، كل أخبار انتشار التيتانوس في المستشفيات، والاضطرار إلى إخلائها، ونشرت أخبار فساد القمح، وإعدامه، واستيراد قمح بديل، ولم يدرك العدو، إلا عقب الحرب، أن كل هذا كان خدعة مبتكرة؛ لكي يتم إخلاء المستشفيات؛ لاستقبال جرحى الحرب ومصابيها، واستيراد مخزون احتياطي للقمح، دون أن يدرك العدو أن كل هذا استعداد للحرب.... ونجحت الخدعة... وتم تسجيلها في تاريخ المخابرات وفنونه، لكي لا يقع فيها جهاز مخابرات آخر فيما بعد...

وبهذا الأسلوب التراكمي، تتطوَّر فنون الجاسوسية وتتغيَّر، مع كل خبرة مكتسبة، وكل نجاح لجهاز ما، أو فشل لآخر...

وربما يمنح الفشل خبرات أكثر وأسرع؛ لأنه في عالم المخابرات يظل النجاح في معظم الأحوال سرًا لفترة طويلة، ولكن فضيحة الفشل تنتشر في سرعة...

والمعلومات في فن الجاسوسية أشبه بلعبة بازل كبيرة، لكل قطعة منها أهميتها، مهما بلغ صغرها؛ لتكوين الصورة الكاملة، ولكن بعض المعلومات يصعب، وأحيانًا يستحيل التوصَّل إليها ؛ لذا يستوجب العمل بأساليب سرية وغير تقليدية ؛للحصول

عليها، وهو ما يطلق عليه اسم التجسَّس، أي الحصول على المعلومات في سرية...

والسرية هنا حتمية، إذ أن قيمة الحصول على المعلومة تكمن في جهل الخصم بحصولك عليها، وإلا فقدت قيمتها الأساسية، فلو أن العدو يستخدم شفرة ما مثلًا، وأمكنك الحصول على مفتاحها، فإن قيمة هذا المفتاح تكمن في جهل العدو حصولك عليه، وإلا فإنه سيقوم بتغيير الشفرة نفسها، أو مفتاحها، فلا تعود للمعلومة أية قيمة...

وفي الحرب العالمية الثانية، ابتكر الألمان جهازًا عبقريًا للشفرة، باسم (أنيجما)، أو (اللغز) وهو أشبه بآلة كاتبة، تستخدم قرصًا دوَّارًا لطبع الأحرف، يمكن استبداله بمجموعة أخرى من الأقراص، لكل منها ترتيب ورمز مختلفين؛ فعندما تطبع حرف السين مثلًا، فأحد الأقراص يطبعه ميمًا، والآخر كافًا، وهكذا، وباستخدام الجهاز، يمكن طبع أوامر مباشرة، تظهر على الورق في صورة كلمات ليس لها معنى أو مدلول، وعندما يتسلم الطرف الآخر تلك الأوامر، التي تحوى في بدايتها رمزًا، يشير إلى قرص بعينه، فكل ما عليه هو أن يضع ذلك القرص المشار إليه في جهاز مماثل، ويطبع تلك الكلمات عديمة الدلالة، فتظهر الرسائل على الورق بكلمات واضحة، تحوي أوامر مباشرة، أو تعليمات صريحة...

ولم تكن المشكلة هنا هي معرفة مفتاح الشفرة، ولكن الحصول على الجهاز نفسه، أو تصميمه، وترتيب الحروف على

كل قرص من أقراصه... وكانت عملية من أقوى عمليات المخابرات البريطانية، في تلك الفترة الساخنة، نجحت خلالها في إعادة صنع الجهاز، وفك أعقد شفرات النازية، مما كشف كل رسائل وأوامر العدو السرية، وحقق الانتصار في الحرب...

ولنجاح هذه العملية، كان من الضروري استخدام فنون الجاسوسية، إلى أقصى حد ممكن، وبكل أنواعها، من زرع وتجنيد وتنصّت وتقنية، و...

ولهذا حديث آخر.

***

\book100100

(٢)

الجاسوسية علم وفن... العلم يمكنك أن تجده في أي مكان، في كتب وموسوعات، وحتى على شبكة الانترنت، أما الفن، فهو كأي فن...موهبة وإبداع وابتكار... وتاريخ الجاسوسية العالمية هو مدرسة، في فن إبداع وابتكار عمليات الاستخبارات والتجسَّس، وخاصة فيما يتعلق بعملية جمع المعلومات السرية...

ففي هذا المجال، يبذل الكل قصارى جهدهم ؛ لابتكار وسائل جديدة، يصعب على العدو كشفها أو تصوَّرها، ولكن كل الوسائل، مهما بلغت حداثتها وابتكاراتها، لابد وأن تضم أهم عامل في اللعبة كلها... الجاسوس... وفي هذه النقطة بالتحديد، يقع معظم الناس، في عصرنا هذا، في خطأ كبير، عندما يخلطون بين التجسَّس، وتقنية التجسَّس، ففي كثير من الأحيان، يبدي البعض تشككه من جدوى التجسَّس، في عصر التكنولوجيا وثورة المعلومات الرقمية، وسهولة الحصول على المعلومة ونقلها، ويبدون تشككَّهم أكثر، في جدوى وجود جاسوس بشري، مع كل هذه التقنية...

وهذا خطأ كبير...

جدًا...

فالتكنولوجيا الحديثة، بكل أنواعها، قادرة فحسب على

رصد ما يتاح من الأمور الظاهرة، فالأقمار الصناعية قد ترصد منزلك، وتصل دقتها حاليًا إلى رصد أدق تفاصيل ثيابك أيضًا، ولكنها عاجزة تمامًا عن كشف ما تخفيه داخلك، ولعلنا مازلنا نذكر كيف تباهى الأمريكيون لوقت طويل، بأنهم قادرون بوسائلهم التكنولوجية، على معرفة نسيج الملابس الداخلية للرئيس العراقي السابق، وعلى الرغم من هذا، فقد عجزت كل تكنولوجياتهم هذه في رصد الرئيس نفسه، عندما قرَّر الاختباء، والاختفاء عن الأنظار، ولولا وجود عامل بشري، أرشد إلى مكانه، لربما ظل مختفيًا، حتى يومنا هذا...

ومازلنا نذكر أيضًا، في ضربتهم الأولى للعراق، في أوائل التسعينيات، كيف أن طائراتهم قد قصفت العديد من الأهداف، التي رصدتها وسائلهم التكنولوجية المتطوِّرة، ثم كشفوا بعدها أنها لم تكن سوى هياكل خشبية، خسروا قذائف بملايين الدولارات لقصفها، ولو كان لديهم جاسوس بشري واحد على الأرض ؛ لأمكنه أن يكشف حقيقة تلك الهياكل التمويهية، ويقود قذائفهم إلى أهداف حقيقية، أكثر أهمية...

التقنية الحديثة إذن هي عامل مساعد قوي، في أعمال الجاسوسية، وسنعود إليها وإلى تاريخ تقنية التجسَّس كله، في مقال آخر، أما الآن، فعلينا أن نفهم العامل الرئيسي أوَّلًا، وهو الجاسوس نفسه..

وكلمة جاسوس هذه تعني أنه شخص مندس، بين فئة من

الناس، على نحو خفي وسري، بحيث يمكنه كشف أسرارهم، ونقلها إلى الجهة التي يعمل لحسابها، وفي هذا المضمار، نجد أنه لا يوجد نوع واحد من الجواسيس، بل عدة أنواع، لكل منها أهميته ودوره، وفقًا لموقعه وقدراته... فهناك الجاسوس الداخلي، أو الشخص الذي ينتمي رسميًا إلى الجهة المضادة، وتم تجنيده لخيانة جهة انتمائه، ونقل أسرارها إلى الجهة المعادية لها، وكل دول العالم تتعامل مع هذا النوع من الجواسيس، باعتباره أحقر الأنواع على الإطلاق، وأقلها مدعاة للثقة ؛ فالجاسوس الذي يخون وطنه لصالح أعدائه، شخص لا يمكنك أبدًا أن تثق في ولائه ؛ لذا فعندما يتم تجنيد أحد هؤلاء الأشخاص، يحرص جهاز المخابرات على تحديد نوعيته أوَّلًا، ومن ثم إيجاد الوسيلة المناسبة للسيطرة عليه، والتي ينبغي أن تكون من القوة، بحيث تضمن خضوعه، وتجعل استمراره في عمله، هو الخيار الأمثل، إن لم يكن الوحيد بالنسبة إليه...

وهذا النوع من الجواسيس يخضع دومًا لأحد أهم أسباب رئيسية للخيانة، أوَّلها المال، وهو أحد الأسباب القوية، التي تدفع بعض الجشعين إلى خيانة أوطانهم، طمعًا في ثروة، يتصوَّرون أنها سهلة المنال، وهو يمثل النسبة الأكبر من دوافع التجسُّس والخيانة، ثم يليه الجنس، وهو ليس دافعًا فحسب، ولكنه وسيلة مثالية أيضًا ؛ لوضع الجاسوس تحت السيطرة، إما بتزويده به، أو بخوفه من حجبه عنه، أو خشيته انكشاف أمره...

تأتي بعد هذا العقيدة، وليس المقصود هنا هو الدين فحسب، ولكن الانتماء المذهبي أو الفكري أيضًا، وتاريخ الجاسوسية حافل بالجواسيس، الذين خانوا أوطانهم، من أجل إيمانهم بفكر العدو، وأبرز مثال على هذا هو نائب مدير المخابرات البريطانية، الذي انكشف أنه كان جاسوسًا للسوفييت، في زمن ما بعد الحرب العالمية الثانية، بسبب اعتناقه للفكر الشيوعي، وسيأتي الحديث عنه بتفاصيل أكثر فيما بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى...

بعدها تأتي الكراهية لنظام ما، كدافع رئيسي، يدفع البعض إلى الارتماء في أحضان النظام المعادي، كنوع من الانتقام أو التشفي، وتلتقط المخابرات العدوة هذا الخيط دومًا، وتعمل على تغذيته بكل فنونها ؛ دفعًا للشخص إلى مستنقع خيانة وطنه... ثم هناك السقطة، أي توَّرط شخص ما في عمل مشين، أو موقف خطير، تلتقطه مخابرات العدو، ويصبح سلاحًا في يدها، خاصة لو رأى صاحب هذه السقطة أن الخيانة أقل ضررًا، من كشف سقطته...

هذه فقط الدوافع الرئيسية الكبرى للخيانة، ولكن هناك أحيانًا بعض الدوافع الشخصية، التي تجعل صاحبها لقمة سائغة في فم مخابرات العدو، حتى وإن لم يدرك هو نفسه هذا، و....

لهذا حديث آخر..

***

عملية تجنيد الجاسوس عملية معقَّدة للغاية، وكل خطوة فيها تحتاج إلى دقة متناهية، وإلا فبدلًا من أن يعمل الجاسوس

لحساب من يريد تجنيده، فقد ينتهي به الأمر إلى الإبلاغ عنه...

ولهذا تبدأ عملية التجنيد بزرع عنصر ما وسط مجموعات من الناس، في مختلف المجالات، وفقًا للفئة المستهدفة، التي تهم العدو، وهذا العنصر يكون في المعتاد جاسوسًا قديمًا، من البيئة نفسها، يسهل عليه الاختلاط بالناس، والاندماج معهم، وكسب صداقتهم وودَّهم، وثقتهم أيضًا، وهو يوصف دومًا بأنه شخص طيب، بسيط، لا يشتبك مع أحد على الإطلاق، لا في شجار بدني، ولا حتى في مشادة كلامية؛ لذا فمن أهم سمات هذا الجاسوس، هو أنه لا يدخل أبدًا في نقاش حول السياسة، أو الدين، أو حتى مباريات كرة القدم، أو أي نقاش يمكن أن يوغر صدر أحد الجالسين ضده... وهذا العنصر يطلق عليه اسم (الفرَّاز)، والاسم نفسه يوحي بعمله، إذ أنه يتم تدريبه على نحو مكثّف، على فرز كل الموجودين في مساحة عمله، وكل من يمكنه عقد صلة ما معهم، وتحديد من منهم لديه دوافع مناسبة وحقيقية، ونقاط ضعف واضحة قوية، وغياب للمبادئ الأساسية، على النحو الذي يجعله مؤهلًا، للعمل لحساب دولة أخرى...

وهذه مهمة ليست بالبسيطة، فقد تجد حولك شخصًا ساخطًا على الدولة، وعلى نظام الحكم فيها، وعلى القوانين التي تحكمها، ويعلن شكواه وغضبه طوال الوقت، وعلى الرغم من هذا، فهو ليس مستعدًا لخيانة وطنه، مهما كان الثمن، أو كانت المغريات، وعلى العكس، قد يكون هناك شخص صامت، لا

يشكو أبدًا، ولكن دوافعه للخيانة لا حدود لها؛ فقد يعاني من أزمات مالية حادة، تضطره للاستدانة من كل من يعرفه مثلًا، ثم يعجز دومًا عن السداد، فتتراكم عليه الديون، ويتوقف الكل عن إقراضه، ويصبح مستعدًا للعمل مع الشيطان نفسه، لو أنه سيساعده على سداد ديونه، وتخليصه من دائنيه فحسب... وهذا مجرّد مثال للدوافع، التي يرصدها الفرّاز...

و(الفرّاز) ينتقي العناصر، التي يراها صالحة ومؤهّلة للتجنيد، ويسعى للاقتراب منها، والتقرّب إليها، وعقد صداقات معها، ولكسب ثقتها، قد يساعدها مرحليًا، على التخلّص من بعض متاعبها، وبخاصة المتاعب المالية، أو يعمل على توريطها في أمور أكثر خطورة، حتى يضمن بقاءها في قبضته، ولكن مهمة الفرّاز تقتصر على هذا فحسب، وليس من صلاحياته أن يقوم بعملية التجنيد نفسها، ولا حتى أن يلمّح إليها، بل كل ما عليه، هو أن يرسل ما لديه من معلومات، عن العناصر المرشحة للتجنيد، إلى العدو، الذي يعمل حسابه، بالوسائل المتاحة له، أو عن طريق جاسوس آخر مقيم، سيتم الحديث عنه فيما بعد، وهناك، في أرض العدو، تعاد دراسة العناصر المرشحة، على ضوء كل المعلومات، وقد يتم دفع عنصر آخر، من عناصر العدو؛ للتيقن من المعلومات، التي سيتم تحديد شخصية وهوية كل مرشح من خلالها... وتقوم الأقسام الفنية والنفسية بدراسة كل هذا بمنتهى الدقة، وتنقية العناصر المرشحة، والتركيز على

الأصلح منها، وتحديد الوسيلة المناسبة للسيطرة عليه، وبعدها يتم إبلاغ الفرَّاز بأنه هناك ضابط، من مستوى أعلى، سيحضر لفرز العناصر المطلوبة، أو العنصر الذي وقع عليه الاختيار عن قرب، ومن خلال مقابلة مباشرة، ويتم إبلاغ (الفرَّاز)؛ لتدبير مقابلة بين العنصر المرشَّح وخبير الفرز، وتكون هذه في المعتاد آخر مهمة للفرَّاز مع العنصر، إذ بعدها ينسحب من الساحة، ويتولى الخبير الأمر، مدعومًا بتقارير وتوصيات الأقسام الفنية، حول شخصية العنصر، ونقاط ضعفه ووسائل سقوطه...

وعلى نحو متدرَّج، يبدأ الخبير في عرض فكرة التعاون على العنصر المستهدف، بعد أن يتأكَّد من مقابلته الشخصية، أنه صالح للتجنيد، وهي لا تكون أبدًا في شكل عرض مباشر، بل يتم طرح عرض مغر، لا يمس وطنه بأي شيء، من قريب أو بعيد، ويتم استدراجه تدريجيًا، وإشباع نقاط ضعفه، ومناطق طموحه، حتى تصبح آماله وأحلامه كلها مرتبطة بذلك العرض، وربما يبدأ الخبير في منحه بعض المال، الذي يخرجه من دائرة الحاجة، وربما ينقله أيضًا إلى دائرة الانتعاش، ويحرص على تزويده به لبعض الوقت؛ حتى يعتاد الحياة السهلة، والكسب بدون عمل...

ثم يختفي الخبير فجأة، بعد أن يضمن تعلَّق العنصر به، وبما يغدقه عليه بلا حساب، ويواصل الاختفاء لفترة كافية، ينهار خلالها العنصر، ويتصوَّر أن آماله وأحلامه قد تبخَّرت، ويصاب بالذعر والهلع، من فكرة عودته إلى حالة الاحتياج مرة أخرى،

بعد أن اعتاد رغد العيش، والكسب الوفير السهل، ويكون في هذه الحالة مستعدًا لعمل أي شيء، وبأي ثمن؛ حتى يستعيد ما اختفى مع اختفاء الخبير...

وهنا، وعندما يقرَّر القسم الفني أن الوقت قد حان، يظهر الخبير مرة أخرى، وينتشل العضو من ضياعه، فيتشبَّث به هذا الأخير في لهفة، وكأنما يتشبث بالحياة نفسها، وهنا تبدأ عملية التجنيد...

والخيانة...

ويتورّط العنصر دون أن يدري، وتحرص لعبة الجاسوسية على تسجيل وتوثيق تورّطه؛ حتى يعجز عن الإفلات والتراجع، عندما تحين لحظة المواجهة والمصارحة....

والسقوط...

وللحديث عن فن الجاسوسية بقية.

***

من أكثر أنواع الجواسيس أهمية، وأكثرها خطورة في الوقت ذاته، الجاسوس المزروع، الذي يأتي من وطنه؛ ليحيا في وطن العدو، متقمصًا شخصية أحد أبنائه، حتى يصبح جزءًا منه، لا يمكن تمييزه عن الآخرين، وربما يحتل مكانة ما في ذلك الوطن الآخر، فيسهل عليه الحصول على معلومات بالغة الأهمية والخطورة، أو تجنيد آخرين، وإدارة شبكات تجسَّس كاملة، وهو مضمون الولاء إلى حد كبير؛ لأنه ينتمي فعليًا إليك، وليس إلى عدوَّك..

ومن أشهر عمليات الزرع الناجحة، في عالمنا العربي، عملية (رفعت الجمّال)، أو (رأفت الهجّان)، كما أسماه المسلسل التليفزيوني، واسمته رواية الراحل المبدع (صالح مرسي)، فلقد كان (رفعت) شخصًا ضائعًا في (مصر)، عمل في عدة مهن، ولم يحرز نجاحًا يذكر في أي منها، والتحق بأكثر من وظيفة، وانتحل أكثر من صفة، إلى أن صار، حتى بالنسبة لعائلته، أشبه بشاب محتال فاشل...

ولكن يبدو أن القدر كان يعد رفعت للدور الذي لعبه؛ فقد مارس التمثيل في فيلمين مع (بشارة واكيم)، وانتحل شخصية يهودي مرتين، مرة ليقيم علاقة عاطفية مع الراقصة (كيتي)، ومرة أخرى عندما ألقي القبض عليه، عند الحدود الليبية... لم يكن جهاز المخابرات المصري قد تم تأسيسه بعد، عندما سقط (رفعت) في قبضة الشرطة، وجذب اتهامه انتباه (عبد المحسن عبد الفائق)، الذي استخدمه في البداية، وبعد أن كشف هويته الحقيقية، كعنصر للتجسّس على اليهود، المقيمين في (الإسكندرية)، حيث انتحل شخصية يهودي يدعى (جالك بيتون)، من أم قبرصية وأب فرنسي، وعمل كموظف محترم في شركة تأمين معروفة، وارتاد على نحو منتظم، المعبد اليهودي، في شارع النبي (دانيال)، وانتظم في الجلوس في مقهى على الكورنيش، اعتاد اليهود الجلوس فيه، وكان منطويًا مهذّبًا، مما دفعهم هم للتعرّف عليه، والارتباط به، حتى صار واحدًا منهم...

ثم تم تأسيس المخابرات المصرية، في مايو عام ١٩٥٥م، وصار (عبد الفائق) أحد ضباطها، وقرَّر عندئذ تحقيق استفادة أكبر من (رفعت)، بنقل نشاطه الناجح مع اليهود، من (الإسكندرية) إلى (إسرائيل) نفسها، التي نجح في الوصول إليها، والحصول على جنسيتها، وصار من أقوى وأنجح عيوننا هناك...

ولقد نجحت عملية زرع (رفعت الجمَّال) نجاحًا، يعد مثالًا يحتذى، في عالم المخابرات وتاريخها وتاريخ فنون الجاسوسية؛ فقد أنجز مهمته بنجاح، ثم استقر في هويته الإسرائيلية، حتى مات في فراش المرض، بعد معاناة طويلة..

والأمر هنا يختلف عن حالة زرع أخرى عكسية، والمقصود هنا هو زرع الإسرائيلي (إيلي حوفي كوهين)، الذي ولد ونشأ وتربّى وأنهى تعليمه في (مصر)، في قلب الكيان السوري، باعتباره (كامل أمين ثابت)، الوطني المخلص، المهاجر إلى أمريكا الجنوبية، والذي ظل يغدق التبرعات على حزب البعث السوري من هناك، حتى أن السوريين المهاجرين ألحوا عليه أن يعود إلى (سوريا)؛ فالحزب، على حد قولهم، كان بحاجة إلى كل وطني مخلص مثله...

وبناءً على إلحاحهم، سافر (إيلي) إلى (سوريا)، التي استقبلوه فيها استقبال الأبطال، وتم ضمه، بكل فخر واعتزاز، إلى حزب البعث السوري، الذي ترقى فيه بسرعة؛ بسبب سخائه الشديد، إلى مناصب عليا، في اللجنة المركزية، ثم لم يلبث

أن صار مستشارًا لوزارة الدفاع في (سوريا)، وأوشك على أن يحتل منصب نائب وزير الدفاع السوري، وكان هذا سيصبح كارثة، أن يكون إسرائيليًا نائبًا لوزير دفاع دولة عربية، من دول المواجهة، والمرشَّح الأوَّل لمنصب وزير الدفاع، فور خلَّو المنصب، الذي كان يمكن أن يخلو، برصاصة يصعب تحديد مصدرها، أو بواحد من السموم، التي يتم إنتاجها، في معامل جهاز(الموساد) الإسرائيلي...

ولقد عمل (إيلي) في سوريا كتاجر تحف، وكان يقوم بتصدير بعض المشغولات الخشبية المتميّزة، إلى أوروبا و(أمريكا الجنوبية)، دون أن يدري أحد أنه كان يخبئ في أماكن سرية منها، الميكروفيلم، الذي يحوي أدق وأخطر الأسرار السورية، والتي يعرفها في سهولة، باعتباره عضوًا بارزًا في الحزب، ومستشارًا لوزير الدفاع... ولكن (إيلي) ارتكب أكبر خطأ في حياته، مع شعوره الكبير بالثقة والأمان، وبالسيطرة التامة على الموقف...

ففي ذلك الحين، في أوائل الستينات، زار الفريق (علي عامر) الجبهة السورية، وعرضت الصحف صورته، مع عدد من قادة الجيش السوري، وكان بينهم مدني واحد، وهو (كامل أمين ثابت)، أو (إيلي حوفي كوهين)... ولأنه مدني منفرد، وسط صورة عسكرية، كان من الطبيعي أن يلفت الانتباه في شدة، ومن سوء حظه أنه قد لفت انتباه (رفعت الجمّال) نفسه، والذي كان يعرفه جيدًا، منذ أن التحق كلاهما فيما سمي بالوحدة (١٣١)،

والتي قام بعض أفرادها بعملية تفجير المصالح الأمريكية، في (القاهرة) و (الإسكندرية)، فيما عرف باسم (عملية سوزانا)، ففي تلك الآونة، تم اعتقال عدد من اليهود في (مصر)، ومن بينهم (إيلي كوهين) و(جاك بيتون) نفسه، حتى يتأكّد تواجده بين يهود الإسكندرية، ويصبح بالنسبة لهم واحدًا من أبطالهم، وقضى (رفعت) مع (إيلي) فترة ليست بالقصيرة في الحجز، توطّدت خلالها صداقتهما، ووجدها (رفعت) فرصة مثالية؛ لتثبيت هويته، في المجتمع اليهودي السكندري، ثم أطلق سراحهما، بعد أن أثبتت التحقيقات عدم تورّطهما في عمليات التفجير... و... للرواية بقية.

***

منذ اللحظة الأولى، التي وقع فيها بصر (رفعت الجمّال)، على صورة (كامل أمين ثابت)، كمدني منفرد وسط مجموعة من العسكريين، حتى ربط عقله على الفور، بينه وبين رفيق زنزانته السابق (إيلي حوفي كوهين)، الذي لم يتغيَّر فيه سوى شارب شرقي، أضيف إلى ملامحه؛ ليمنحه مظهرًا شاميًا تقليديًا...

وعلى الفور، طلب (رفعت) مقابلة عاجلة، مع أحد ضباط المخابرات المصرية، الذي التقى به في (روما)، وهناك سلمَّه (رفعت) نسخة من الصحيفة، وأشار إلى صورة (كامل)، وأكَّد أنه يعرفه باسم (إيلي كوهين)... وعاد رجل المخابرات بالمعلومة إلى (مصر)، وسحب ملف (إيلي)، وأيقن الكل أنه بالفعل ليس

سوريًا كما يدَّعى، ولكنه يهودي إسرائيلي، وكان الموقف شديد الحساسية بالفعل، فالرجل يحوز ثقة حزب البعث وقياداته، ومرشَّح لمنصب نائب وزير الدفاع في سوريا، وهو شخصية سياسية واجتماعية مرموقة، ليس من السهل اتهامها بمثل هذا الاتهام، دون أدلة قاطعة حاسمة...

وبعد اجتماع مع الرئيس (جمال عبد الناصر)، الذي هاله أن يكون المرشَّح الأوَّل لمنصب نائب وزير الدفاع السوري جاسوسًا إسرائيليًا، حمل (صلاح نصر)، مدير المخابرات المصرية حينذاك، ملف (إيلي كوهين) بنفسه، ليضعه بين يدي الرئيس السوري شخصيًا... وكانت صدمة رهيبة، ليس للرئيس السوري وحده، ولكن لمدير مخابراته، وكل المقربين منه بلا استثناء، وخصوصًا القادة العسكريين، الذين كاد الرجل يصبح نائب وزيرهم، بعد وقت قليل....

كانت المخابرات السورية آنذاك، ومنذ فترة ليست بالقصيرة، تتابع بثًا لاسلكيًا مشفّرًا، وتحاول، بالأجهزة المتاحة في ذلك الحين، تحديد موقع البث بالضبط، ولكن كل ما توصَّلت إليه هو تحديد الحي، الذي ينبعث منه البث، وإن لم يخطر على بال مخلوق واحد، أن يكون مصدره هو منزل (كامل أمين ثابت)، الذي يقيم في شقة فاخرة، في ذلك الحي...

ومع المعلومات الجديدة، وعندما تمت مداهمة منزل (إيلي)، برجال المخابرات السوريين، ووكيل نيابة عامة، ثار الرجل

وهاج وماج، وهدَّد وتوعَّد، خاصة وأن عملية التفتيش لم تسفر في البداية عن العثور على جهاز اللاسلكي المنشود، ولكن يقظة أحد رجال المخابرات السورية، جعلته يلاحظ ميلًا خفيفًا، في إطار ستارة النافذة الرئيسية، وبتفتيشه، تم العثور على جهاز الاتصال اللاسلكي داخله، مخفيًا بمهارة حرفية، وكان دليل الإدانة الرئيسي، الذي حسم الأمر كله...

وانهار جهاز المخابرات الإسرائيلي، عندما سقط (إيلي)، وراح يبذل قصارى جهده لاسترجاعه، وبأي ثمن، حتى أنه عرض مليون دولار ثمنًا لهذا، وكان مبلغًا شديد الضخامة في ذلك الحين، ولكن (سوريا) رفضت العرض بشدة؛ لأن الصدمة كانت أكبر من أن تساوي أي مبلغ مادي في الوجود؛ فالرجل تعَّرف كل السياسيين والعسكريين هناك تقريبًا، وحصل على معلومات شديدة الدقة وبالغة الخطورة، حتى أن الإسرائيليين أكَّدوا فيما بعد، أن ما حصل عليه كان أحد أهم أسباب نجاحهم في حرب ١٩٦٧م...

وعلى عكس (رفعت الجمَّال)، سقط (إيلي كوهين)، وتمت محاكمته على نحو علني، وأرسلت (إسرائيل) محاميًا فرنسيًا للدفاع عنه، ولكن النظم القانونية في (سوريا) آنذاك لم تسمح بهذا، فتم توكيل محام سوري بمبلغ خرافي، إلا أنه، وعلى الرغم من هذا، فقد صدر الحكم بإعدام (إيلي كوهين)، وتم تنفيذ الحكم في ميدان عام، وتركت جثته معلقة هناك لعدة أيام بعدها..

وحتى هذه اللحظة، وفي كل مفاوضات إسرائيلية سورية، يحتل مطلب إعادة رفات (كامل أمين ثابت) البنود الأولى المقترحة؛ لأن العقيدة اليهودية تؤمن بأنه ما لم يدفن اليهودي في أرض يهودية، فروحه ستظل معذّبة، حتى يحدث هذا....

عملية الزرع إذن ليست هينة أو بسيطة، بل هي ثمار جهد طويل، وعمل شاق بلا حدود، منذ اختيار العنصر المناسب للعملية، وحتى معاونته، عبر فريق كامل من الخبراء، على تقمّص الشخصية الجديدة، التي سيتم زرعه بها، ونسيان هويته الأصلية، حتى في نومه وأحلامه...

وليس من السهل أن تتم عملية زرع ناجحة، في أية ظروف، ففي بعض الأحوال يكون زرع العميل أمرًا ممكنًا، وفي أحوال أخرى يكون مستحيلًا؛ فلأن (إسرائيل) بلدًا يعتمد على المهاجرين الجدد، من كل أنحاء العالم، ولأن كل من يهاجر إليها، يبدأ في تعلم لغتها العبرية منذ البداية، فهذا يجعل عملية زرع العميل فيها أكثر سهولة، على عكس (مصر) مثلًا، التي لا يمكن لأحد أن يتحدّث بلكنتها، ما لم يكن قد ولد وعاش في أحضانها، وهذا ينطبق أيضًا على الفارق بين المجتمع الأمريكي، الذي زرع السوفييت فيه آلاف الجواسيس، عقب الحرب العالمية الثانية؛ لأنه يعتمد على الهجرة، من كل أنحاء العالم، في حين كان من العسير على الأمريكيين أن يزرعوا عميلًا في قلب الاتحاد السوفيتي؛ لسماته الانغلاقية، وسهولة كشف الغرباء فيه...

وعندما يتم زرع عميل بنجاح، في مجتمع ما، فهو يمر بمراحل من المسميات، في عالم الجاسوسية، منذ بداية الزرع، وحتى نهاية المهمة...

ولهذا حديث قادم.

***

الجاسوس المزروع، هو أكثر جاسوس يحتاج إلى التدريب، ولابد وأن يتمتَّع بموهبة حقيقية، تتيح له البقاء طويلًا، في الوسط الذي سيتم زرعه فيه، وهو يتلقَّى نوعًا خاص من التدريبات، يمكِّنه من التعايش وسط العدو، دون أن ينكشف أمره، ومنذ يضع قدميه في الوسط الجديد، يمر بعدد من المراحل والمسميات، التي يقتضيها وجوده، بدءًا من العميل النائم، أو (الجاسوس النائم)، وحتى ما نطلق عليه اسم (الجاسوس المقيم)...

ففي البداية، وعندما يصل الجاسوس إلى الأرض الجديدة، يطلق عليه اسم (الجاسوس النائم)، وهذا المسمى يعني أنه جاسوس لا يمارس أية أنشطة تجسَّسية، مهما كانت الأسباب أو المغريات، حتى لا ينكشف أمره، أو يثير الشبهات من حوله، بل وربما يتعيَّن عليه أحيانًا، ان يبلغ سلطات الأرض الجديدة، عن كل ما يثير شكوكه فيمن حوله، أو أية محاولة لاستقطابه، كما يفعل أي مواطن شريف هناك... والغرض من هذا أن يمر الجاسوس أوَّلا بمرحلة مد جذوره في الأرض الجديدة، بنفس الأسلوب والترتيب الطبيعي، الذي يمر به أي قادم جديد،

ودون أية معاونة، أو حتى اتصال مباشر، أو غير مباشر، بجهاز المخابرات الذي يعمل لحسابه، وعليه أن يمر بكل المتاعب والصعاب، ويتجاوز وحده كل المحن وكل العقبات، وأن يعاني معاناة أي شخص عادي، وألا يتعسَّف عقد الصداقات، أو تكوين المعارف، بحيث تسير أموره عادية للغاية؛ فإذا ما وقع على سر هام، فعليه أن يتجاهله تمامًا، مهما بدا له شديد الخطورة أو الحساسية؛ لأنه من المحتمل جدًا، أن يكون هذا السر قد وضع أمامه عمدًا؛ لاختبار ولائه وانتمائه...

وهذه المرحلة النائمة غير محدودة المدة، بل متروكة للظروف الطبيعية، ولقدرة الجاسوس على التكيّف مع المجتمع الجديد... ولن يحاول جهاز المخابرات حتى متابعته في البداية؛ حتى لا تتعَّرض العملية لأية احتمالات فشل، وعليه أن يدرك هذا من البداية، ويستعد له تمامًا، وأن يحتمل كل ما سيلاقيه في سبيل هذا، ولهذا السبب بالتحديد، يتحتم أن يتمتع بوطنية صادقة، ورغبة مخلصة في العمل والتضحية في سبيل وطنه...

ثم تأتي اللحظة المناسبة، وهي لحظة نقل الجاسوس، من مرحلة (الجاسوس النائم) إلى مرحلة (الجاسوس النشط)، وكما أوردنا، فهذا لا يتم بجدول زمني محدود، وإنما وفقًا لتطوَّرات الأمور وتداعياتها، إذ بعد عام منزرعه تقريبًا، ستبدأ مخابراته في متابعة أخباره وتطوَّراته من بعيد، وربما من خلال جاسوس آخر، حتى تتيقَّن من أنه قد حقَّق الاندماج الكامل مع المجتمع

الجديد، ولا تحيط به أية شبهات، مع ملاحظة حتمية ألا ثير أية خلافات مع أية جهة، أو أي فريق، ولهذا نجد دومًا أن سمة كل الجواسيس، أنهم لا يرغبون في الدخول في أية مناقشات، حول السياسة أو الدين بالتحديد...

وعندما تتيقن المخابرات من أنه قد بلغ هذه المرحلة، ترسل إليه ما يعرف باسم (إشارة التنشيط)، وهذه الإشارة تكمن دومًا في شيء عادي للغاية، لا يحوي أية رسائل خفية أو سرية، ولا يمكن أن يثير أدنى شبهة، مثل رسالة من حبيبة سابقة، أو قريب يقيم في مكان بعيد، أو هدية بالغة البساطة، مثل طاقم حلاقة، أو قميص عادي...

وعندما يتلقى (الجاسوس النائم) هذه الإشارة، التي تم تعريفه بها، قبل بدء مهمته، يدرك أن مرحلة النوم قد انتهت، وحانت لحظة النشاط، التي ما يكون غالبًا في شوق إليها...

ويبدأ الجاسوس عندئذ في جمع المعلومات، وتكون لديه في البداية وسيلة بسيطة لتوصيلها، مثل تركها فيما يسمى (النقطة الميتة)، وهذا يعني أن يذهب إلى مطعم ما مثلًا، في ساعة محدودة، ويدخل دورة مياهه، ويترك المعلومة في مكان متفق عليه مسبقًا، وبعد خروجه، سيدخل شخص آخر، لا يعرفه الجاسوس على الأرجح، ويلتقط المعلومة، من المكان نفسه، ثم ينصرف، دون أن يلتقي أحدهما بالآخر...

وبعدها، ومع نجاح الجاسوس في جلب معلومات مفيدة،

تحقَّق نتائج إيجابية في التعامل مع العدو، يتم اعتباره (جاسوسًا إيجابيًا)، ويصبح محل ثقة جهاز المخابرات أكثر، فتتحوَّل عملية نقل المعلومة إلى ما يسمى (اللقاء الخاطف)، حيث سيلتقي لأوَّل مرة بجاسوس آخر، يتبادل معه المعلومة مباشرة، خلال ثوان معدودة، وبوسيلة تختلف في كل مرة، ويكون هذا تمهيدًا لنقله إلى مرحلة تدريب جديدة، ترفع رتبته في عالم الجاسوسية...

ولا بد في هذه الحالة من أن تصل إلى الجاسوس رسالة جديدة، إما عبر لقاء خاطف آخر، أو من خلال رسالة بريدية عادية، من نفس الحبيبة، التي يتبادل معها الرسائل طوال الوقت، وفيها، وبأسلوب متفق عليه، ويحفظه هو عن ظهر قلب، من قبل أن يبدأ مهمته، ومن خلال كلمات بسيطة، عادية المظهر، يتم تحديد موعد خاص معه، في مكان ما، خارج الدولة التي تم زرعه فيها، وعلى الجاسوس عندئذ أن يجد مبررًا منطقيًا للسفر، يجد قبولًا لدى كل من يحيطون به، ثم يذهب إلى اللقاء...

ولهذا فن آخر.

***

\book100100

(٣)

اللقاء بأي جاسوس، يكون دومًا في أحد ما يطلق عليه اسم (المنزل الآمن)، وهو مكان لا يثير الشبهات في المعتاد، تقيم فيه عائلة عادية، أو يقيم فيه شخص يحمل جنسية بلد اللقاء، وهناك يلتقي الجاسوس بعدد من الخبراء، الذين يقومون بتدريبه على وسائل اتصال أكثر تقدَّمًا، مثل (الشفرة) أو (الحبر السري)، أو كلاهما معًا....

وتعتمد الشفرة دومًا على ما يسمى بالمفتاح، الذي يكون عبارة عن كتاب عادى، أما (الحبر السري)، فهو مادة كيماوية خاصة، ذات تركيب معقَّد، يتميَّز بانعدام اللون والرائحة، يكتب به الجاسوس ما لديه من معلومات، بين أسطر رسالة بسيطة، مكتوبة بالحبر العادي، فلا يمكن رؤية ما كتبه، إلا باستخدام مادة كيماوية أخرى معادلة...

وهذا أبسط أسلوب قديم، تم استخدامه في كتابة الرسائل السرية، إذ أن تقنية الحبر السري قد تطوَّرت كثيرًا عبر السنين، حتى وصلت إلى أحبار خاصة خفية، لا يمكن رؤيتها، إلا تحت تأثير موجة بعينها، من الأشعة فوق البنفسجية، كما أن هناك وسائل مختلفة، لا تعتمد على الكيماويات، التي يمكن الآن كشفها وتحليل

تركيباتها، مع تطوَّر التكنولوجيا الحديثة، ففي البداية، كان هناك ما يسمى بالكربون الأبيض، وهو أشبه بالكربون العادي، الذي كان يستخدم قديمًا، في النسخ الفوري للأوراق، والذي يظهر في النسخة، باللون الأزرق أو الأسود، وأحيانًا الأحمر، ولكن الكربون الأبيض ينسخ الرسالة بلا لون، بين سطور رسالة أخرى، وتستخدم مادة خاصة؛ لمعادلة اللا لون، بحيث يبدو مرئيًا، عند استلام الرسالة، ولكن هذه الوسيلة كانت سهلة الكشف، إذا ما وقعت الرسالة في يد العدو، ولهذا كان من الأساسيات ألا تحوي الرسالة أية إشارة إلى المرسل، وأن يتم إرسالها في كل مرة، من مكان مختلف، بعيدًا عن مقر إقامة المرسل....

ثم تطوَّرت التكنولوجيا، فحلَّ ـ الكيماويات محل الكربون الأبيض، وبنفس القواعد، وبدأت حرب الكيمياء، بين كل الأطراف المتصارعة، في عالم التكنولوجيا، وراح الفنيون في كل فريق، يعملون على ابتكار كيماويات جديدة خفية، ذات تركيبات معقدة، بحيث لا يمكن إظهارها، إلا بوساطة كيماويات أخرى أكثر تعقيدًا، ونشط كل طرف أيضًا، في محاولة كشف تركيبات الخصم، وإيجاد وسيلة لإظهارها، قبل أن تتطوَّر التكنولوجيا أكثر وأكثر، وتظهر الأجهزة الحديثة، التي تستخدم مقاييس الطيف، في تحليل المواد الكيماوية، ومهما بلغ تعقيدها...

وهنا بدأ البحث عن وسائل جديدة، كان أشهرها إيجاد تركيبات مشعة، ذات طول موجي خاص، بحيث لا يمكن إظهارها، إلا

باستخدام الأشعة فوق البنفسجية، وبطول محدود للغاية...

ولكن حتى هذا أمكن كشفه، بالأجهزة الأحدث والأحدث، وكل هذا قبل أن يظهر الكمبيوتر إلى الوجود، ويجعل فكرة الحبر السري تبدو ساذجة، ثم يضع أبجديات جديدة للعمل السري، وهو ما أربك الكثير من المفاهيم لدى العامة، وجعلهم يتصوَّرون أنه لم تعد هناك حاجة للجاسوس البشري، في ظل تكنولوجيا رقمية، تتطوَّر في كل يوم، وأحيانًا في كل ساعة، وهذا حديث سنعود إليه فيما بعد، ولكن المهم الآن هو أن نشير إلى أنه حتى التكنولوجيا الرقمية، ليست آمنة كما يتصوَّر البعض، بل وربما تكون أكثر يسرًا في كشف عملية نقل المعلومة، إذ أن أي اتصال رقمي يمكن تتبعه، ومعرفة مصدره بالتحديد، مهما حاول صاحبه إخفاء هذا، مع ملاحظة أننا نتحدث عن إمكانيات أجهزة مخابرات كاملة، وليس عن إمكانيات فردية بسيطة... ففي عالم الجاسوسية هناك دومًا حرب لا تنقطع، بين التكنولوجيا والتكنولوجيا المضادة؛ فكل طرف يسعى لابتكار وسائل تكنولوجية حديثة، والطرف المضاد يسعى لكشفها، عبر وسائل تكنولوجية أخرى، وابتكار وسائل مختلفة، في الوقت ذاته؛ لإخفاء ما يرسله من معلومات...

ومع بداية عصر الكمبيوتر، ظهرت برامج عديدة لتشفير كل ما يرسل رقميًا، ثم برامج لفك الشفرات، وتواصلت هذه الحرب في السنوات الأولى، قبل أن يتوَّصل عباقرة الرياضيات،

إلى أساليب ومعادلات رقمية، يمكنها عن طريق رصد تكرار الحروف في الرسالة، فك أية شفرة رقمية، مهما بلغ تعقيدها، وهنا وجب البحث عن وسيلة جديدة؛ لإخفاء المعلومة، التي يتحتم إرسالها رقميًا؛ نظرًا للإيقاع السريع، للعالم الحديث، الذي نعيش فيه، ولهذا تم ابتكار ما يعرف باسم (الصورة الخفية)، وهي وسيلة رقمية عبقرية، تستخدم لإخفاء المعلومات، عبر صورة عادية، يتم إرسالها بالبريد الإليكتروني، فالصورة الرقمية – أية صورة- هي في واقعها عبارة، يتم إرسالها بالبريد الإليكتروني، فالصورة الرقمية، التي تراها العين بسيطة واضحة، وفكرة (الصورة الخفية)، تعتمد على دس نص الرسالة، وسط معادلات الصورة الأصلية، وبأسلوب فني، لا يؤثر على الشكل العام للصورة، ولكن المستقبل وحده يعلم ما تحويه؛ لذا فهو يعيد الصورة إلى معادلاتها الأوَّلية، ويستخلص المعلومة من بين معادلاتها ورموزها، بوساطة برنامج خاص لهذا...

وعلى الرغم من عبقرية الفكرة، إلا أنه هناك قاعدة في عالم التكنولوجيا، تقول: إنه ما دامت هناك عقول قد صنعت هذا، فهناك حتمًا عقول أخرى، قادرة على كشفه، ولهذا يتحتم أن تكون الرسالة، المخفاة داخل الصورة، مشفرة أيضًا، وألا تكون الصورة مرسلة وحدها، وإنما ضمن مجموعة من الصور الأخرى العادية، التي لا تحوي أية رسائل، مع وسيلة متعارف عليها، بين المرسل والمستقبل؛ لتحديد الصورة المطلوبة بالضبط...

وفي بعض الأحيان، لا يتم حتى إرسال المعلومة كاملة في صورة واحدة، بل يتم تقسيمها إلى عدة أجزاء، يتم إرسال كل جزء منها في صورة مختلفة، وإلى مستقبل مختلف؛ لضمان وصولها دون كشف أمرها...وهذا الأسلوب هو تطوير لأسلوب آخر، يتسم أيضًا بالعبقرية، استخدمته المخابرات الألمانية، خلال الحرب العالمية الثانية... ولهذا حديث آخر.

***

التكنولوجيا وشبكة الإنترنت، صارا الملعب الرئيسي الكبير، في عالم الجاسوسية، وعلى عكس ما يتصوَّر البعض، فإن مراقبة شبكة الإنترنت، ليست مهمة مستحيلة، بالنسبة للتكنولوجيا، التي تتطوَّر في كل لحظة، فعلى الرغم من إبحار مليارات الرسائل والصور والمعلومات، عبر الشبكة العنكبوتية، في كل لحظة، إلا أن هناك برامج متطوِّرة، يمكنها اقتناص أية رسالة، يمكن أن تثير الشك، من وسط كل هذه المليارات، مهما بلغت درجة تأمينها أو تشفيرها، وهذا قد لا يتفق مع الصورة الخفية، التي يصعب رصدها، دون معلومة مسبقة، أو مراقبة لشخص بعينه، وهذا يعيدنا مرة أخرى إلى الجاسوس البشري، كأخطر سلاح في هذا العالم السري الغامض، والذي يمكنه أن يبلغ الجهة، التي يعمل لحسابها، عن أشخاص بعينهم، يمكن متابعة اتصالاتهم ورسائلهم عبر الإنترنت، بصورة خاصة، وفحص كل ما تحويه، بوساطة مجموعة من الخبراء والفنيين، كل في مضماره، وهذا يوفِّر

آلاف الساعات، من فحص رسائل تحوي بعض الشك فحسب، ونعود من هذا إلى الحديث عن الجاسوس، الذي مرَّ بمرحلة (جاسوس نائم)، ثم (جاسوس نشط)، ثم تحوَّل مع التدريب والخبرة إلى (جاسوس فعَّال)، يمكنه تزويد جهة عمله بكم مفيد من المعلومات، ويمكنه عقد شبكة من العلاقات المتعدِّدة، التي تساعده على هذا...

عندئذ يتلقى الجاسوس دورة تدريبية أخرى، الهدف منها نقله إلى مرحلة جديدة، يمكنه فيها أن يدرس دائرة معارفه؛ لتحديد إمكانية تجنيد بعض الأشخاص، ثم يبلغ الجهاز الذي يتبعه؛ لاتخاذ ما يلزم في هذا الشأن، ولكنه لا يقوم بتجنيد الأشخاص بنفسه في هذه المرحلة، حرصًا على استقراره وسرية موقفه في بلد الزرع، إلا أنه، وبعد أن تستقر به الأوضاع تمامًا، ويصبح محل ثقة جهاز المخابرات، على نحو لا يقبل الشك، يتحوَّل إلى (جاسوس مقيم)، وهو الجاسوس الذي يدير معظم عمليات التجسَّس في منطقة عمله، وعبره تصل الأوامر والأموال إلى الجواسيس الأقل شأنًا، ومنهم تصل إليه المعلومات، عبر (نقطة ميتة)، ويصبح أشبه بالممثل الخفي لجهاز المخابرات، في تلك المنطقة...

وفي حالات نادرة، ينتهي عمل الجاسوس، دون أن ينكشف أمره، فيعود بعد تقاعده شبه الكامل، إلى حالة (جاسوس نائم) مرة أخرى، كما حدث مع (رفعت الجمال)، وآخرين لم يفصح عنهم بعد، فيستقر به المقام في دولة الزرع، أو يحتفظ بهويته

الجديدة خارجها، دون أن يزاول أية انشطة في مجال التجسَّس، أو يجري أية اتصالات، يمكن أن تحيطه بالشبهات، ويمكن للجهاز الذي زرعه أن يعيد تنشيطه، إذا ما تحتم هذا، أو يحتفظ به كسلاح سري، ربما لا يستخدم مرة ثانية أبدًا... ولقد تعدَّدت وسائل التجنيد، في أجهزة المخابرات المختلفة، وفقًا لمفاهيم كل جهاز، فجهاز الاستخبارات السوفيتي مثلًا (KGB)، استخدم قديمًا أسلوبًا، أطلق عليه اسم (المخرج الوحيد)، وهو يعتمد على محاصرة الهدف وتوريطه، بحيث يكون مخرجه الوحيد من الأزمة، هو التعاون مع المخابرات السوفيتية السابقة، ففي إحدى الحالات مثلًا، وقع اختيار الجهاز على أحد المبعوثين الدراسيين، الذي كان يحصل من دولته على مبلغ مالي شهري زهيد، يكفي متطلباته الأساسية بالكاد، والقانون هناك يمنع المبعوثين من العمل خارج الجامعة، طوال فترة الدراسة، ولهذا دسَّت المخابرات السوفيتية عليه عميلًا، أقنعه بتحويل دولاراته في السوق السوداء؛ ليحصل بذلك على ضعف المبلغ، الذي يحصل عليه شهريًا، من تحويلها بالطرق الرسمية، ولما كانت عقوبة الاتجار بالعملة مخيفة أيامها، فقد طمأنه العميل بأنه لن يعرِّض نفسه لأي خطر؛ إذ سيحضر له الروبلات بنفسه، ويتقاضى الدولارات بعدها... وتم الامر، ومر بسلام أكثر من مرة، وابتهج المبعوث بالزيادة الكبيرة في الدخل، واعتاد الأمر، والعيش بهذا الدخل الجديد، حتى اتصل به العميل ذات

مرة، وأخبره أن ظروفه تمنعه من الحضور هذا الشهر، واخبره أن صديقًا مؤتمنًا سيصل إلى ناصية منزله، وعليه أن يلتقى به، ويتبادل معه النقد، وفي هذه المرة بالذات، ظهرت الشرطة فجأة، واعتقلت المبعوث، متلبسًا بتغيير العملة في السوق السوداء، وتم وضعه في زنزانة رهيبة، مع عدد ضخم من الملقى القبض عليهم، وكان عليه أن ينظر طوال الوقت إلى نافذة الزنزانة المغلقة، وإلا تعرَّض لعقاب رادع، لو فتح السجَّان النافذة فجأة، في أية لحظة من الليل أو النهار، فوجده ينظر إلى أية جهة أخرى...

وبعد ثلاثة أيام فحسب، صار المبعوث مستعدًا لعمل أي شيء في الوجود؛ للخروج من هذه المأساة، وعندما وافق على العمل مع السوفييت، خرج من الزنزانة، وتناول وجبة ساخنة، وارتدى ثيابًا نظيفة...

ووقَّع على ايصال باستلام مبلغ كبير من الروبلات، مقابل العمل لحساب المخابرات السوفيتية...

وبهذا الإيصال، وقع في الفخ، وصار مضطرًا لاستمرار العمل، أو للبقاء على ذمة المخابرات السوفيتية، في حالة (جاسوس نائم)، أو (جاسوس احتياطي)، قد لا ينتقل إلى حالة (جاسوس نشط)، إلا لو ترقّى في عمله، و...

ومازال للحديث بقية.

***

لكل جهاز من أجهزة المخابرات العالمية، أسلوبه ووسائله،

في الإيقاع بمن يستهدف تجنيدهم، وفقًا لأيديولوجيته، ومنهجه الفكري، فالنسبة لجهاز المخابرات السوفيتي السابق، كانت لديهم وسيلة مضمونة، معروفة باسم (المخرج الوحيد)، حيث يتم وضع العنصر المستهدف في حالة سيئة، يكون مخرجه الوحيد منها، هو التعاون مع المخابرات السوفيتية، فقديمًا، كانت معظم البعثات تذهب إلى الاتحاد السوفيتي، وكانت ميزانية المبعوث محدودة، تتيح له الحياة بالكاد، خاصة وان القانون لم يكن يسمح له بالعمل، طوال فترة بعثته، وكان على المبعوث أن يحوَّل ما يصله من المال إلى الروبلات السوفيتية، بالسعر الرسمي هناك، والذي كان يختلف كثيرًا عن سعر الروبلات الحقيقي، في السوق السوداء، في نفس الوقت الذي كانت عقوبته تحويل العملة في السوق السوداء مفزعة إلى حد كبير...

وكانت المخابرات السوفييتية تختار العنصر المستهدف، من بين المبعوثين، ثم تدس عليه أحد عملائها، الذي يطرح عليه فكرة تحويل العملة بسعر السوق السوداء، دون أية مخاطرة، وتأكيد لحسن النوايا، يحضر له المبلغ فعليًا، قبل أن يتسلَّم منه راتب البعثة، ويكون المبلغ ضعف مبلغ التحويل الرسمي على الأقل، فيفرح الهدف بالفارق المالي الكبير، الذي يتيح له حياة أكثر انتعاشًا، مع الانعدام التام للمخاطرة...

ويتكرَّر هذا الأمر مرات ومرات، حتى يعتاد المبعوث هذا الدخل الجديد، ويعتاد العيش بهذا المستوى، وهنا تأتى مرة،

يعتذر فيها عميل المخابرات السوفيتية عن الحضور، ويطلب من المبعوث أن يتبادل المبلغ مع صديق له، سيلتقي به عند ناصية سكنية، وأمام الموقف، واعتياد الأمر، يلتقي المبعوث بذلك الصديق المزعوم، ويتم التبادل...

وهنا تظهر الشرطة فجأة، وتلقى القبض على الرجلين، ويتم نقل ثلاثين شخصًا، في زنزانة صغيرة قذرة، سيئة التهوية، بها مرحاض بدائي في منتصفها، يزيدها سوءً، مع تعليمات صارمة من السجَّان، الذي يبدو شرسًا، قاسى الملامح، بأن ينظر المبعوث طوال الوقت إلى نافذة الباب المغلقة، ليل نهار، بحيث إذا ما فتح السجَّان النافذة فجأة، وضبطه ينظر إلى جهة أخرى في أية لحظة، يتم جذبه في قسوة خارج الزنزانة، وضربه في شراسة، حتى يكاد يفقد الوعى، ويتم حرمانه من وجبة الطعام الوحيدة الهزيلة، التي تقدَّم يوميًا، والتي تعافها النفس، وتكفي طفلًا بالكاد....

وبعد ثلاثة أيام على الأكثر، في هذه المأساة الرهيبة، يصبح الهدف مستعدًا للتعاون مع الشيطان نفسه، إذا لزم الأمر؛ للخروج من هذا الجحيم... وهنا، وعندما يقرّر الخبراء أن الوقت قد حان، يتم إخراجه من الزنزانة، ويحصل على حمام ساخن، وملابس نظيفة، ووجبة دسمة، ثم يخبره الخبراء، بأن كل المطلوب منه، هو أن ينقل إليهم أخبار الأمريكيين أو الإنجليز في (مصر)، ويؤكدون له أنه لا نية لديهم ولا هدف، في الحصول على أية معلومات عن المصريين أو أسرارهم، مما يجعل ضميره يهدأ،

ويجد في هذا العرض (المخرج الوحيد)، من الجحيم الذي عاشه، والذي يمكن أن يعود إليه، فيوافق على الفور، ويتقاضى عقب الموافقة مبلغًا جيدًا من الروبلات، ويوقع إيصالًا باستلامه، من المخابرات السوفيتية...

وبتوقيع هذا الإيصال، يكون قد غاص في المستنقع حتى أذنيه، وترك خلفه دليلًا دامغًا، على تعاونه مع مخابرات أجنبية...

وينهي المبعوث بعثته، وقد وقّع عددًا آخر من الإيصالات، ويتورط أكثر وأكثر، دون أن يطالبه أحد بأية معلومات، وبعد انتهاء بعثته، يعود إلى (مصر)، ويرسل في البداية، تحت ضغط الخوف، بعض المعلومات القليلة عن الاجانب في مصر، ثم يحاول التنصّل من الأمر، فلا يعترض أحد، ولا يطالبه بأي عمل، أو أية معلومات....

ويمضي الزمن، ويكبر المبعوث، ويتصوَّر أن ما حدث كان مجرَّد ذكرى سيئة من الماضي، وأنهم قد نسوا أمره تمامًا، حتى يحتل منصبًا كبيرًا، بعد عدة سنوات، أو يصبح من أصحاب القرار...

وهنا يفاجأ بمن يجري اتصالًا به، لتنشيطه، مع التأكيد على أنهم سيفضحون أمره، من خلال الإيصالات، التي تثبت عمله معهم لسنوات، وأن هذا كفيل بتدمير مستقبله، والقضاء على كل ما وصل إليه من منصب ومكانة...

ومرة أخرى، يصبح استمرار التعاون معهم هو (المخرج الوحيد)؛ لعبور تلك الأزمة الجديدة...

هكذا كان السوفييت يفعلون، قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، ولقد اقتبست المخابرات الإسرائيلية الأسلوب نفسه، واتبعته مع (على العطفي)، عميد معهد العلاج الطبيعي الأسبق، والمدلك الخاص للرئيس (جمال عبد الناصر)، والرئيس (السادات)، والذي ابتاع له الإسرائيليون شهادة دكتوراه زائفة من (الاتحاد السوفيتي)، بعد فشله في الحصول عليها فعليًا، وجندته لحسابها، حتى تم كشف أمره، عقب تحريات المخابرات عنه، في عصر الرئيس (السادات)، وألقي القبض عليه، وصدر حكم بإعدامه....

ووسائل المخابرات الإسرائيلية في التجنيد، تختلف عن وسائل السوفييت، في نواح شتى؛ إذ أنهم يسعون دومًا خلف توريط الهدف، في امور نسائية أو مادية، أو استغلال طموحاته وتطلعاته، و...

لهذا حديث آخر.

***

أكبر مستند، يسقط الجاسوس في يد من جندوه، الإيصال الذي يوقعه باستلام أي مبلغ من المال منهم؛ إذ أنه يثبت تمامًا تعامله معهم، وتقاضيه ثمن خيانته، يثبت حالة الرضا والقبول لديه، ويجعله في بعض الأحيان، مضطرًا للاستمرار في الخيانة؛ خشية أن يصل هذا الإيصال إلى المسئولين في وطنه، فتنهار حياته كلها...

ولكن أي جاسوس، يتم تجنيده بهذه الوسيلة القسرية، يمكنه أن يفلت من بئر الخيانة، بأسلوب واحد فقط، وهو أن يتجه، فور

عودته إلى وطنه، إلى مخابرات دولته، ويخبرهم بكل ما حدث، ويضع نفسه تحت تصرَّفهم، وهم قادرون، في هذه الحالة، على حمايته، وانقاذه من مصير أسود، في حالة انكشاف أمره..

وهناك فارق كبير، بين شخص حاول العدو تجنيده، فلجأ مباشرة إلى مخابراته لحمايته، وآخر تصوَّر أنه قادر على خداع الجميع، فواصل تزويد العدو بالمعلومات لفترة، طمعًا في المزيد من المال، وبعد أن حقَّق ما يريد، حاول القيام بما يسمى (لعبة التنظيف)، وهي أن يلجأ بعدها إلى مخابرات دولته، ويبلغها بما حدث، متصوَّرا أنه بهذا قد فاز بالحسنيين، فحصل على أموال العدو، وقام بتنظيف قذاراته في الوقت ذاته، وهي أكثر الألعاب حماقة، في عالم الجاسوسية، فمن غير المنطقي، حتى في كرة القدم، أن يتصوَّر لاعب واحد قدرته على مواجهة فريقين محترفين، والانتصار عليهما معًا، في آن واحد...فجهاز المخابرات -أي جهاز مخابرات- ليس مجرَّد مكتب بسيط، بل كيان ضخم، يضم عددًا هائلًا من الخبراء والمختصين والفنيين، الذين يمكنهم استيعاب وتحليل وتنسيق كل كلمة تصل إليهم، وعندما يحاول أي جاسوس متلاعب مواجهة هذا الفريق المخيف، فإنه سيكشف نفسه، مهما أتخذ من وسائل الحذر، وسيدرك الفريق حتمًا مدى تورَّطه، وسيكشف لعبة (التنظيف)، التي يحاول القيام بها، وستصبح أقواله عندئذ هي دليل إدانته، وليست وسيلة تنظيف ماضيه...

فأي جهاز مخابرات في العالم لا يعمل فيه أحد، أو يتخذ أية قرارات، على نحو منفرد، دون الرجوع إلى الخبراء، وهذا يمكن أن يجيب التساؤل الدائم، عن سر طول الفترة، ما بين كشف أمر جاسوس ما، والإعلان عن هذا الكشف، وتلك الفترة، ما بين إلقاء القبض عليه، والإعلان عن هذا؛ ففي نظم الأمن العادية، يمكن أن ينتهي أي تحقيق خلال أيام قليلة، ومن الوارد استخدام شيء من العنف؛ لانتزاع الاعترافات، ولكن في عالم المخابرات يختلف الأمر كثيرًا، إذ لا يتم إلقاء القبض على أي جاسوس، أو متهم بالجاسوسية، إلا بعد أن تكتمل لدى الجهاز أدلة كافية، كثيرًا ما تكون موثقة بالصوت والصورة، ولهذا سبب رئيسي، فالمتهم، بالنسبة لأجهزة الأمن الداخلية، يرتكب الجريمة، منفردًا أو ضمن جماعة ما، على نحو يخضع للقانون المصري وحده، أما اتهام شخص ما بالجاسوسية أو التخابر، فهو اتهام ضمني لدولة ما، بتورَّطها في عملية التجسَّس، وهو أمر شديد الحساسية، محليًا ودوليًا، وهذا يحتاج إلى التيقن أوَّلا، قبل اتخاذ أية خطوات عملية، وفي الحالات الداخلية، ومع استخدام بعض العنف، سيحصل المحقِّق من المتهم على ما يريد سماعه، وليس على الحقيقة الكاملة، وهنا يختلف الأمر تمامًا في عالم المخابرات، التي تمثَّل فيه الحقيقة الهدف الأساسي من التحقيقات، بحيث يتراجع دور الوقت أمامه، فالجاسوس، بعد إلقاء القبض عليه، تتم مواجهته بالأدلة، ثم يطلب منه الاعتراف، دون استخدام

لمحة من العنف، وبمنتهى الصبر، وعندما يكتب الجاسوس اعترافه بخطه، لا يؤخذ هذا الاعتراف على أنه الحقيقة، بل يتم عرضه على لجنة كبيرة من الخبراء، في مختلف المجالات، حيث يقومون بفحصه ودراسته وتحليله، وبمنتهى الدقة، إذ أن كل جاسوس يتم تدريبه على ما يسمى بالخطة(ب)، وهي عبارة عن رواية متقنة، تبدو ظاهريًا أشبه بالحقيقة، وتتمشى مع الأحداث وبعض الأدلة، وعلى الخبراء كشف هذا الأمر، وعندما يضعون تقريرهم، الذي يفنِّد الاعتراف الأوَّل، ويظهر نقط الضعف فيه، تتم إعادته إلى الجاسوس، وتتم مواجهته بتقرير لجنة الخبراء... وربما يلجأ الجاسوس عندئذ، وفقًا لمرتبته وخبرته، إلى الخطة (ج)، التي تتخذ الدورة نفسها، ثم تعاد مرة أخرى إلى الجاسوس، الذي يسقط في يده في النهاية، ويدرك عبث اللعبة، فيدلي أخيرًا بالاعتراف الحقيقي، الذي يتفق مع كل الأدلة، ومع تقرير الخبراء...

لهذا قد يستغرق انتزاع الاعتراف من الجاسوس عدة أشهر؛ باعتبار أن الهدف الأساسي هو الحصول على الحقيقة، وليس إغلاق الملف فحسب... وهناك دومًا تساؤل آخر، يطرح نفسه دومًا، مع إلقاء القبض على أي جاسوس، وهو: لماذا لا يتم حضور محاميه للاستجواب، من اللحظة الأولى؟!..وإجابة هذا التساؤل بسيطة للغاية؛ فهناك سببان أساسيان لهذا، أوَّلهما أن هناك معلومات، قد يتم تداولها أثناء التحقيق، وتندرج تحت

بند السرية المطلقة، التي لا يجوز لآخرين، مهما كانت مكانتهم، الاطلاع عليها، والسبب الثاني هو أن هناك في عالم المخابرات ما يعرف باسم (كود الأمان)... وللحديث بقية.

***

(كود الأمان) ليس كودًا سريًا معقدًا، كما قد يتصوَّر البعض، وإنما هو مجرَّد عبارة بسيطة، يمكن أن تقال وسط حوار عادي، وتبدو متناسبة مع الحوار، ولكنها تنقل رسالة ما، متفق عليها مسبقًا، ففي إحدى الحالات مثلًا، كان الاتصال التليفوني، الذي يبدأ بكلمة (ألو)، يعنى أن المتصل يجريه مضطرًا، وأنه واقع تحت سيطرة الخصم، وأن ما سيقوله بعدها، هو ما يمليه عليه هذا الخصم، أو أن كل ما يقال مراقب ومسجَّل، فإذا ما سمع الطرف الآخر كلمة (ألو) هذه، فعليه أن يستعد لهذا الموقف، ويدرك أن عميله تحت السيطرة...

وعندما تم كشف أمر الزوجين الجاسوسين (إبراهيم حسين شاهين)و(انشراح على موسى)، قبل حرب ١٩٧٣م، لم يتم إلقاء القبض عليهما فورًا، على الرغم من نجاحهما في عقد صلات مع جهات عديدة، إلى الحد الذي دفع الجيش الإسرائيلي إلى منحهما رتبًا شرفية في الجيش هناك، تحت اسمى (موسى عمر)و(دينا عمر)، ولكن المخابرات المصرية وضعتهما تحت السيطرة، دون أن يدركا هذا، ودست عليهما من المعلومات الزائفة، ما ساعد على استكمال خطة الخداع الاستراتيجي، وإيهام العدو بأننا غير

مقبلين على الحرب، وفي الوقت نفسه، راحت المخابرات تسعى، من خلال عيونها في قلب إسرائيل؛ لكشف كل ما يتعلق بهما، حتى أنه عندما ألقى القبض على (إبراهيم) وولديه، اللذين كانا شريكين في لعبة الجاسوسية، في يونيو ١٩٧٤م، ثم على (انشراح)، عقب عودتها من لقاء مع المخابرات الإسرائيلية في (روما)، في أغسطس من العام نفسه، كان رجال المخابرات المصرية على علم تام بالكود السري للاتصال الآمن، لذا فقد أجبروا (إبراهيم) على استمرار اتصالاته بزوجته وبالإسرائيليين، لأكثر من أسبوعين، دون أن يجرؤ على استخدام (كود الأمان) ولو مرة واحدة؛ لأن الرجال يعلمون به، وأخبروه عنه، قبل أن يبدأ اتصاله الأوَّل...

و(كود الأمان) لا يستخدم في هذه الحالة فحسب، ولكن يستخدم أيضًا لإرسال رسالة مطمئنة إلى الجاسوس، إذا ما وقع في قبضة العدو، وعند سماعها، يشعره هذا بشيء من الاطمئنان، ويمنحه بعض القوة، في مواجهة الاستجواب، والعناد في كشف الحقيقة، وهذا الكود يمكن أن يأتيه من خلال محاميه، دون أن يدرك المحامي نفسه خطورته، ودون حتى أن يتخيَّل تأثيره، عندما يتلقاه من خلال من يوكله، عبر عبارة عادية، تطمئنه على أسرته، أو على صديق مقرَّب، قد لا يكون له وجود في الواقع...

وبعد سقوط الجاسوس، وقضاء فترة طويلة في استجوابه، واعتصار كل ما لديه من معلومات، والتيقن من صحتها، ومطابقتها لكل الادلة والقرائن، وتمشيها مع أسلوب الجهاز

الذي جنده، تنتهي فائدة الجاسوس، بالنسبة لجهاز المخابرات، فيما عدا فائدة واحدة، لابد وأن يسبقها تقديمه إلى المحاكمة، مع كل أدلة ووثائق الاتهام، التي تضمن صدور حكم بسجنه، لمدة تتوافق مع مدى خطورته...

والأمر هنا يختلف، بين جاسوس من المجتمع نفسه، باع ضميره، وخان وطنه، وتجسَّس لصالح العدو، وآخر من دولة أخرى، جاء خصيصًا؛ ليتجسَّس على دولة، ويحصل على معلومات وأسرار منها، ففي الحالة الأولى، تكون الفائدة الأخيرة للجاسوس، هي فضح أمره، وفضح الدولة التي جندته، وإرسال رسالة إلى غيره، تقول: إن العيون المخابراتية يقظة، ولا تغفل عن حماية وطنها، أما في الحالة الثانية، فلا يكون سجن الجاسوس هو الفائدة، وإنما قيمته، كسلعة في سوق الجاسوسية، يمكنها أن تحقِّق صفقة مفيدة للدولة، إذ أنه بعد اعتصار كل ما لدى الجاسوس من معلومات، وحتى بعد سجنه، لا يعود لوجوده هدف هام، إذ لم يعد لديه ما يعطيه، بل يصير عبئًا على الدولة، التي ستنفق الأموال لسجنه وحراسته وإطعامه، ولكن فائدته الكبرى تكون في الصفقة، التي تجرى بشأنه، مع العلم بأنه هناك دومًا ما تحتاجه أية دولة، إما الإفراج عن آخرين محتجزين لدى العدو، أو الحصول على سلاح جديد، أو حتى صفقة مالية، لبناء اقتصادها القومي...

في السبعينات مثلًا، وقع في قبضة المخابرات المصرية جاسوس

إسرائيلي، كان ضابطًا في الموساد، يدعى (باروخ مزراحي)، ولقد أحضره ضابط مخابرات شجاع، من اليمن إلى القاهرة، في مغامرة مثيرة، وتم استخلاص كل المعلومات الممكنة منه، وعندما يتيقن رجال المخابرات من أنهم قد حصلوا على كل ما يريدون، تطلَّعوا إلى بعض رجال المقاومة في سيناء، كان العدو قد ألقى القبض عليهم، عقب حرب أكتوبر مباشرة، وتم عقد صفقة مع الجانب الإسرائيلي، تم بموجبها استبدال باروخ، بعدد كبير من الأسرى المصريين، من بينهم مجموعة المقاومة الشعبية العريشية بأكملها، وكان هذا، في نظر الجميع، صفقة استبدال ناجحة...

فعندما نسمع عن استبدال جاسوس ما، ينبغي ألا ننظر إلى الأمر بروح انتقامية، ونطالب بالقصاص؛ لأن أقصى ما يمكن أن يناله، في أية دولة، هو السجن، بل ينبغي أن ننظر إلى الجانب الآخر... إلى أبناء الوطن، الذين سيتم استردادهم، مقابل ذلك الجاسوس، الذي لم يعد يساوي شيئًا بالمعنى الحرفي...

ولنا بقية.

***

أجهزة المخابرات لا تعرف المفهوم الانتقامي؛ لأنه ليس موجودًا في قاموسها؛ باعتبار أن عملها كله يعتمد على العقل والحكمة والتروِّي، وحساب كل خطوة، ولأن الانتقام سلاح ذو حدين، وإذا ما بدأت لعبته، فهي تبدو أشبه بالثأر، الذي يستمر لسنوات، فينشغل به جهاز المخابرات، عن واجباته

الفعلية، ولكن هذا لا يمنع حدوث عمليات انتقامية عنيفة، في عالم المخابرات...

ولدينا رواية حديثة نسبيًا. ففي عام ١٩٧٢م، وأثناء انعقاد الدورة الأوليمبية في مدينة (ميونخ) الألمانية، وبعد رفض مسئولي الدورة اشتراك رياضيين فلسطينيين؛ باعتبار أن فلسطين لم تكن دولة رسمية في ذلك الحين، قررَّت منظمة أيلول الأسود، القيام بعملية ملفتة، ذات تأثير متفجّر؛ بهدف جذب الأنظار إلى القضية الفلسطينية، فقامت مجموعة فدائية، بقيادة (محمد داوود عودة)، المعروف باسم (أبو داوود)، بالتسلُّل إلى مقر الدورة، ولقد ساعدتهم المصادفة البحتة على هذا، عندما وصل بعض الأمريكيين السكارى، وبدأوا في تسلق الأسوار، وبعدها اقتحمت المجموعة مقر البعثة الرياضية الإسرائيلية، واحتجزت أحد عشر رياضيًا إسرائيليًا، قتل منهم رياضي ومدرَّب حاولا المقاومة، وطالبت المجموعة الفدائية بالإفراج عن مائتي أسير فلسطيني، من المعتقلين في السجون الإسرائيلية، من بينهم (ريما عيسى)، و(نيريز هلسا)، اللتين تم أسرهما، إثر عملية مطار اللد، في مايو العام نفسه، والفدائي الياباني (أوكاموتو)، والضباط السوريين الخمسة، الذين أسرتهم (إسرائيل)، مع ضابط لبناني، في يونيو من نفس العام، مع تأمين نقلهم إلى أية دولة عربية، ولقد حاصرت الشرطة الألمانية المكان، وأبلغت السلطات الإسرائيلية، التي أرسلت مسئولًا كبيرًا من (الموساد)؛ إعداد كمين إطلاق

سراح الرهائن، حتى لو أدى هذا إلى مقتلهم، كما صرحت آنذاك، رئيسة الوزراء الإسرائيلية (جولدا مائير) أمام الكنيسيت...

ولقد طالب الفدائيون بطائرة تنقلهم مع رهائنهم إلى (القاهرة)، وتم تنفيذ مطلبهم ظاهريًا، حيث وصلت طائرتي هليوكوبتر، حملتا الفدائيين ورهائنهم إلى مطار (فورشينفليد بروك) الحربي، حيث كان الكمين في انتظارهم، وهناك أضيئت الأضواء الكاشفة، وأطلق القنَّاصة الألمان النار على الفدائيين، الذين جاوبوهم بالمثل، وأطلقوا النار على المصابيح الكاشفة، حتى ساد الظلام، وتواصل إطلاق النار لثلاث ساعات كاملة، تم خلالها قتل ضابط ألماني، وطيار إحدى المروحتين، وتفجير المروحية نفسها، وقام الفدائيون بقتل الفريق الرياضي الإسرائيلي كله، وقتل خمسة من أصل ثمانية، من الفدائيين الفلسطينيين، وألقى القبض على المتبقين الثلاثة، ولكن مجموعة فدائية أخرى اختطفت إحدى طائرات (لوفتهانزا)، كانت متوجهة من (بيروت) إلى (ألمانيا)، مما أجبر السلطات الألمانية على إطلاق سراح الفدائيين الثلاثة، في التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٧٢م...

وهنا أعلن (الموساد) أنه سيقوم بالانتقام من جميع مخططي ومنسقي، ومن تبقى من منفذي العملية وعائلاتهم، حتى ولو استغرق هذا سنوات...

وكانت أضخم وأغرب عملية انتقامية مخابراتية في التاريخ، إذ خطَّط (الموساد) ونفذ عددًا من عمليات الاغتيال الانتقامية، لعدد

من الأفراد، قيل أنهم المسئولون عن عملية (ميونخ)، مما وضع خطًا جديدًا، تحت كلمة (الانتقام)، في القاموس التخابري...

ولو أننا أدرجنا تنفيذ الاغتيالات، تحت بند العمليات الانتقامية، فسنجد أن المخابرات السوفيتية السابقة، تحتل موقع الصدارة في هذا الشأن، فعقب الثورة البلشفية، وحتى نهايات الثمانينات، نجح العديد من المنشقين عن النظام الشيوعي، في الفرار من الاتحاد السوفيتي، بطرق مختلفة، وأصرَّت المخابرات السوفيتية على ألا يهنأ لهم عيش، حيثما ذهبوا، فأنشأت قسمًا خاصًا، لتنفيذ عمليات الاغتيال، على عدد كبير من المنشقين، عبر كل دول (أوروبا)، وعلى رأسها (انجلترا)، التي استضافت القسم الأعظم منهم، ومنحتهم- وفقًا لدستورها- حق الإقامة في بلدها، ولقد بدأ هذا القسم، فور انشائه، في حصر أعداد المنشقين السوفييت، وتحديد مواقعهم، وابتكار وسائل اغتيال جديدة وفعَّالة وسريعة، بحيث تتم العمليات في سرعة ودقة، ولقد ظلت أوروبا لسنوات طويلة، مسرح عمليات الانتقام المخابراتي السوفيتي من المنشقين، ومعمل تجارب وسائل الاغتيال المبتكرة، ومن أشهر العمليات والابتكارات، عملية اغتيال كاتب سوفيتي منشق، في أكبر ميادين العاصمة البريطانية، حيث اقترب منه قاتل محترف، و...

لهذا رواية أخرى.

* * *

(٤)

ذات يوم من أيام الشتاء الملبدَّة بالغيوم، في العاصمة البريطانية (لندن)، في اوائل ستينات القرن العشرين، كان أديب سوفييتي منشق، يسير في أحد أكبر ميادين العاصمة، التي نجح في الفرار إليها، من خلف الستار الحديدي، عندما اقترب منه رجل عادي، وخزه في ساقه بطرف مظلته، على نحو بدا شديد العفوية، ثم اعتذر له بتهذيب شديد، وافترق الرجلان...

ولم تمض دقائق، حتى شعر الأديب السوفيتي المنشق بدوار شديد، وغمامة امام عينيه، وعجزت ساقاه عن حمله، ثم لم يلبث أن سقط فاقدًا الوعي... وبمنتهي السرعة، تم نقل الرجل إلى المستشفى، وحار الاطباء في تشخيص حالته، التي راحت تتدهور في سرعة، دون استجابة لأي من علاجات الأطباء، حتى لقى مصرعه بحلول الليل، وبدت حالته وكأنها واحدة من العجائب الطبية غير المفسَّرة، ولكن تشريح الجثة، الذي يتم على نحو تقليدي، مع كل حالة وفاة غامضة، في المستشفيات البريطانية، اكتشف حقيقة مذهلة...

في البداية، لاحظ الطبيب الشرعي التهابًا بسيطًا، يحيط بمنطقة من ساق الرجل، ويوحى بحدوثه قبيل وفاته بقليل،

وعندما فحص وخزة صغيرة، في مركز الالتهاب، عثر داخلها على كرة شديدة الصغر، تبدو أشبه بحبة رمل كبيرة الحجم، ولكن ما أثار انتباهه واهتمامه، هو أنها بدت كجسم صناعي، أكثر منه طبيعي...

وتحت الميكروسكوب، كانت المفاجأة الكبرى، فتلك الكرة الدقيقة، كانت كرة صناعية بالفعل، مجوَّفة من الداخل، وبها أربعة ثقوب منتظمة في الخارج، وبعد فحص دقيق، تم في وحدة أكثر تخصصًا، كشف المتخصصون أن تلك الكرة كانت تحوى مادة (الخردل) السام، وأنها مصممة، بحيث تخرج مادة (الخردل) من ثقوبها الدقيقة، بكميات تكفي لقتل رجل بالغ، خلال ساعات قليلة، وأن تلك الكرة قد حقنت في ساق الكاتب المنشق، قبيل ساعات قليلة من وفاته، ولقد مضت سنوات، قبل أنت تتوَّصل المخابرات البريطانية، إلى أن السوفييت استخدموا مظلة خاصة، يحتوي مقبضها على زناد خفي، يطلق تلك الكرة عبر قمتها المدببة، بوخزة واحدة سريعة، من خلال شخص متخصص، وكانت الواقعة بداية اكتشاف ذلك القسم، في المخابرات السوفيتية السابقة (KGB)، والذي تخصَّص في ابتكار وسائل اغتيال غير تقليدية، وتجربة تأثيرها على المنشقين السوفييت، الذين فروا إلى معظم بلدان أوروبا؛ رفضًا للأسلوب القمعي، الذي كان يستخدم هناك، عقب الثورة البلشفية...

فالمخابرات السوفيتية في هذا المجال، وتليها المخابرات

الإسرائيلية، التي تعد الاغتيالات هدفًا أساسيًا لها؛ للقضاء على كل من يسببون لها الصداع، في سياستها الاستعمارية، والفارق بينهما هو أن المخابرات السوفييتية تلجأ دومًا إلى التصفية الجسدية، المباشرة، والتي مازال خبراؤها يواصلون تطوير وسائلها، حتى يومنا هذا، إلى الحد الذي استخدموا معه مادة مشعة خاصة؛ لاغتيال عميل سابق، منذ سنوات قليلة، أما المخابرات الإسرائيلية، فهي تنتهج منهجين، إما التصفية الجسدية المباشرة، أو الاغتيال المعنوي، لكل من يحاول تحجيمها، أو الوقوف في طريقها، كتوريطه في فضيحة مدوية، أو النبش خلفه، حتى تقع على ما يشينه أو يدينه، في حياته السابقة، قبل أن يصل إلى مكانته... وهناك أجهزة مخابرات أخرى، يكتظ تاريخها بحالات اغتيال وحشية، مثل المخابرات الفرنسية، في فترة احتلال الجزائر، حيث كان يتم حرق المعادين في حامض مركَّز، أو إلقائهم من طائرة، على ارتفاع شاهق...

وهناك أجهزة مخابرات تعتبر أن الاغتيالات وسيلة قذرة، وعلى الرغم من هذا، فقد تضطر أحيانًا لاستخدامها، عندما يتعارض وجود شخص ما، مع أمنها القومي؛ فهنا تكون المقارنة بين حياة فرد، وحياة شعب، ومن السهل حسم القرار، في حالات كهذه، ولكن المخابرات السوفييتية والإسرائيلية، لا تضيع الوقت في حسابات إنسانية، بل تقدم وفورًا على الاغتيال؛ باعتباره الوسيلة الحاسمة لكل المشكلات، فعندما بدأ (العراق)

برنامجه النووي، تحت إشراف العالم المصري (يحيى المشد)، تعقبَّت المخابرات الإسرائيلية العالم المصري، واغتالته في (باريس)، ولم تعترف أبدًا بأنها وراء هذا العمل، حتى لحظة كتابة هذه السطور، وهذا أيضًا أسلوب تقليدي في عالم المخابرات، الذي إما ان يعلن عن عمله، لتوجيه صفعة إلى العدو، أو رسالة إنذار إلى آخرين، أو يبقى هذا العمل طي الكتمان، أو لا يعترف به جهاز المخابرات قط ؛نظرًا لاستحالة العثور على دليل قاطع، يثبت تورَّط جهاز مخابرات، في عمل بعينه، حتى لو تم إلقاء القبض على من قاموا بالعمل، فمن العسير إثبات انتمائهم إلى جهاز مخابرات بعينه؛ كما أن عمل المخابرات يعتمد على السرية المطلقة، حتى أن بطاقات هويتهم، لا تحوي سوى صورة ورقم، بلا اسم أو وظيفة أو رتبة، كما أن الأسماء المستخدمة دومًا في التعامل، هي أسماء كودية، وليست الأسماء الحقيقية، حتى لا يمكن لجهاز المخابرات الآخر تحديد هوية رجال المخابرات، وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى قسم الخدمة السرية، أو العمليات الخاصة، ولهذا سبب رئيسي وشديد الأهمية، فيما يخص العمليات المخابراتية...

ولهذا حديث آخر.

***

عندما تتم أية عملية تخابر أو تجسَّس في العالم، يتم إسنادها إلى فريق عمل، متخصَّص في نوعية العملية، ويرأسه ضابط مخابرات خبير، يطلق عليه اسم (ضابط الحالة)، وهو الضابط

الذي يتابع العميل، الذي يقوم بالعملية، وينسِّق عملية التعامل معه، وتبادل المعلومات والأوامر، منه وإليه، ويشرف على العملية، منذ بدايتها، وحتى فصل الختام...

وكما أنه لكل خبير في الحياة أسلوبه المميَّز، في أي مجال من المجالات، كذلك يكون لضابط الحالة، شاء أم أبى، أسلوب يميِّز أدائه، وحتى استراتيجيته في المناورة، ودومًا ما يقوم جهاز المخابرات المضاد، إذا ما انكشفت اللعبة، بعد إتمام المهمة، بدراسة أسلوب واستراتيجية ما حدث، وتصنيفه تحت مسميات خاصة، يتم اختيارها عشوائيًا؛ لتحديد الأنماط المختلفة، ومقارنتها بعمليات أخرى، قديمة أو حديثة، أو حتى تالية...

ومع الوقت، وتراكم الخبرات، يبدأ الجهاز، يبدأ الجهاز المضاد في جمع الأنماط المشابهة، في العمليات المختلفة، ووضعها في جدول واحد، يحمل اسمًا كوديًا، فيقال مثلًا أن هذا أسلوب (عاصم)...و(عاصم) هذا ليس الاسم الحقيقي، لضابط الحالة، الذي أدار العمليات، المتفقة في الاستراتيجية والأسلوب، وليس حتى الاسم الكودي له، في جهاز المخابرات الذي ينتمي إليه، ولكنه اسم كودي، يضعه جهاز المخابرات المضاد، لتصنيف الاستراتيجيات والأساليب فحسب، ودراستها، ووضع خطط مستقبلية للتعامل معها، فهذا أسلوب (عاصم)، وذلك أسلوب (حمدي)، وتلك استراتيجية (بهاء)...وهكذا...

ويبذل الجهاز جهدًا هائلًا؛ لتحليل الأسلوب، وتفنيد

الاستراتيجية، ومحاولة استيعاب نمط فكر كل ضابط حالة... ويكون منتهى حلم الجهاز المضاد، معرفة ضابط الحالة نفسه، حتى يمكن متابعته ودراسته نفسيًا، واستنتاج خطواته مسبقًا، ويصبح السؤال الاكثر أهمية هو: من (عاصم)، ومن (حمدي)، ومن (بهاء) ؟!...

أي من هم في واقع الأمر؟!...

أسماءهم الحقيقية؟...

وأين يقيمون ؟!..

وكيف يتعايشون ؟!..

باختصار، البحث عن إجابة كل الأسئلة، التي يمكنها وضع تحليل نفسي واجتماعي خاص لضابط الحالة، بحيث يجعله الخبراء، من خلال المعلومات، كالكتاب المفتوح، يمكن نوقع صفحته التالية مسبقًا، فور تحديد هويته، من خلال أسلوب العملية...

ولهذا تعد الهوية الحقيقية لضابط المخابرات سرًا، حتى داخل الجهاز نفسه، والذي يتعامل الكل فيه، من خلال أسماء كودية، يتم استخدامها داخل جدرانه فحسب...

وكل أجهزة المخابرات في العالم، تتعامل بمبدأ أن الثقة المفرطة فجوة أمنية كبيرة، وان الحذر واجب، في كل خطوة، مهما بدا الشخص محل ثقة، أو أبدى ما يثبت هذا؛ لأن النفس البشرية متقلّبة، وكل أجهزة المخابرات تتعامل مع أجهزة أخرى، بنفس القوة والخبرة، وأهم قاعدة أمنية تقول: إنه ما من جهاز أمني،

مهما بلغت دقته، بلا ثغرة، يمكن التسلّل إليه من خلالها، وانه في كل جهاز مخابرات في العالم، قسم خاص، مهمته البحث عن تلك الثغرة، في كل الأجهزة الأخرى، وفي كل العاملين فيها، سواء أكانوا ضباط مخابرات، أو فنيين، أو إداريين، بحيث يمكن النفاذ من خلال ثغرة، مهما كانت صغيرة، إلى أسرار كبيرة وخطيرة، يمكن أن تقلب كل الموازين، في لحظة ما...

وفي عالم المعلومات، لا توجد ثغرة كبيرة، أو ثغرة صغيرة، ولا معلومة كبيرة، أو معلومة صغيرة، توجد فقط ثغرة، ومعلومة؛ فالمعلومة الصغيرة جدًا، قد تكون المدخل المثالي لعملية كبيرة جدًا، كما حدث ذات يوم، عندما أراد جهاز مخابرات الحصول على وثائق شديدة الأهمية والخطورة، يحملها مندوب خاص، في حقيبة ذات قفل إليكتروني، مقيَّدة إلى معصمه طوال الوقت، بأغلال معدنية، لا يملك هو نفسه مفتاحها، ولا يعلم حتى وسيلة فتح الحقيبة...

ولقد حصل جهاز المخابرات على معلومات عن القفل الإليكتروني، والشركة المصنِّعة له، وتمكَّن الخبراء من تحديد وسيلة فتح القفل وإعادة إغلاقه، دون أن يعمل الجهاز الأمني داخل الحقيبة، والمعد بحيث يتلف محتوياتها بحامض قوى، إذا ما تمت محاولة فتح القفل عنوة، ولكن الخبراء صنعوا قطعتي مغناطيس خاص، عندما يوضعا في مكانين مدروسين، على جانبي الحقيبة، يمكنها إيقاف عمل الجهاز الأمني الخاص بها تمامًا...

وبقيت أمام جهاز المخابرات مشكلتان...

أوَّلهما ضرورة الحصول على صور تلك الوثائق الخطيرة، دون أن يعلم العدو بحصولهم عليها؛ حيث أن معرفته بذلك تفقد الوثائق جدواها؛ لأن العدو سيعمد إلى تغيير كل خطته على الفور، وثانيهما كيفية الحصول على الوثائق، التي لا تفارق حقيبتها معصم حاملها لحظة واحدة !!...

وللوهلة الأولى، بدا هذا مستحيلًا، إلا أنه في عالم المخابرات- أي مخابرات- يتم دومًا اعتماد نظرية القائد الفرنسي (نابليون بونابرت)، والذي كانت له مقولة شهيرة:» لا توجد في قاموسي كلمة مستحيل«...

لذا كان لابد من البحث عن وسيلة ما بأي ثمن...

وهنا بدأ جمع المعلومات عن حامل الحقيبة، قبل أن تشرق معلومة صغيرة...

صغيرة جدًا...

ولهذا قصة.

***

في عالم المخابرات لا توجد كلمة (مستحيل)، ورجال المخابرات المحترفون، يدركون جيدًا أنه ما من نظام أمني محكم من كل الزوايا، مهما بلغت عبقرية من صنعوه؛ لأنهم بشر، والبشر فقط يجتهدون، بقدر ما تسمح به عقولهم، ولكن يستحيل عمليًا أن يصنعوا نظامًا تام الإحكام...

هناك دومًا ثغرة ما ...

ثغرة قد تكون صغيرة للغاية، أو بعيدة عن كل الأذهان ولكنها دومًا هناك...

وكل ما على جهاز المخابرات هو أن يدرس ذلك النظام الأمني، بكل ما يتوافر له من معلومات، حتى يتوَّصل إلى تلك الثغرة...

وفي عملية الحقيبة السوداء، كان النظام الأمني يبدو شديد الإحكام، إلى حد يجعل العملية تبدو من الخارج مستحيلة، ولكن، ولأن الرجال لا يؤمنون بالمستحيل، فقد راحوا يجمعون كل المعلومات عن حامل الحقيبة، وعن نظام تأمين الحقيبة...

كان الرجل يحمل الحقيبة طوال الوقت، وهي مقيَّدة إلى معصمه بأغلال فولاذية قوية، لا يحمل هو نفسه مفتاحها، والحقيبة نفسها مزوَّدة بنظام أمني خاص، يستخدم شفرة مغنطيسية معقدَّة، ومعد بحيث يتلف محتويات الحقيبة تمامًا؛ إذا ما تم فتحها عنوة...

والأهم هو حتمية الحصول على الوثائق داخل الحقيبة، دون أن يدرك العدو هذا؛ حتى لا تفقد قيمتها ...

وهنا جاء دور المعلومات...

وكل المعلومات عن حامل الحقيبة، كانت تؤكَّد ولاءه الشديد لجهة عمله، واستحالة تجنيده، أو حتى تحييده، ولا توجد وسيلة سرية لنزع المعلومات من الحقيبة، التي لا تفارق يده قط،

فكيف يمكن تجاوز نظام كهذا؟!...

العجيب في هذه العملية، أن الثغرة جاءت من معلومة صغيرة..

وصغيرة جدًا...

معلومة تقول: إن حامل الحقيبة يعشق تناول مشروب (الروم)...

صحيح أنه ليس مدمنًا الخمور، ولكن هذا هو مشروبه المفضَّل...

وبناءً على هذه المعلومة، تم وضع خطة معقَّدة؛ للحصول على تلك الوثائق شديدة الخطورة...

كان الرجل سيسافر بالحقيبة، من (أمريكا الجنوبية) إلى (آسيا)، على خطوط طيران تتوَّقف في أوروبا، وعلى هذا تم اختيار أوروبا كمسرح للعملية، وتم إعداد المسرح لاستقبال اللاعب الرئيسي، الذي هو حامل الحقيبة بالطبع...

وفي اليوم المشهود، سافر الرجل على متن طائرة أوروبية، وفي الدرجة الاولى، حيث يتم تقديم المشروبات الروحية لمن يطلبها...

وبعد ساعتين من الطيران، تقدَّمت إحدى مضيفات الطائرة بعربة صغيرة، تحوي زجاجات من المشروبات الروحية، تحوي كل منها جرعة صغيرة من المشروب، وعندما وصلت إلى حيث يجلس حامل الحقيبة، وبوسيلة ما، لم تكن العربة تحوي عندئذ، سوى زجاجة واحدة من (الروم)، ومن نفس النوع الذي يعشقه الرجل...

وكان من الطبيعي، والحال هكذا، أن يلتقط الرجل تلك الزجاجة؛ ليتسلى بمشروبه المفضَّل، والذي أضيف إله عقار خاص، من إعداد القسم الفني بجهاز المخابرات، لا طعم له ولا رائحة، ولكنه يسبب آلامًا معوية، تشبه إلى حد كبير أعراض التهاب الزائدة الدودية، وكان هذا يستلزم بالطبع التيقن من أن الرجل لم يجر عملية الزائدة الدودية من قبل...

وقبل الوصول إلى محطة الانتظار، في تلك الدولة الأوربية، بدأ العقار يحدث تأثيره، وشعر الرجل بآلام تشبه آلام التهاب الزائدة الدودية، شخصَّها طبيب، تواجد في نفس الدرجة الأولى، على نحو بدا أشبه بالمصادفة، وأكَّد ضرورة إجراء عملية جراحية عاجلة للرجل، قبل أن تسوء الأمور...

وبالفعل، أبلغ قائد الطائرة المطار الأوربي بالحالة، وعندما هبطت الطائرة، كانت سيارة إسعاف في انتظارها؛ ليتم نقل الرجل إلى مستشفى صغير؛ لإجراء جراحة عاجلة له ...

وفي حجرة العمليات، قام أحد الفنيين، من جهاز المخابرات، بإلصاق مجموعة من القطع المغنطيسية، بترتيب خاص على جوانب الحقيبة، مما أوقف عمل الجهاز الأمني لها، وتم فتح الحقيبة، وتصوير كل الوثائق السرية الخطيرة داخلها، وإعادتها إليها، دون ترك أي أثر ...

أطباء حجرة العمليات كانوا يتبعون جهاز المخابرات بالفعل، ولقد أجروا العملية الجراحية على خير وجه، دون نزع

الحقيبة، وخرج الرجل من حجرة العمليات، والحقيبة مغلقة، ومربوطة كما كانت بمعصمه، وكما رآها مندوب المخابرات المضادة، الذي كان ينتظر في توتر، خارج حجرة العمليات، التي وصل إليها بأقصى سرعة، فور علمه بما حدث...

وبكل المقاييس، تمت العملية بنجاح فائق...

الحقيبة لم تفارق معصم الرجل، والنظام الأمني فيها لم يعمل، ولم يتلف الوثائق، واطمأن جهاز المخابرات إلى أنها لم تمس، في حين حصل الجهاز المدبَّر للعملية على صور الوثائق، وعلى كل ما تحويه من أسرار ومعلومات شديدة الخطورة، واستفادت منها إلى أقصى حد، دون أن يعلم العدو أنها قد وقعت في يد الطرف الآخر، وهذا يعني (مخابراتيًا) عملية ناجحة بكل المقاييس...

ومبتكرة أيضًا، كعادة كل العمليات الناجحة، في تاريخ المخابرات ...

وهذه ليست المعلومة الصغيرة الوحيدة، التي قلبت التاريخ رأسًا على عقب، فهناك معلومة واحدة، ليست صغيرة، ولكنها حسمت نهاية الحرب العالمية الثانية ...

ولهذا قصة أخرى.

***

\book100100

(٥)

الحرب العالمية الثانية هي مدرسة في علم الجاسوسية؛ ففي زمن الحروب، تتألق أعمال الجاسوسية والتخابر إلى حد كبير؛ نظرًا لأهمية وخطورة المعلومات، التي يمكن أن تغيِّر مجرى الأمور، في اللحظات الحاسمة...

وفي تلك الحرب بالذات، كان العالم يعاد تشكيله، على نحو شديد العنف، وكانت المخابرات الألمانية في أوج نشاطها، كما كانت المخابرات البريطانية هي سيدة هذا المجال، في نفس الوقت الذي يعتمد فيه النظام الشيوعي على قوة مخابراته، إلى أقصى درجة ممكنة، حتى في إدارة شئونهم الداخلية، كما كان المنافس الفكري الأساسي للنازية، وكلاهما له أتباع في كل أنحاء الأرض تقريبًا، وبالذات عبر بلدان (أوروبا)، التي مال معظم من يعانون فيها، إلى أحد النظامين، إما النازي الاشتراكي، أو الشيوعي، وهنا، وعندما بدأ(هتلر) الحرب، نشطت معه مخابرات الدول الثلاث، إلى حد غير مسبوق في التاريخ الحديث...

وفي قلب (المانيا)، كان(ريتشارد سورج)، الأستاذ الجامعي الصارم، عضوًا في الحزب الشيوعي الألماني، حتى تولى(هتلر) مقاليد السلطة، على رأس الحزب النازي، وأعلن الحرب المستعرة

على الشيوعية... وبوسيلة ما، نجح (سورج) في التخلَّص من كل ما يربطه بالحزب الشيوعي؛ حتى لا يتعَّرض للتنكيل، بل وانضم إلى الحزب النازي، الذي يخالف كل معتقداته وأفكاره، والعجيب أنه نجح في اكتساب ثقة قادته، حتى أنه صار أحد المحررين الرئيسيين، في جريدة الحزب، ومراسلًا متجوِّلًا لها في (أوروبا)، وخاصة في البلدان التي وقعت تحت الاحتلال النازي أيامها...

وذات يوم، وبينما كان (سورج) في طريقه إلى منزله، بعد يوم شاق، فوجئ برجل يستوقفه، ويطلب منه أن يلتقي به لقاءً منفردًا، وقبل أن يرفض (سورج)، أطلعه الرجل على بطاقة عضويته القديمة في الحزب الشيوعي الألماني، والتي ظن (سورج) أنه قد تخلَّص منها تمامًا، مما لا يدع أمامه مجالًا للاعتراض، فدعا الرجل إلى منزله، حيث يمكنهما الحديث، دون أن يراهما أحد...

وفي منزله، فوجئ (سورج) بأن الرجل هو كولونيل في المخابرات السوفيتية (KGB)، وأنه يطلب منه العمل لحسابهم، ضد النظام النازي، الذي يبغضه في أعماقه كل البغض...

ودون الدخول في تفاصيل، تحتاج إلى مجلد كامل، قبل (سورج) المهمة، وصار منذ تلك اللحظة جاسوسًا للسوفييت، يحظى بثقة واحترام معظم قيادات الحزب النازي، الذي يريق دماء (أوروبا) والعالم بلا رحمة؛ في محاولة لتحقيق حلم(هتلر) بزعامة العالم، وتحويله إلى كيان واحد، يرفع العلم النازي... ولقد تجلَّت أهمية (سورج) الكبيرة، عندما نقض(هتلر) اتفاقية

الدفاع المشترك، التي أبرمها مع (روسيا) قبيل الحرب العالمية الثانية مباشرة، وبدأ عملية (بارباوسا) أو (بارباروزا)، والتي تعني (ذي اللحية الحمراء)؛ إذ ساعدت علاقة (سورج) بالقيادات السياسية والعسكرية الألمانية، على تجنيب (روسيا) ضربات موجعة، خلال العمليات العسكرية، التي انتصر فيها الألمان على طول الخط، حتى صاروا على بعد أقل من خمسين كيلو مترًا، من العاصمة الروسية (موسكو)...

أيامها، وتبعًا لعمله كمراسل حربي، انتقل (سورج) إلى (اليابان)، حليفة (ألمانيا) الأولى، وأقام- ويا للمفارقة- في منزل مسئول ياباني كبير، حيث دس جهاز اللاسلكي الخاص، الذي يرسل عبره المعلومات إلى سادته السوفييت، على نحو منتظم...

وفي (اليابان)، وبعبقرية سجلها له التاريخ، صنع (سورج) وأدار واحدة من أقوى شبكات التجسس، التي عرفها التاريخ، وراح عبرها يمد المخابرات الروسية بأخطر المعلومات السياسية والعسكرية، طوال فترة عمله، في نفس الوقت الذي عانت فيه (روسيا) من نقص شديد في القيادات العسكرية، بعد أن كان (ستالين) قد أعدم، في وقت سابق للحرب، أكثر من ألف وثمانمائة من القادة العسكريين؛ بتهمة الخيانة، أو عدم الاتفاق مع فكره، وأسلوب إدارته للبلاد...

وبلغ الموقف ذروة الخطورة، عندما صار النازيون قاب قوسين أو أدنى من (موسكو)، التي تخشى في الوقت ذاته هجوم

اليابانيين من الجانب الآخر؛ لتطويق (روسيا)، مما أجبرها على توزيع قواتها بين الجبهتين، الألمانية واليابانية، على نحو لم يمنح القوة الكافية لأية جبهة...

في ذلك الوقت، كان (سورج) قد كوَّن صداقات شديدة القوة، مع العسكريين والسياسيين اليابانيين، ومنهم عرف أخطر معلومة في الحرب العالمية الثانية كلها...

عرف أن القيادة اليابانية قد اتخذت قرارًا حاسمًا، بعدم شن الحرب على (روسيا)...

ذلك القرار، جعل القيادات السوفيتية، التي لم تتلق معلومة واحدة خاطئة من (سورج)، في تاريخه كله، تنقل قواتها من الجبهة اليابانية، إلى الجبهة النازية، وتشن على النازيين، الذين ارتكبوا خطأ عمرهم، بالتمركز وسط الجليد السوفيتي، خارج (موسكو)، هجومًا شرسًا بكل قواتهم، مما أدى إلى هزيمة ساحقة للقوات النازية، واضطرارها للانسحاب، حيث طاردتها القوات السوفيتية، حتى وصلت إلى (برلين)...

وهكذا كانت معلومة واحدة، السبب في سقوط (المانيا)، ونهاية الرايخ الثالث كله...

وعلى الرغم من خبرة وعبقرية (سورج)، في هذا المضمار، فقد وقع في أكبر خطأ، يمكن أن يقع فيه أي جاسوس، عندما أقام علاقة مع راقصة تعرية يابانية، واكتفى بتمزيق رسالة شفرية، وصلته من (موسكو)، وألقاها في سلة المهملات أمام عينيها...

وعندما استغرق (سورج) في النوم، جمعت الراقصة قطع الورقة، من سلة المهملات، وأبلغت المخابرات اليابانية، التي ألقت القبض على (سورج)، الذي حوكم بتهمة التجسّس في زمن الحرب، وتم إعدامه عام ١٩٤٤م....

و(سورج) لم يكن البطل الوحيد في حرب الجاسوسية، في تلك الفترة، بل كان هناك أيضًا (جيمس بوند)...

ولهذا قصة أخرى.

***

(آيان فليمنج)، مبتكر شخصية (جيمس بوند)، شاب من أسرة إنجليزية ثرية عريقة، وربما لأنه الابن الوحيد لها، فقد نشأ مدللًا إلى حد كبير، وترعرع وسط أب محافظ، وأم ذات شخصية قوية مسيطرة... وككل الأسر العريقة هناك، أرادت الأم أن تلحق ابنها بكلية عسكرية، بعد محاولة فاشلة منها؛ لإلحاقه بشركة الأوراق المالية الكبيرة، التي تمتلكها الأسرة، وظنًا منها أن هذا هو الأسلوب الوحيد لتقويمه...

والتحق (فليمنج) بأشهر كلية عسكرية، في (بريطانيا) كلها، مع توصية من الأم، إلى مدير الكلية، بضرورة بذل أقصى جهد ممكن؛ لتحويل ابنها من شاب مستهتر، إلى ضابط ملتزم.... ولقد بذل مدير الكلية أقصى جهده، من أجل تقويم (فليمنج) الشاب، شديد الوسامة، ومن أجل الأم، التي يستثمر في شركتها جزءًا كبيرًا من أمواله، حرص في الوقت ذاته على أن يعامل الشاب

معاملة طيبة، خارج ساعات الدراسة، حتى أنه دعاه ذات مرة لتناول العشاء في منزله، في وجود الشابة الحسناء، التي تصغره بعشرين عامًا...

وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه في حياته...

لقد انجذبت الزوجة الشابة، إلى (فليمنج) الشاب الوسيم، وسرعان ما نشأت بينهما علاقة سرية، كشفها الجنرال المخدوع ذات ليلة، فما كان منه، بعد أن هاج وماج، إلا أنه فصل (فليمنج) من الكلية العسكرية، وأعاده إلى أمه، في الحياة المدنية...

وأدركت الأم أن هذا الأسلوب لن يصلح ابنها، فدفعت به مرة أخرى إلى شركة الأوراق المالية، وهي تحثه على بذل الجهد فيها، حتى يتشرب أسرار هذه المهنة شديدة التعقيد...

ولكن (فليمنج) لم يكن ممن يقنعون بالوظائف المكتبية، لذا فقد عاد إلى استهتاره، ولا مبالاته بالقواعد والتقاليد المتبعة، في الأسر العريقة، خاصة وأن طبيعته المتحرِّرة الخلّاقة، كانت تبحث دومًا عن كل ما هو مثير وجديد، وليس عن عمل نمطي، يقضي على إبداعاته وتألّقه...

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، تأثر سوق الأوراق المالية بشدة، وتزايد استهتار (فليمنج)، ربما لأنه لم يجد لنفسه أي دور إيجابي فيها...

وهنا، وعندما بدأ طلب شباب بريطانيا للتجنيد الإجباري، بحثت الأم في لهفة عن أية وسيلة، يمكن أن تفر بوساطتها بابنها،

من خوض ويلات الحرب، ولأن أحد قادة المخابرات البحرية البريطانية كان صديقًا للأسرة، فقد دعته الوالدة إلى العشاء في منزلها، ورجته أن يجد لابنها وظيفة في المخابرات البحرية؛ ليبقى داخل (إنجلترا)...

وبناءً على طلبها، ألحق الرجل (فليمنج) بالفعل في المخابرات البحرية البريطانية، كسكرتير خاص له، وكان هذا أفضل ما يمكن فعله، في مثل هذه الأحوال...

وبحكم وظيفته، تواجد (فليمنج) مع رجال العمليات، وهم يناقشون ما يواجهونه من تحديات، خلال الحرب...

ولقد انبهر (فليمنج) بعقلية وأسلوب رئيسه الاسكتلندي، صاحب اللهجة المميَّزة، وبرجاحة عقله وتفكيره...

وذات مرة، وبينما يناقشون كيفية زرع جواسيس في (بولندا)، التي احتلها النازيون، انفلت لسان (فليمنج)، وراح يقترح عليهم تجنيد بعض فتيات الليل البولنديات، اللاتي هربن إلى (أوروبا)؛ للعب دورهن داخل (بولندا)، والتركيز على الضباط النازيين؛ لجمع كل ما ينفلت منهم من أسرار، أثناء ما يسمى بأحاديث الفراش...

واستنكر الحاضرون الفكرة في البداية، ولكن رئيسه أخذها مأخذ الجد، وجعل مجموعته تدرس إمكانيات تنفيذها...

ولسعادة (فليمنج)، تم وضع العملية موضع التنفيذ بالفعل، وحققَّت نتائج مذهلة، مع ذلك القدر الهائل من المعلومات، التي

جلبتها من أرض العدو...

وعلى الرغم من عدم اعتراف رئيسه له بالفضل، إلا أنه سرعان ما استشاره في عملية أخرى، تتعلَّق بالحصول على شفرة ألمانية شديدة التعقيد... ومرة أخرى أثبت (فليمنج) قدرته على الخيال والابتكار، ووضع فكرة بدت مستحيلة التنفيذ، إلا أنه شرحها بالتفاصيل، في تقرير كبير، انجزه خلال يوم واحد، وأوضح فيه أن استنكار الفكرة، هو أنجح جزء منها، إذ أن الاستنكار سيبعدها عن أذهان المخابرات النازية تمامًا...

كان خياله واسعًا، ولكنه خلاق إلى حد كبير، وكانت قناعة رئيسه الاسكتلندي به تتزايد يومًا بعد يوم، مما جعله يجازف بوضع الخطة الثانية موضع التنفيذ، ويشرف عليها بنفسه...

وأثمرت تلك الخطة أيضًا، كما فعلت سابقتها، وحصلت المخابرات البريطانية على كتيب الشفرة النازية، دون أن يدرك النازيون هذا، مما جعلها شديدة الفاعلية، في كشف تحركات العدو، طوال عام كامل...

ومن خطة خلَّاقة، إلى أخرى أكثر إبداعًا، تحوَّل (فليمنج)، من سكرتير عادي، إلى مستشار عمليات، على نحو غير رسمي، إذ ظل مسماه الوظيفي بلا تغيير، ولكنه صار يشارك على مائدة البحث، بدلًا من تسجيل محاضرها...

ولأن (فليمنج) كان يبحث عن الإثارة، بأكثر مما يبحث عن المسميات الوظيفية، فإنه لم يبال بهذا، وإنما راحت الأفكار تتدفق

منه، كما لو أنه قد خلق من البداية كرجل مخابرات، وإن كانت طبيعته الدرامية تدفعه إلى إطلاق أسماء مثيرة، على كل عملية جديدة...

حتى جاءت العملية، التي أطلقوا عليها اسم (قلعة الأسرار)، ليتغيَّر معها وضع (فليمنج) تمامًا...

ولنا تكملة.

***

داخل قلعة حصينة، من قلاع (فرنسا) القديمة، المطلة على بحر (المانش)، والتي ترتفع عنه ستة عشر مترًا، بأسوار عالية زلقة، احتفظت القيادة النازية، عقب احتلال (فرنسا)، بأهم وأخطر وثائقها السرية، التي تتعَّلق بخططها المستقبلية؛ لغزو (روسيا)و(إنجلترا)، وبتوزيع قواتها في (أوروبا)، وخرائط طموحاتها في (آسيا) و(أفريقيا)....

ولقد اختار قادة النازية هذه القلعة بالتحديد؛ نظرًا لموقعها الفريد، وارتفاعها عن البحر، فوق ربوة عالية، تتيح كشف أية محاولة للهجوم عليها، من البر والبحر، خاصة وأن الطريق البري إليها منفرد ضيق، يصعب اجتيازه، حتى لفرقة مدرعَّة، دون القدرة على صد هجومها ودحرها، من المنطلق العسكري، الذي يمنح التفوق لمن يحتل المكان الأعلى....

ولمزيد من التأمين، تم تزويد القلعة بكل الوسائل الدفاعية الممكنة، بدءًا من القوات البرية والمدرعات حولها، وحتى مدفعية الدفاع الجوي، التي تمركزت على سطحها، بالإضافة إلى غوَّاصة

تحمى البحر أمامها...

وعلى الرغم من كشف المخابرات البريطانية لأهمية القلعة وما تحويه، إلا أن كل الدراسات العسكرية أشارت إلى استحالة اقتحامها عنوة، وإلى أن جميع القائمين عليها، والعاملين داخلها، يقيمون فيها بصفة دائمة، تمنع الوصول إليهم، وتعوق أية محاولة لتجنيد أحد منهم...

وفي مقر المخابرات البحرية الانجليزية، تمت دراسة أمر القلعة، من كل الجوانب، واتفق الكل على أن الوصول إليها يكمن في خانة المستحيل، حتى أنهم فكّروا في طرح فكرة الحصول على تلك الوثائق جانبًا...

ولكن (آيان فليمنج)، مبتكر شخصية (جيمس بوند) فيما بعد، كان حاضرًا أحد اجتماعات اللجنة، بصحبة قائده الاسكتلندي، عندما اندفع يخبر الجميع بأن لديه خطة؛ للوصول إلى القلعة...

وعلى الرغم من دهشة واستنكار الجميع، طلب منهم القائد الاسكتلندي الاستماع إلى (فليمنج)؛ نظرًا لما عهده فيه من خيال جامح، وقدرة على الابتكار....

وعلى مضض، سمح له أعضاء اللجنة بالحديث وشرح خطته....

والمدهش أن حديثه قد جذب انتباههم بشدة، وجعلهم ينصتون إليه بكل جوارحهم... وكانت خطة (فليمنج) مفعمة

بالخيال والابتكار، على نحو أدهشهم...

لقد أخبرهم أنه مادام إرسال غوَّاصة إلى تلك القلعة مستحيل، فالبديل الوحيد، مع وجود الدفاعات البحرية على سطحها المواجه للبحر، وتلك الغوَّاصة التي تحميها، هو إرسال فريق من الضفادع البشرية، من كوماندوز البحرية، للوصول إلى أسوارها البحرية المرتفعة، وطلب منهم ابتكار مدافع خاصة، مطوَّرة عن بنادق الصيد البحرية، ويمكنها إطلاق أحبال التسَّلق إلى سطح القلعة، الذي يرتفع ستة عشر مترًا؛ لدخول القلعة من ناحية البحر...

وفور انتهائه من شرح خطته، تعالت عبارات الاستنكار والاستهجان من القادة البحريين، خاصة وأنه من العسير، إن لم يكن من المستحيل، إنزال الضفادع البشرية، على مسافة يمكنهم قطعها تحت الماء، في وجود غوَّاصة الحماية النازية، ولكن (فليمنج)، كان لديه ابتكار خيالي آخر، ألا وهو تزويد بعض الطوربيدات البحرية بمحركات خاصة، تجعلها أشبه بموتوسيكلات تحت مائية، يقودها الضفادع البشرية تحت الماء، حتى تصل إلى أسوار القلعة، دون أن تكشف الغوَّاصة أمرها...

وعلى الرغم من استنكار البعض، قرَّر قائده دراسة الخطة عمليًا، وسرعان ما وضع فريق المهندسين البحريين تصميمات الطوربيدات ذات المحرَّك، ومدافع الحبال...

وفي خطوة أدهشت (فليمنج) نفسه، عهد إليه قائده

الاسكتلندي بالمهمة؛ لينقله بهذا إلى الجانب العملي من جهاز المخابرات البحري... وفي حماس عجيب، وضع (فليمنج) خطة الهجوم، عبر عملية أطلق عليها اسم (قلعة الأسرار)، وقاد الضفادع البشرية، بواسطة الموتوسيكلات تحت المائية، حيث وصلوا في ليلة غاب فيها القمر، إلى أسوار القلعة، دون أن تكشف الدفاعات المائية أمرهم، وباستخدام مدافع الحبال، تسلقوا جدران القلعة، من الجانب الذي تصوَّر النازيون أنه أكثر جوانب القلعة مناعة، وباغتوا من بداخلها بهجوم عنيف، سيطروا فيه على المكان، وحملوا كل الوثائق النازية بالغة السرية، في حقائب من الجلد السميك، المضاد للماء، وعادوا بها كلها سليمة إلى (انجلترا)؛ ليحقق (فليمنج)، بعد عملية (قلعة الأسرار)، انتصاره الكبير، إلا أن الحرب لم تلبث أن وضعت أوزارها، بانهيار الرايخ الثالث، واستسلام (المانيا)، وبعدها (اليابان)، عقب إطلاق قنبلتي (هيروشيما) و(ناجازاكي)، وتم تسريح (فليمنج)، من الخدمة، باعتبار أنه كان مجرَّد مجنَّد، وليس واحدًا من ضباط المخابرات البحرية الأصليين...

ومع عودته إلى العمل في شركة الأوراق المالية، التي استعادت نشاطها عقب الحرب، استثمر (فليمنج) خياله الخصب، في ابتكار شخصية (جيمس بوند)، العميل السري البريطاني، التي استوحى سماتها من مزيج من كل ما خبره، خلال عمله في المخابرات البحرية، إذ جعله اسكتلنديًا، مثل

قائده، ومنحه نفس اللهجة الخاصة، واختار له المارتيني غير المخفوق، شراب قائده المفضل، كما جعله ينتمي إلى المخابرات البحرية، ومنحه رقم (٠٠٧)، مع صفرين في بدايته، شأن أي عميل سري رفيع المستوى، ودفعه في عمليات تحتاج إلى خيال خصب جامح....

وعندما عرض هذا على والدته، قابلته بمزيج من الاستهتار واللامبالاة، إذ لم تتصوَّر في ابنها المدلَّل القدرة على ابتكار أي شيء، ولكن (فليمنج) قدَّم روايته الأولى إلى الناشرين، ورآها تكتسح الأسواق، بعد أن صارت روايات التجسَّس هي فاكهة القارئ الإنجليزي، عقب الحرب، وعاش ليشهد نجاحها الكبير، وأوَّل الأفلام، التي نقلت شخصيته إلى الشاشة، قبل أن توافيه المنية، وهو راض عما فعله وابتكره....

وعلى الرغم من شهرة (فليمنج) الروائية، إلى أن بعض أهم ابتكاراته، في فن الجاسوسية، لم يلق عليها الضوء أبدًا....

ولهذا حديث آخر.

***

في زمننا هذا، لم يعد نقل المعلومة مشكلة كبيرة، كما كان في العصور السابقة، ففي زمن الحرب العالمية الثانية، كان نقل المعلومة يتم، إما عن طريق الاتصال اللاسلكي، أو من خلال الرسائل المكتوبة بالحبر السري، أو الكربون الأبيض، أو على ميكروفيلم صغير دقيق، وكل تلك الوسائل كانت محفوفة

بالخطر، وخاصة مع التفتيش الدقيق لكل مسافر، والمراقبة الدائمة للاتصالات اللاسلكية، أما في هذه الأيام، فقد صار استخدام هواتف الأقمار الصناعية، وشبكة الإنترنت، عبر رسالة مشفَّرة، أو مدسوسة داخل صورة، فيما يعرف باسم (ستينوجرافي) (Stenography)، وصارت الصعوبة كلها تكمن في الحصول على المعلومة، وليس في نقلها...

وخلال الحرب العالمية الثانية، كان كل طرف يبذل كل جهده؛ لابتكار وسائل إخفاء الميكروفيلم، الذي يحوي المعلومات والأسرار، على نحو يمكن أن يتجاوز عمليات التفتيش والفحص...

وفي أحد المراحل، تم استخدام كعب كتاب عادي؛ لإخفاء الميكروفيلم، ونجحت هذه الوسيلة مرة أو مرتين، ثم سرعان ما انكشفت، وصارت وسيلة محروقة، لا يمكن استخدامها مرة أخرى...

وكذلك إخفاء الميكروفيلم في كعب الحذاء، وفي طيات الثياب، وجدران الحقائب....

وعبر الدراسة والبحث، ابتكر البريطانيون وسيلة جديدة لنقل الميكروفيلم، عن طريق صنع أزرار معاطف مجوَّفة، يمكن وضع الميكروفيلم الدقيق داخلها...

وكانت هذه وسيلة بسيطة وفعَّالة، أثبتت نجاحها تمامًا، لأكثر من ستة أشهر...

ولكن المخابرات الألمانية كشفتها بالمصادفة البحتة، عندما أدار أحد جنودها زر المعطف، فانفتح، وسقط منه الميكروفيلم....

وهكذا فشلت وسيلة ناجحة...

وخلال اجتماع للقادة، راح الكل يناقش البحث عن وسيلة جديدة، عندما انبرى (آيان فليمنج)، مبتكر شخصية (جيمس بوند) فيما بعد، بطرح فكرة بسيطة، فجَّرت الدهشة في عقول الجميع بلا استثناء....

لقد اقترح (فليمنج) عكس اتجاه فتح الأزرار، فبدلًا من أن يدار غلافها إلى اليمين، عليهم أن يقوموا بتعديلها، لتفتح في اتجاه اليسار....

كانت الفكرة من البساطة، حتى أنهم حدقوا فيه جميعًا، خاصة وأنه كان في ذلك الحين مجَّرد سكرتير للقائد، يدوِّن محاضر الجلسات فحسب....

ولكن الفكرة راقت كثيرًا لقائده، فاتخذ قرارًا جريئًا، بوضعها موضع التنفيذ...

وجاءت النتائج مدهشة، إلى حد فاق كل التوقعات؛ إذ واصل الألمان تفتيشهم الدقيق، وأداروا كل أزرار المعاطف...

ولكن إلى اليمين...

وهكذا، وبدلًا من أن يفتحوا الأزرار، كانوا في الواقع يحكمون إغلاقها، دون أن يخطر هذا التعديل البسيط للغاية بعقولهم...

وبناءً على هذا النجاح الرائع، أسند القائد إلى (فليمنج) مهمة جديدة؛ إذ كان عليه أن يفكِّر في وسائل جديدة ومبتكرة، لنقل أفلام الميكروفيلم الدقيقة...

وكان هذا يناسب شخصية (فليمنج)، وخياله الجامح، ولهذا جلس يبتكر وسائل جديدة، مثل العملات المجَّوفة، والمخبأ السري في عصا المظلة، والقاع المزدوج لزجاجات الشراب، وغيرها...

ولم تقتصر ابتكارات (فليمنج) على وسائل نقل المعلومات، وإنما امتدَّت إلى أسلحة الدفاع الصغيرة الدقيقة، مثل المسدس المصنوع على هيئة طلاء الشفاه، والذي يحوي رصاصة واحدة، تنطلق بإدارة قاعدته، والخنجر المخفي في المظلة، والقدّاحة بسيطة المظهر، والتي تتحوَّل بضغطة زر إلى قاذفة لهب صغيرة، وكلها أسلحة يستخدمها الجاسوس، إذا ما انكشف أمره، أو حاول أحدهم إلقاء القبض عليه؛ ليمنح نفسه ثواني إضافية للفرار، أو للتخلُّص من كل ما لديه من وثائق... ولقد انهمرت ابتكارات (فليمنج) على القسم الفني، الذي صار يلهث خلفه؛ لتحويل خيالاته إلى حقائق، تحويها الآن موسوعات الجاسوسية، كنموذج للابتكار البسيط الناجح...

ولكن الهوس أصاب (فليمنج)، حتى أن رئيسه طلب منه التوَّقف؛ لأن ابتكاراته زادت عن الحد...

ربما لهذا ابتكر (فليمنج) شخصية العميل السري (جيمس

بوند)، الذي اكتظَّت مغامراته بالابتكارات والاختراعات، التي فاقت عصره، ولكن سرعان ما حوَّها التطوَّر العلمي إلى حقائق، مثل جهاز الاتصال الدقيق في ساعة المعصم، وأجهزة التنَّصت صغيرة الحجم، وأجهزة الاتصال المرئية...

وربما لهذا أيضًا لم يحتمل عودته إلى شركة السمسرة والأوراق المالية، التي تمتلكها أسرته، عقب تسريحه من الخدمة بالمخابرات البحرية البريطانية...

وربما يتساءل البعض عن سر تسريح (فليمنج)، على الرغم من ابتكاراته وخططه، التي تركت بصمة واضحة، في تاريخ الجاسوسية، ولكن الواقع أن (فليمنج)، على الرغم من كل هذا، لم يكن يصلح كضابط مخابرات محترف؛ إذ أنه كان شديد الحماس لكل ما يفعله، وهذا يتعارض مع شخصية ضابط المخابرات المحترف؛ لأن الحماس الزائد يفقده وضوح الرؤية والحذر، ويعَّرض أية عملية له للخطر، فالعميل أو الجاسوس الناجح، هو من ينحَّي عواطفه وانفعالاته دومًا جانبًا، ويفسح المجال كله لعقله وحده، ثم أن طبيعة عمل أجهزة المخابرات، في فترة السلم، تختلف عنها في زمن الحرب، وضابط المخابرات المحترف يعلم هذا جيَّدًا، ويتعامل مع كل موقف بما يناسبه...

مشكلة (فليمنج) الثانية كانت فرديته الشديدة؛ إذ لم يكن يتألق إلا منفردًا، وعمل المخابرات يتعارض مع الفردية، ويحتم اعتياد العمل بروح الفريق...

وعلى الرغم من ابتكاره شخصية (بوند)، ونجاحها منقطع النظير، فقد أصيب (فليمنج) بسببها بحالة من الهوس، في أيامه الأخيرة؛ إذ راح يحيا بنمط (بوند)، فيدخّن ستين سيجارة يوميًا، ويتناول المارتيني غير المخفوق، ويقود سيارته الرياضية، بسرعة سبعين كيلو مترًا في الساعة، وكانت سرعة كبيرة، بمقاييس الخمسينات، وبدأ الكل يعتقد أنه يغار من (بوند)، الذي صار أكثر شهرة منه بكثير، إلا أنه في الواقع كان يعاني من ملل شديد، مع حياة الرفاهية والترف والنجاح، بعد تلك الفترة المثمرة، التي قضاها في المخابرات البحرية البريطانية...

ومع كل تاريخ (فليمنج)، فهو لم يكن الكاتب والأديب الوحيد، الذي عمل لحساب المخابرات، في تلك الفترة، كان الأديب والمفكّر (سومرست موم) يعمل أيضًا لحساب المخابرات البريطانية، وهو لم يبتكر بعدها شخصية شهيرة، وإنما انفرد بكونه الأديب الوحيد، الذي أصدر كتابًا، يروي فيه تجربته، في عالم الجاسوسية المثير....

وهذا يحتاج إلى قصة أخرى.

* * *

\book100100

(٦)

الكاتب البريطاني الشهير (سومرست موم)، والذي ولد في ٢٥ يناير ١٨٧٤ م، نشأ في بيئة عادية بسيطة، حشدت في أعماق موهبته الكثير من الخبرات، التي سرعان ما أفرغها عبر قلمه، في عدد من الروايات والمسرحيات، التي حققت رواجًا كبيرًا في حينه، حتى أنه كان من المسرحيين، الذين ما إن تحمل أية مسرحية اسمهم، حتى يبدأ الإقبال عليها، قبل حتى أن تعرض، وتباع تذاكرها مسبقًا، مع ثقة روَّاد المسرح في قوة كاتب المسرحية، وروعة معالجته لأحداثها، مما دفع أصحاب المسارح ودور النشر إلى التسابق على نيل رضاه، والفوز بأعماله، مما جعل منه أشهر روائي ومسرحي، مع بدايات القرن العشرين...

في تلك الفترة، اندلعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، ولم يخطر ببال (موم) أن يشارك فيها عمليًا، باعتبار أنه كان يعاني من ضعف رئوي، ناتج عن البيئة التي نشأ فيها، ولا مبالاته بصحته على نحو عام، شأن معظم الروائيين في عصره...

وعلى الرغم من دخوله الحرب، كان الاتحاد السوفيتي يعاني من عشرات القلاقل في أعماقه، حيث سئم الشعب حكم أسرة (رومانوف)، وطغيانها، وسيطرة رجال القصر على مقاليد

الأمور، وبات من الواضح، على الرغم من ظروف الحرب، أو ربما بسببها، أن الشعب الروسي مقدم على ثورة...ولقد أدركت (المانيا) هذا، وأدركت أن نجاح الثورة يحتاج إلى قائد، تلتف حوله الجماهير، ولهذا قامت بعملية استخباراتية كبيرة، عرفت باسم (القطار الحديدي)، تم خلالها إيصال (لينين) إلى (روسيا)، حتى يصبح القائد الملهم لثورتها...

ولقد رصدت المخابرات البريطانية عملية (القطار الحديدي) وأدركت أهمية أن تكون لها عيون في قلب الأحداث، تنقل إليها أدق المعلومات والأسرار...

ومن خلال دراسة دقيقة، وقع الاختيار على (موم)، الذي سبق له زيارة (روسيا)، وحظي هناك باستقبال جيد، أشار إلى ثقة الكثيرين من الشعب الروسي به...

وعلى الرغم من عزم (موم)، عدم خوض الحرب على نحو مباشر، فقد استهوته الفكرة، عندما عرضها عليه مندوب المخابرات البريطانية، وعندما شرح له مسئول المكتب السادس البريطاني، أنه من أقوى الأمور، في أية عملية استخباراتية، أن يكون العميل هو آخر شخص، يمكن أن يخطر على بال الطرف الآخر...

وقبل (موم) المهمة بشغف الروائي، وتم تدريبه على كل ما ينبغي للجاسوس معرفته والإلمام به، ليسافر بعدها إلى (بتروجراد) في قلب (روسيا)، مع مهمة محدودة، ألا وهي جمع كل المعلومات الممكنة، حول إمكانية موافقة القيادة البلشفية،

على عقد صلح منفرد مع (ألمانيا)، وهو ما نادى به الشعب الروسي، عقب ثورته، واستلام البلاشفة زمام حكم البلاد....

ولقد كان لشخصية (موم) أكبر الأثر، في نجاح مهمته؛ إذ أنه بالإضافة إلى شخصيته الجذابة، ولباقة حديثه، كان قادرًا على عقد عدد كبير من الصداقات، في مجتمع (بتروجراد)، مستعينًا بشهرته، وبثقة الناس فيه، وعشقهم لرواياته ومسرحياته، التي تمت ترجمة عدد كبير منها، إلى اللغة الروسية...

ومن خلال علاقاته، علم (موم) أن الحزب الشيوعي، الذي آلت إليه السلطة، قد وافق على إتمام ذلك الصلح المنفرد، والانسحاب من الحرب في ذروتها، وكانت له أهمية كبرى، في إيصال تلك المعلومات الهامة إلى المخابرات البريطانية، التي رأت أن هذا الصلح المنفرد سيكون طعنة نجلاء للحلفاء، في ذلك الوقت بالتحديد؛ إذ أنه سيساعد (المانيا) على تكثيف هجومها على باقي الدول، بعد ضمان حيادية الجبهة الروسية...

أيامها كان ذلك الضعف الرئوي لدى (موم)، قد تطوَّر إلى سل رئوي حاد، صار عائقًا بينه وبين متابعة عمله، في مجال الجاسوسية، لذا فقد تم سحبه من (روسيا)، وشن غارات كثيفة عليها، في محاولة لمنع (لينين) من توقيع معاهدة السلام المنفردة، التي أطلق عليها اسم (ثورة السلام والخبز)، والتي تستهدف إيقاف نزيف الاقتصاد بسبب الحرب، وتوجيه الموارد إلى إشباع الشعب الروسي، الذي كان نقص الخبز هو أحد أهم أسباب ثورته...

ولكن الخطة البريطانية كلها فشلت، أمام إصرار الحزب الشيوعي على إنهاء حالة الحرب، وموافقة الشعب السوفيتي على هذا، وعقدت (روسيا) بالفعل صلحًا منفردًا مع (المانيا)، وإن كان هذا لم يمنع هزيمة (المانيا) أمام الحلفاء في النهاية، وإجبارها على توقيع معاهدة (فرساي) المجحفة، التي نقضها (هتلر) فيما بعد...

وعقب خروجه من لعبة الجاسوسية، شعر (سومرست موم) فجأة بحالة فراغ كبيرة، شأن كل من يعمل في هذا المضمار، المليء بالمغامرة والإثارة، ثم يعود إلى الحياة العادية....

وعلى الرغم من أنه قد صار الكاتب الأكثر شهرة ومبيعًا، في ثلاثينات القرن العشرين، إبان صعود (هتلر) إلى السلطة، إلا أنه لم يستعد شعوره بالراحة، إلا عندما نشر تجربته في عالم الجاسوسة، في كتابه الذي نال شهرة واسعة، وحقّق مبيعات خرافية (كنت جاسوسًا)، والذي نشر فيه تفاصيل عمله في عالم الغموض، وربما كأوَّل من يفعل هذا، ونشر حقائق كانت صدمة عنيفة للسوفييت، الذين فوجئوا بأن الكاتب الذي أولوه حبهم وثقتهم، كان جاسوسًا بينهم، يعمل لحساب المخابرات البريطانية...

والعجيب أن تلك الشهرة الطاغية، وذلك النجاح المبهر، قد دفعا (موم) إلى تغيير اتجاهه الأدبي تمامًا، حيث صارت معظم كتاباته إباحية ومبتذلة، مما أدَّى إلى انحطاط قيمته الأدبية، بحيث بقى كتابه (كنت جاسوسًا) هو أقوى مؤلفاته على الإطلاق، حتى وفاته عام ١٩٦٥ م، بعد أن شهد نهاية الحرب العالمية

الثانية، وعودة (بريطانيا) إلى قوتها...

والكتابات عن عالم الجاسوسية عديدة وذات اتجاهات وزوايا مختلفة، وفقًا لطبيعة كاتبها، و...

لهذا حديث آخر.

***

الكتابات في عالم الجاسوسية كثيرة ومتنوَّعة، ولها قدرة مدهشة على جذب اهتمام القارئ، أيًا كانت نوعيته، وأيًا كان مستواه الفكري....

ويرجع هذا إلى أن كتابات الجاسوسية ليست كلها من نمط واحد، وإنما تنقسم إلى خمسة أنواع مختلفة، وفقًا لطبيعة الكاتب وتاريخه، فهناك العميل أو الجاسوس السابق، الذي يروي تفاصيل العملية، التي قام بها، دون كشف النقاط بالغة السرية، أو التفصيلات الدقيقة، التي يمكن أن تكشف آخرين، أو تفسد سرية عمليات تالية...

وذلك النوع من كتَّاب أعمال الجاسوسية، لابد من إخضاع كتاباته لمراجعة دقيقة، من قبل الجهاز الذي قام بعملية لحسابه؛ إذ أن شعوره بالزهو قد يدفعه أحيانًا، ودون إدراك، إلى كشف ما لا ينبغي كشفه، أو تفخيم دوره في مرحلة ما، على حساب الحقيقة البحتة، خاصة وأن لعبة الجاسوسية تستهوي دومًا من يتوغلون فيها، عندما تتكلَّل عمليتهم بالنجاح، ويصبح من العسير عليهم الخروج من اللعبة، أو الاقتناع بأنها دومًا، بالنسبة

لهم، لعبة محدودة، تنتهي بنهاية العملية، مما يساعد على أن ينسج خيالهم الكثير من التفاصيل، التي لم تحدث أبدًا، أو إعادة صياغة بعض التفاصيل، بحيث يكون الكاتب فيها هو البطل الأوحد، على عكس الحقيقة...

النوع الثاني من كتابات الجاسوسية، هو ذلك الذي يكتبه رجال مخابرات سابقون، عن عمليات أداروها، أو شاركوا فيها، أو حتى خططوا لها أو تابعوها، وهذا النوع، على الرغم من ندرته في هذا العالم، هو نوع من الكتابات شديدة الحساسية؛ إذ أنها قد تكون صادقة تمامًا، وهذا يتعارض مع طبيعة رجال المخابرات، ومع قسم السرية، الذي يلتزمون به، أثناء وبعد فترة خدمتهم، وحتى آخر يوم في حياتهم، وإن كانت هناك بعض الكتابات، لمن تمرَّدوا منهم على الولاء لأجهزتهم السابقة، ونشروا بعض التفاصيل، التي تسبَّبت في كوارث كبيرة، فقد قام أحد رجال المخابرات الأمريكية السابقون، ينشر أسماء عدد من العملاء، المنتشرين في أرجاء العالم، وتفاصيل ما أفادوا به المخابرات الأمريكية، في فترة خدمتهم، مما أدى إلى سلسلة من الاغتيالات، لعملاء ورجال مخابرات، مازالوا في الخدمة، وإلى إفشال أكثر من عشر عمليات، كانت تسير بنجاح، في أماكن مختلفة من العالم...

هذا في حال أن تكون الكتابات صادقة، ولكن هناك احتمال آخر، لأن تكون تلك الكتابات مقصودة ومدروسة؛ لتوصيل رسالة ما، إلى جهة أخرى، أو الشوشرة على معلومات تخص

عملية ما، أو دس معلومات، تفسد عملية قادمة، أو محتملة، وهذا يعنى أن بعض تلك الكتابات، التي يفترض أنها تصدر عن مصدر ثقة، ليست أهلًا تمامًا للثقة، على الرغم من أنها توحي بعكس هذا... ولكن هذا لا يمنع من أن بعض الكتابات، في هذه النوعية الثانية، كان لها أبلغ الأثر، في تعريف الكثيرين، بطرق التفكير وإدارة الأمور، في أجهزة مخابرات بعينها، وكيف أن هذه الطرق تم تطويرها، مع الخبرات المكتسبة، في أجهزة مخابرات أخرى، مثل كتاب (لعبة الأمم)، لرجل المخابرات السابق (مايلز كوبلاند)، والذي كشف كيف أن أجهزة المخابرات الكبرى تستطيع التلاعب بمقادير أمم كاملة، من أجل تسيِّد مصالحها الشخصية، حتى لو بلغ الأمر حد إثارة القلاقل والفتن، أو العمل على إشعال الثورات، أو السعي لإحباطها وإفشالها، وكيف أن تلك الأجهزة تصنع دومًا مماثلًا لكل الشخصيات العالمية، أي أنه يعد الشخص، ذهنيًا ونفسيًا، بحيث يصير تفكيره، وتصير ردود أفعاله، مماثلة تمامًا لشخص بعينه، له تأثير كبير في مجتمعه، وهذا حتى يمكن توقع أفعال وردود أفعال الشخص الأصلي، تجاه سياسات معينة، أو مواقف بذاتها، تمامًا مثلما حدث مع الرئيس العراقي السابق (صدَّام حسين)، والذي تم دفعه دفعًا لاحتلال الكويت، وصيغت كل الانذارات التي وجهت إليه، بحيث تستفزه صيغتها، وتدفعه لرفضها في عنف، مما يمنح الآخرين الفرصة لمهاجمته، وتدمير آلته العسكرية، التي باتت

تشكَّل أيامها خطرًا على الحليف الأمريكي الرئيسي في المنطقة، وهو (إسرائيل)...

على الجانب الآخر، نجد كتابات أشبه بالدراسات، يضعها رجال مخابرات ذوى شأن كبير، وتعد مرجعًا علميًا في فن الجاسوسية، أو في أحد فروعه، وربما كان من أشهرها، في عالمنا العربي، كتاب (الحرب النفسية)، والذي صدر في جزئين كبيرين، لمدير المخابرات الأسبق (صلاح نصر)، والذي وضع فيهما خلاصة دراسته لأساليب الحرب النفسية، وطرق التأثير في العدو، عبر أنواع مختلفة من الشائعات، منها الشائعات المتفجرة، التي تطلق لإحداث تأثير سريع ومباشر، في الحالات الحرجة، والشائعات الزاحفة، التي تتغلغل في المجتمع في بطء، لإحداث تأثيرات دائمة ومستمرة، والشائعات الغائصة، والمعَّدة بحيث تختفي لفترة ما، ثم تعود وبقوة، عندما تتغيَّر الظروف، أو تعود الحاجة إليها...

وفي كتابه أيضًا، تحدَّث (صلاح نصر) عن طرق استجواب الجواسيس، وكيفية وضعهم تحت ضغط نفسى مدروس، بحيث يضطرون إلى الاعتراف بالحقيقة... والحقيقة وحدها..

بعد أن تفشل محاولات الاعتراف الكاذب، المعد مسبقًا، والذي يطلق عليه اسم (الخطة ب) أو (الخطة ج)...

وهكذا...

والكتاب تحدث أيضًا عن بعض تقنيات التجسَّس، التي

كانت مستخدمة أيامها، من الحبر السري، وحتى أجهزة كشف الكذب، التي استخدمت قديمًا، في استجواب بعض الجواسيس، قبل أن يثبت فشلها، في انتزاع اعتراف حقيقي، من شخص تم تدريبه على مواجهتها والتعامل معها...

أما النوع الرابع من كتابات الجاسوسية، فهو ذلك الذي يقوم به مؤرخون، أو دارسون لهذا العالم الغامض، دون أن يشاركوا فعليًا فيه، وإنما تكون الكتابات أشبه بالأبحاث العلمية، التي تسعى إلى دراسة علم التجسّس، والذي صار علمًا معترفًا به، في كثير من الدول، ودراسة نظرياته وطرقه، والبحث في أسباب النجاح والفشل فيه، لوضع نظريات جديدة بشأنه، أو تفنيد النظريات القديمة، أو المستخدمة فعليًا في حينه، وهذا النوع شديد الندرة في عالمنا العربي؛ بسبب الأسوار التي تحيط عالم التخابر فيه، مع قلة عدد المهتمين أو الدارسين، لمثل هذا العلم...

ولكن في الكتابات الغربية، سنجد مراجع تتحدَّث عن علم وفن التجسس، بدءًا من إعداد رجل المخابرات، وحتى الفحص النفسي للأشخاص، الذين يتم اختيارهم كجواسيس...

يتبقى عندنا النوع الأخير من كتابات الجاسوسية، وهو روايات الجاسوسية، غير المستمدة تمامًا من أرض الواقع، وهي أكثر المتابعات غزارة، في هذا المجال، وبعضها له فائدة كبرى، لأجهزة المخابرات نفسها، كما سيتضح، في حديث قادم بإذن الله.

***

روايات الجاسوسية هي الروايات الأكثر إثارة وشعبية، في كل أنحاء العالم تقريبًا، ليس لأنها تحوي في المعتاد الكثير من التشويق والمغامرة، وعمليات الكر والفر الذهنية، وإنما أيضًا لأنها تتحَّدث عن عالم غامض مجهول، بالنسبة لمعظم الناس، يحوي الكثير من الأسرار، التي يتحتَّم أن تبقى خلف الأبواب المغلقة، ومن النادر أن تفصح عنها الألسن، إلا تحت مقاييس شديدة التعقيد... وحتى تلك الروايات تنقسم إلى نوعين رئيسيين، فهي إما رواية عن عملية حقيقية، أو رواية من صميم الخيال البحت...

والقارئ بالطبع أكثر شغفًا بتلك الروايات، التي تتحدَّث عن عملية حقيقية، على الرغم من أن قواعد السرية تقتضي ألا تحوي الرواية، التي يحمل غلافها ما يشير إلى أنها مأخوذة من ملف حقيقي، أكثر من ثلاثين في المائة من الحقيقة المجرَّدة، وإلا فإنها تكون أشبه بتقرير رسمي، يقدَّم إلى كل الخصوم والأعداء، عن كيفية عمل وتفكير جهاز ما، وأسلوبه في إدارة عملياته، وهذا أمر شديد الخطورة، لا يمكن كشفه، مهما كانت الأسباب...

ذلك النوع من الروايات إذن، يحصل كاتبه على ملخص صغير عن العملية التي يكتب عنها فحسب، وذلك الملَّخص يحوي الخطوط الرئيسية فقط، وعلى المؤلف أن يغزل خيوط روايته، من أعماق خياله، مع الالتزام بالخطوط العريضة، وهذا يتطلَّب منه دراية كبيرة بعالم المخابرات، وعلم التخابر، وترتيب الأحداث والخطوات، التي تتبع في إدارة العمليات بشكل عام...

وفي النهاية تخرج الرواية إلى النور مثيرة، مشوِّقة، تلهث معها الأنفاس، وتخفق لها القلوب، ويرتفع معها الحماس إلى ذروته، ويتصوَّر بها القارئ أنه قد صار على بينة من الحقيقة الكاملة، دون أن يدرك أن ما حصل عليه هو أقل من ثلثها بالفعل...

وعلى الرغم من هذا، فتلك الروايات ناجحة للغاية، وأرقام توزيعها تتجاوز أرقام توزيع الروايات الاجتماعية، والرومانسية، وحتى روايات الخيال العلمي...

أما النوع الثاني، وهو الأكثر نجاحًا وانتشارًا، فهو ذلك الذي يعتمد على خيال محض؛ حيث تسبح فيه شخصيات شديدة الإثارة، وتفوق مغامراته -الخيالية- كل ما يمكن أن يحدث على أرض الواقع، وهي تعتمد في معظمها على الحركة، والمواجهات، وشخصية الجاسوس أو رجل المخابرات، والذي يكون في المعتاد وسيمًا، أنيقًا، قويًا، ذكيًا، بارعًا، وواسع الحيلة...

أي أنه يكون، باختصار، تلك الصورة المثالية، التي يحلم الجميع بأن يكونوا عليها...

ولكن هناك روايات جاسوسية خيالية، فاقت في دقة أحداثها الروايات المأخوذة عن عمليات حقيقية؛ نظرًا لأن مؤلفها يجيد التعامل مع عالم الجاسوسية، أو أن لديه خبرة مسبقة في هذا المجال...

ومن أشهر تلك الروايات (نيكيتا)، والتي تتحدَّث عن الجواسيس النائمين، عبر شاب أمريكي عادي، كشف بالمصادفة أن والديه هما في

حقيقتهما جاسوسين سوفيتين نائمين، منذ زمن طويل، وعلى الرغم من حياتهما في الولايات المتحدة الأمريكية لعشرات السنين، ومن أنهما قد أنجباه على أرضها، إلا أن ولاءهما مازال للسوفييت، حتى أنهما استخرجا له جواز سفر سوفييتي، باسم (نيكيتا)...

ولقد تحوَّلت الرواية إلى فيلم سينمائي شهير، قام ببطولته النجم الأمريكي (سيدنى بواتيه) ويعد من العلامات الفارقة، في تاريخ السينما الأمريكية، حيث إنه كان من أوائل الأفلام، التي تعاملت مع الخيال بروح الواقع، واقتحمت عالم الجاسوسية، من زاوية لم يتحَّدث عنها أحد من قبل، وإن صارت بابًا مفتوحًا فيما بعد، إذ تحوَّلت رواية (نيكيتا) بعدها إلى مسلسل تليفزيوني، ثم ظهر بعده أحد أشهر المسلسلات، التي تتحدَّث عن الجواسيس النائمين في (انجلترا)، تحت اسم (النائمون)، وهو مسلسل يناقش الحالة النفسية للجواسيس النائمين، الذين يستقرون في البلد الذي تم زرعهم فيه، ويعتادون العيش في مجتمعه، حتى أنهم يتحوَّلون إلى جزء منه، فلا يعود بوسعهم العودة، عندما يطلب منهم هذا...

والروايات الخيالية لعالم الجاسوسية، هي الأكثر إثارة بالتأكيد، لما تحويه من خيال جامح، جعل شخصية مثل (جيمس بوند)، أو العميل (٠٠٧) يحيا في عقول وقلوب الناس، لأكثر من نصف القرن، ويتنقَّل من نجاح إلى آخر، في حين لم تحظ كتابات (سومرست موم)، عن مغامراته الحقيقية، في المجال ذاته، نفس القوة والشهرة وزمن النجاح...

وفي عالمنا العربي تقل الكتابات في عالم الجاسوسية عن الكتابات الأخرى، على نحو واضح، وربما إلى حد الندرة، ربما لأن الزمن السابق كان يشغف بالروايات الاجتماعية والرومانسية، بأكثر مما يولي روايات أو كتابات الجاسوسية اهتمامًا...

ثم ظهر من بداية السبعينات كتاب (قصتي مع الجاسوس)، لمؤلفه، وصاحب العملية الأصلية (ماهر عبد الحميد)، والذي كان المواجهة الأولى، بين الجمهور العربي وكتابات الجاسوسية، ولقد حاز نجاحًا كبيرًا، نظرًا لصدوره عقب الإعلان الرسمي عن العملية نفسها، والتي كان بطلها المؤلف نفسه، الذي حاولت المخابرات الإسرائيلية تجنيده، فأبلغ المخابرات المصرية، التي أدارت عبره عملية ناجحة، كشفت شبكة جواسيس شديدة الخطورة، عقب نكسة ١٩٦٧م بقليل، في الوقت الذي كان الناس يتلهفون فيه على التشبُّث بأية لمحة نصر، عقب ما شعروا به من هزيمة وعار مع النكسة...

وعقب النجاح الكبير للكتاب، بدأ (ماهر عبد الحميد) سلسلة من الكتابات والمقالات، حول ذلك العالم المثير، الذي يجمع بين غموض وإثارة دنيا المخابرات، وخيال وعذوبة دنيا الأدب والخيال...

ومع سقوط (باروخ)، أحد الجواسيس، الذين ولدوا في (مصر)، وتخرَّجوا في جامعاتها، ثم هاجر إلى (إسرائيل)، وعمل هناك في سلك الشرطة، ثم انتقل منه إلى المخابرات، التي أرسلته

في عدة مهام صغيرة، قبل أن ترسله إلى (اليمن)؛ للتجسَّس على السفن الحربية المصرية في باب المندب، ليسقط هناك، ويتم نقله، عبر مغامرة مثيرة إلى (مصر)، بدأت مرحلة صحافة الجواسيس، إذ أنه بعد وصول (باروخ) إلى (مصر)، التقى به الكاتب الراحل (عبد الفتاح الديب)، وروى اعترافاته في كتاب، أضاف إلى المكتبة العربية قسمًا جديدًا في عالم أدب الجاسوسية، ولقد انفتح باب أدب الجاسوسية على مصراعيه عقب انتصار أكتوبر ١٩٧٣م، لتبدأ مرحلة جديدة ومتألقة، من أدب الجاسوسية العربي...

ولهذا حديث ممتد.

***

مع انتصار أكتوبر ١٩٧٣م، بدأت ثورة جديدة، في أدب الجاسوسية العربي، وظهرت أولى صوره على الشاشة، بفيلم (الصعود إلى الهاوية)، والذي يعد أوَّل فيلم سينمائي مأخوذ من أحد ملفات المخابرات العامة، وبحرفية عالية، فاقت كل ما سبقه من أعمال فنية، تدور حول هذا العالم، ثم سرعان ما ظهرت أعمال مماثلة، دارت كلها حول حرب المخابرات والجاسوسية، التي كانت لها ذراع طويلة، في تحقيق النصر، وتألَّق كُتَّاب لامعون في هذا المضمار، مثل (ماهر عبد الحميد)، و(إبراهيم مسعود)، و(صالح مرسي)، ولقد تميَّز الأخير على نحو ملحوظ؛ نظرًا لبراعة قلمه، وقوة استيعابه لعالم الجاسوسية والمخابرات، ورشاقة أسلوبه الأدبي، الذي حوَّل شخصية الجاسوس ورجل

المخابرات على صفحات كتبه، إلى شخصيات ثلاثية الأبعاد، لا تستمتع بأحداثها المثيرة فحسب، ولكن تتعايش معها، وتتفاعل مع تطوراتها، وتنغمس في مشاعرها، حتى لتكاد تراها بعينيك وليس بخيالك وحده، وساعده على هذا أن معظم شخصيات رواياته كانت بالفعل شخصيات من لحم ودم، مثل (أحمد الهوَّان)، الذي تحوَّل في رواياته إلى (جمعة الشوَّان)، بطل (دموع في عيون وقحة)، و(رفعت الجمَّال)، بطل رائعته (رأفت الهجان)، والذي يعد من أهم وأنجح عيون (مصر) في (تل أبيب)، لسنوات طويلة، والذي صار أيقونة المخابرات المصرية، في نظر السواد الأعظم من العرب، وليس المصريين وحدهم، وخاصة بعد أن تحوَّلت الرواية إلى مسلسل تليفزيوني من ثلاثة أجزاء، كانت شوارع (القاهرة) تكاد تفرغ من المارة في ساعة عرضه....وفي منتصف الثمانينات، ظهرت شخصية روائية من عالم المخابرات، لكاتب هذه السطور، وهي شخصية (رجل المستحيل)، ساهمت ولفترة طويلة في انتشار رواية الجاسوسية، وتحوَّلها إلى نوع من الإدمان، بالنسبة للشباب العربي...

ومن الأمور التي ربما يجهلها البعض، أن كل أجهزة المخابرات العالمية لديها أقسام خاصة، لقراءة ومتابعة كل ما ينشر عن عالم الجاسوسية، وربما دراسته دراسة متأنية أيضًا؛ وهذا لسببين رئيسيين، أوَّلهما هو البحث بين السطور عن حقائق، قد تنكشف عن غير قصد، أو عن قصد، والسبب الثاني هو التقاط

ما يبتدعه خيال المؤلف، مما يمكن تنفيذه على أرض الواقع...

ففي عالم المخابرات، لا يوجد فاصل كبير بين الخيال والحقيقة، إذ أن معظم عمليات المخابرات الناجحة تكاد تكون أشبه بفكرة خيالية في بدايتها، وربما هنا يكمن سر نجاحها، حيث أن الخيال فيها هو ما يخدع العدو، ويبعدها عن فكره، الذي يتجه في المعتاد نحو الافتراضات المنطقية الواقعية....

ثم أن عالم المخابرات والجاسوسية هو عالم المفاجآت غير المتوقَّعة في المعتاد، ففي النصف الثاني من القرن العشرين، شعرت المخابرات البريطانية بوجود تسرَّب، خطير لديها، يشير إلى وجود جاسوس سوفييتي بين صفوفها، مما دعا إلى تحقيقات وتحريات واسعة، وخطط شديدة التعقيد؛ في محاولة لكشف هوية ذلك الجاسوس، ثم كانت المفاجأة ذات يوم، عندما اختفى فجأة (كيم فيلبى)، نائب مدير المخابرات البريطانية، دون أن يترك خلفه أي أثر، ومع اختفائه، وضعت المخابرات البريطانية أمامها احتمال اختطافه، وبدأت سلسلة من التحريات المكَّثفة قبل ساعات من ظهور (فليبي) في (موسكو)، واستقباله استقبال الأبطال هناك؛ باعتباره أحد أقوى وأنجح جواسيس الكى جي بي في (بريطانيا)...

ولقد صدم هذا البريطانيين بشدة، ودعاهم لإعادة هيكلة نظام مخابراتهم بالكامل، وإعادة فحص كل الرجال العاملين لديهم، خشية وجود ثغرة أخرى بين صفوفهم، خاصة وأن

(فيلبى) قد تسبَّب في سقوط واغتيال عدد من أقوى جواسيس (بريطانيا) في (موسكو)، وفي مخابراتها بالتحديد...

ولقد قضى (فيلبى) باقي عمره في (روسيا)، حيث حصل على جنسيتها، وأقيمت له جنازة عسكرية عند وفاته، ثم وضعت (روسيا) صورته على أحد طوابع مجموعة أصدرتها، عن الجواسيس الذين ساعدوا مخابراتها، ومنهم أيضًا (ريتشارد سورج)، والذي كان أحد أسباب ربح الحرب العالمية الثانية...

وفي الولايات المتحدة أيضًا، تم انتداب (روبرت هانسن)، من المباحث الفيدرالية، إلى المخابرات المركزية الأمريكية؛ باعتباره مسئولًا عن مكافحة النشاط السوفييتي المعادي، ولقد بدا (هانسن) عميلًا نمطيًا، حيث إنه اكتفي بعمل مكتبي؛ لنقل كل ملفات النشاط السوفييتي، في المخابرات الأمريكية، من الورق إلى الصورة الرقمية، وقضى معظم وقته في مكتبه المنعزل، في ركن هادئ من قبو مبنى المخابرات، في (لانجلي) بولاية (فيرجينيا) الأمريكية، بصحبة أخطر الملفات، وأدق الأسرار...

ولم يدر أحدهم أن (هانسن)، الذي لم يبال به أحد، قد أجرى اتصالًا بالسفارة السوفييتية في (كندا)، وعرض على ملحقها العسكري كومة من الوثائق والأسرار، دفعت هذا الأخير لسرعة الاتصال برؤسائه في (موسكو)، والذين انبهروا بكم وخطورة المعلومات، فتحوَّل (هانسن) في سرعة إلى جاسوس لهم، في قلب المخابرات الأمريكية...

وطوال سبعة عشر عامًا، عمل (هانسن) لحساب المخابرات السوفييتية، وحتى في هذا كان جاسوسًا نمطيًا إلى حد مثير للدهشة؛ إذ استخدم وسيلة اتصال واحدة لا تتغيَّر، لتسليم المعلومات، واستلام التعليمات والمكافآت، على عكس المتبع، من ضرورة تغيير نقطة الاتصال بصورة دورية؛ إذ كان يدس المعلومات في نقطة بعينها، في منتزه المدينة العام، ويعود بعد أربع وعشرين ساعة؛ لاستلام التعليمات والمكافأة، من النقطة نفسها...

وكما حدث في (بريطانيا)، شعر الأمريكيون بتلك الثغرة في جدار معلوماتهم، وبدأوا بحثًا مسعورًا عن المسئول عنه...

والعجيب أن (هانسن) لم يخطر ببالهم قط، على الرغم من أنهم فقدوا بسببه أحد أخطر جواسيسهم في قلب المخابرات السوفيتية....

ولقد استمر هذا، حتى سقوط الاتحاد السوفيتي في بداية التسعينيات، عندما نجح أحد رجالهم في الحصول على صورة من مراسلات الجاسوس مع السوفييت، والتي حوت بعض العبارات الساخرة، التي اعتاد (هانسن) ترديدها، مما جذب أنظارهم إليه، ودفعهم إلى التركيز على مراقبته...

ولقد أدهشهم بشدة، أنه جاسوس نمطي إلى هذا الحد، وأنهم لم يكشفوا أمره طوال سبعة عشر عامًا، على الرغم من هذا...

وهنا بدأت الاستعدادات للإيقاع بالجاسوس...

وهذا فن آخر.

***

(٧)

الإيقاع بالجاسوس فن، لا يقل براعة عن كشفه وتحديد هويته؛ لأن إلقاء القبض على جاسوس، يختلف تمام الاختلاف، عن إلقاء القبض على مجرم عادى، مهما بلغ إجرامه، أو بلغت درجة خطورته؛ ففي كل الاحوال، ومهما كان الجرم، فإلقاء القبض على مجرم، يعد شأنًا داخليًا، يخص أية دولة، دون أن يخص سواها، إلا في حالات الجريمة الدولية، وهي حالات نادرة نسبيًا، في حين أن إلقاء القبض على جاسوس هو شأن دولي، يخص الدولة التي أوقعت به وكشفت أمره، ويخص أيضًا الدولة التي جنَّدته، أو المتهمة بهذا...

أي أن اتهام شخص ما بالتجسس، هو اتهام ضمني لدولة، بأنها وراء هذا...

وهذا ليس الفارق الوحيد بين إلقاء القبض على مجرم ما، وإلقاء القبض على جاسوس، فالفارق الأكثر أهمية، هو أن المجرم يمكن القبض عليه، فور كشف هويته، وتوجيه أصابع الاتهام إليه، أما مع الجاسوس، فالأمر يختلف تمام الاختلاف...

فكشف الجاسوس يعَّد الخطوة الأولى فحسب من العملية، وبعدها تأتى الخطوات الأكثر أهمية، وهي إثبات الاتهام أوَّلا،

باعتبار أنه، كما قلنا، اتهام ضمني لدولة، ومن المحتَّم أن يكون موثقًا، وربما بالصوت والصورة أيضًا، قبل إلقاء القبض على الجاسوس...

وحتى بعد وجود كافة الإثباتات، لا يتم إلقاء القبض على الجاسوس مباشرة، بل تتم دراسة الأمر دراسة متأنية أوَّلا؛ لتحديد الوقت المناسب لإلقاء القبض عليه...

ففي بعض الأحيان، وبالذات في زمن الحروب، يكون من الأفضل ترك الجاسوس، بعد كشف هويته؛ لاستغلاله في توصيل معلومات بذاتها إلى العدو...

تمامًا مثلما حدث في حالة الجاسوسين (إبراهيم حسين شاهين)، و(انشراح على موسى)، وهي حالة فريدة في عالم الجاسوسية، إذ تم تجنيد (إبراهيم) في قلب (سيناء)، عقب الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧م، وقام بتجنيد زوجته (انشراح)، التي دفعتها شهوة الطمع إلى الموافقة الفورية، وعندما كشف ابنهما الأكبر (نبيل) أن والديه جاسوسين إسرائيليين، قاما بتجنيده معهما، وبعده شقيقه الأصغر (محمد) لتتحوَّل العائلة كلها إلى عائلة مسمومة باسم الخيانة الزعاف....

ولقد كان (نبيل) هو مفتاح سقوط الأسرة بأكملها، إذ أنه كشاب لم يستطع كبح جماح نفسه، وراح ينفق بسخاء، من نقود الخيانة، على نحو لا يتفق مع مستوى دخل أسرته المعلن، مما جذب الأنظار إليه، ووضعه تحت المراقبة، لتكشف المخابرات أمره، وأمر أسرته، مع بداية السبعينات، ويتبيَّن لها أنه من كثرة المعلومات،

التي أرسلتها العائلة المسمومة إلى (الموساد)، تم إلحاق (إبراهيم) و(انشراح) بالجيش الإسرائيلي، تحت اسمي (موسى عمر) و(دينا عمر)، وأقيم لهما حفل استقبال في (تل أبيب)، كانت صوره على مكاتب المخابرات المصرية، بعد يومين فحسب...

وهكذا انكشف أمر عائلة الخيانة، وبقي اتخاذ قرار إنهاء العملية، وإلقاء القبض على الجواسيس...

ولو أننا نتحَّدث عن جريمة عادية، لتم إلقاء القبض على العائلة كلها فور كشف أمرها، ولكن ولأن الأمر يتعلَّق بالجاسوسية، فقد وجدت المخابرات أنه من الأفضل أمنيًا، تركهم يمارسون خيانتهم، مع دس معلومات مغلوطة عليهم، تؤدي إلى توصيل انطباع قوي للعدو، بأن (مصر) لا تنوي الدخول في حرب معه، لفترة طويلة قادمة...

وبالفعل، تم دس أحد المجندين على الأسرة، من خلال علاقته بالابن الأكبر، وعبر هذا المجند، تم إيصال الانطباع للجاسوسين، اللذين أرسلاه بدورهما إلى العدو، وكانت ضربة أكتوبر ١٩٧٣م المباغتة، التي أربكت العدو، وخالفت كل ما أرسله إليه جواسيسه...

ولقد تم استدعاء (إبراهيم) و(انشراح) إلى (تل أبيب) بعدها، ولأن رجال المخابرات محترفون بحق، فقد تركوهما يسافران، مع وضعهما تحت مراقبة دقيقة خفية، وفي (تل أبيب)، سألهما رجال المخابرات الإسرائيلية عن كيف خدعهما المصريون، ثم طلبوا

منهما فتح عيونهما وآذانهما جيدًا، والاستعانة بكل مصادرهما، للتيقن مما إذا كان المصريون ينوون القيام بضربة تالية، أم أنهم قد اكتفوا بهذا، ثم منحوهما جهاز إرسال متطوَّر، هو نسخة أولية من الهواتف المحمولة الحالية، يمكنهما بوساطته إرسال رسالة نصية، تحوي المعلومات، من أي مكان خارج المنزل...

ولقد عادا بالجهاز إلى (القاهرة)، وقاما بتجربة إرسال، ولكن أزرار الجهاز تعطلَّت، فتم إبلاغ (تل أبيب)، التي حدَّدت لهما موعدًا في (روما)؛ لاستلام طاقم أزرار بديل، فسافرت (انشراح) لاستلام طاقم الأزرار، في حين بقي (إبراهيم) في (القاهرة)...

وهنا رأت المخابرات أنه قد حان وقت إنهاء العملية، فأطبقت على (إبراهيم) في منزله، وكان من الضعف بحيث انهار فور أن قدموا أنفسهم إليه، باعتبارهم من رجال المخابرات العامة، بصحبة وكيل النائب العام، وكان يرتجف، وهو يخط اعترافه الكامل، وإن أبقى عليه رجال المخابرات في منزله؛ ليواصل اتصالاته بزوجته، بعد أن أكَّدوا له عمليا، أنهم على دراية كاملة بكود الأمان، المستخدم في الاتصالات، وحذروه بشدة من استخدام كلمة (آلو) في بداية المكالمة، حيث إنها وسيلة سرية؛ ليخبر زوجته أنه يجري المكالمة تحت الضغط...

ولقد أطاعهم (إبراهيم) تمامًا، حتى أن (انشراح) قد عادت هادئة مطمئنة، وفوجئت برجال المخابرات، عند دخولها المنزل، وعلى عكس (إبراهيم)، فقد ثارت وهاجت وماجت،

وهدَّدت وتوَّعدت، ثم سرعان ما أدركت أن كل هذا بلا طائل، فاستسلمت للموقف، وانتقلت إلى مرحلة المساومة، ولكن الوقت كان قد انقضى، ولم يعد هناك مجال للتفاوض....

هذا مثال لإحدى الحالات، التي يكون فيها الإيقاع بالجاسوس فن، لا يقل أهمية عن فن كشفه، وهذا يعود بنا إلى قصة (روبرت هانسن)، ذلك الجاسوس النمطي، الذي كان مسئولًا عن مكافحة النشاط السوفييتي في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم تبيَّن أنه جاسوس للسوفييت، بعد سبعة عشر عامًا من الخيانة...

فعندما بدأت الخيوط تتكَّثف، لتكشف خيانة (هانسن) شعر رجال المخابرات الأمريكية بدهشة شديدة؛ لأن كل تصرفات (هانسن) كانت واضحة مكشوفة، ربما أكثر مما ينبغي، وعلى الرغم من هذا، فلم ينتبه إليه أحد، لشعورهم بضآلة شأنه، على الرغم من أنه كان يضع يده على كل ملفاتهم بالغة السرية طوال الوقت، ويطلع على كل ما فيها، من خلال توليه عملية النسخ الرقمي لها، وهنا وضعوا خطة لإلقاء القبض عليه متلبسًا، وعند نقطة اتصاله، التي لم تتغيَّر، خلال سبعة عشر عامًا، انتظر الرجال حتى دس (هانسن) المعلومات في المكان المعتاد، ثم أطبقوا عليه من كل صوب...

والعجيب أن (هانسن) ظل هادئًا، عندما أوقعوا به، وكل ما فعله هو أن سألهم:» لماذا تأخرتم يا رفاق؟!..«..

ولقد ظل هادئًا حتى تم نقله إلى قسم الاستجواب، وهناك توالت المفاجآت....

على نحو مدهش.

***

على الرغم من ثقة المخابرات الأمريكية، من أن (روبرت هانسن) هو ذلك الجاسوس، الذي يمد السوفييت بكل المعلومات من داخلهم، إلا أنه كان من الضروري إثبات الإيقاع به متلبسًا، كما تقتضي القواعد...

ولقد توَّقع منه الكل انهيارًا، واضطرابًا، أو شيئًا من المقاومة على الأقل، ولكن (هانسن) لم يبد شيئًا من هذا، فقد كان يدس المعلومات، في نفس المكان، الذي اعتاد وضعها فيه، طوال سبعة عشر عامًا، عندما فوجئ بزملائه من حوله، يحيطون به، ويلقون القبض عليه متلبسًا، فأدار عينيه في وجوههم في هدوء، وهو يسألهم: « لماذا تأخرتم يا رفاق؟!...»...

كان يتساءل: كيف أنهم لم يكشفوا أمره، طوال سبعة عشر عامًا، عمل فيها كجاسوس للسوفييت، وهو المسئول عن متابعة النشاط السوفييتي المضاد !!...

وفي حجرة التحقيقات، توالت المفاجآت...

فعندما تم انتداب (هانسن) من الشرطة الفيدرالية، إلى المخابرات الأمريكية، اقتصرت مهمته على نقل جميع الملفات السرية إلى أقراص رقمية، بحيث يسهل تجميعها، وربطها

ببعضها البعض، وإيجاد كل المعلومات داخلها... ولقد قام (هانسن) بعمله خير قيام، وكان يقضي أكثر من اثنتي عشرة ساعة يوميًا، في نقل المعلومات، من الوثائق إلى القرص الصلب، ويؤدي عمله في آلية، جعلت الكل ينسى أمره، ويعتبره عميلًا لا شأن له، ومجرَّد ناقل معلومات فحسب، ونسي الكل أن هذا يعني أنه يمتلك كل المعلومات، مهما بلغت درجة سريتها، عن كل عمليات وعملاء المخابرات الأمريكية، في كل بلدان العالم، وبالتحديد في قلب الاتحاد السوفييتي...

ولقد اندهش السوفييت بشدة، عندما اتصل بهم (هانسن)، ومنحهم قدرًا رهيبًا من المعلومات، وبعد تحريات دقيقة، اعتبروه واحدًا من أهم وأخطر رجالهم، في قلب المخابرات الأمريكية...

ولكن المفاجأة الحقيقية، بالنسبة لرجال المخابرات الأمريكية، كانت أن (هانسن)، وطوال سبعة عشر عامًا من التجسَّس، وعلى الرغم من خطورة المعلومات، التي نقلها إلى السوفييت، لم يتقاض منهم سوى سبعمائة ألف دولار فحسب، وهو مبلغ يعد شديد الضآلة، مقارنة بما يتقاضاه جواسيس أقل شأنًا، في ربع هذا القدر من الأعوام، ومقابل معلومات أقل أهمية وخطورة!!...

المفاجأة الثانية، هي أن (هانسن) لم ينفق الكثير من هذه الأموال على أسرته، أو حتى على نفسه، فبخلاف سيارة مرسيدس، لم يزد إنفاق أسرته كثيرًا، إلى الحد الذي يمكن أن يثير

الشبهات، ولم يشتر أية هدايا فاخرة لزوجته أو أولاده؛ لعلمه بأن زوجته لن تتقبَّل أية هدية، إلا لو علمت مصدر ثمنها بالضبط؛ إذ كانت شخصية متزنة، وكاثوليكية ملتزمة...

ولقد أقام (هانسن)علاقة عجيبة، مع راقصة تعري، تعرَّفها في أحد الملاهي الليلية، وارتبط بها لعدة سنوات، والعجيب أن علاقتهما لم تكن جنسية، كما أقرَّت الراقصة في أقوالها، بقدر ما كان (هانسن) يحب التحدُّث إليها، أو دعوتها إلى العشاء، أو منحها الهدايا الماسية، وكأنه كان يجد فيها تعويضًا عن زوجته، التي لا يستطيع أن يقدِّم لها هذا...

ولقد حار محققو المخابرات الأمريكية بشأن (هانسن)؛ إذ أنه إن لم يكن يهتم بالمال أو الجنس، وليس صاحب فكر شيوعي، فلماذا فعل ما فعل، وما كان دافعه الأساسي للتجسُّس؟!...

ولقد تم نقل الأمر برمته لقسم التحليل النفسي، الذي راجع كل ما حصل عليه، من رسائل (هانسن) إلى السوفييت والعكس...

وبعد دراسة مستفيضة، كانت المفاجأة الجديدة...

(هانسن)، الذي يعشق روايات الجاسوسية، شعر أنه ضئيل الشأن في المخابرات الأمريكية، باعتباره منتدبًا لنقل البيانات فحسب، فقرَّر أن يلعب دور (جيمس بوند)، أو دور الجاسوس المحترف عظيم الشأن...

ولما لم يكن هذا ممكنًا، داخل المخابرات الأمريكية، فقد قرَّر

أن يلعب هذا الدور مع المخابرات المضادة...

مع السوفييت...

ولقد كان من الواضح أن السوفييت قد التقطوا هذا الخيط، وفهموا دافع (هانسن) للتجسّس، لذا فقد كانت رسائلهم إليه، تغذّى لديه هذا الدافع، فيبدون انبهارهم بما يرسله إليهم، ويصفونه بأنه من أرفع جواسيسهم شأنًا، وبأنه جاسوس عظيم، وإذا ما أرسل إليهم عبارة ساخرة، محاولًا تقليد أسلوب (بوند)، فهم يشيدون بروحه الساخرة، وبذكاء عباراته ولزوعتها...

ولقد بدا لهم أن هذا أرخص كثيرًا من أن يدفعوا له المال، طالما يكتفي بما يرسلونه إليه، ولا يعترض أو يطالب بالمزيد، مثل أي جاسوس آخر...

أعجب ما في أمر قضية (هانسن)، وما يستحق أن يكون المفاجأة الحقيقية، هو أنه خلال الأعوام السبعة الأخيرة من تجسّسه، أدركت المخابرات الأمريكية أن هناك حتمًا جاسوسًا بين صفوفها، وعقدت لجنتين، خلال تلك الفترة، في محاولة لكشف هوية ذلك الجاسوس، وفي كل مرة، كان (هانسن) يمحو المعلومات، التي يمكن أن تدينه، من ملفاتهم، باعتبار أنه المسئول عن النسخ الرقمي، وذات مرة تسلّل إلى الكمبيوتر المركزي للمخابرات؛ لمعرفة ما إذا كانت الشبهات قد أحاطت به أم لا، ثم محا هذا الدخول من برنامج الكمبيوتر المركزي، ولم ينتبه إليه أحد، بل إنه كان يتابع خطوات وبرامج لجان البحث

عن الجاسوس، عبر الكمبيوتر الخاص به، ولم يكشف أحدهم هذا...

فقط عند سقوط الاتحاد السوفييتي، وانهيار جهاز الكي. جي. بي، والحصول على ملف مراسلات الجاسوس، انتبه البعض إلى عبارات الرسائل، التي تتشابه مع عبارات (هانسن)، وبدأ وضعه تحت المراقبة الدقيقة..

وعندما سأل المحققون (هانسن)، كيف استخدم نقطة اتصال واحدة، طوال سبعة عشر عامًا، أجابهم في بساطة، أنهم لم يكشفوا أمرها، طوال كل تلك الفترة، وهذا دليل نجاحها...

ولم يستطع أحدهم أن يعترض، على قوله هذا، والذي يثبت أنه في عالم الجاسوسية والمخابرات، لا توجد ثوابت، وأن كل شيء ممكن، وكل احتمال وارد...

وكل شيء يمكن استخدامه واستغلاله...

ولهذا بالتحديد واقعة شديدة الغرابة، خلال الحرب العالمية الثانية، و...

لهذا رواية أخرى.

***

\book100100

(٨)

(نوسترادامـوس) فلكي فرنسي، عاش في القرن السادس عشر، وعلى الرغم من هذا، فهو يعد أشهر فلكي عرفه التاريخ، وأكثرهم إثارة للجدل، حتى يومنا هذا...

ذلك لأن (نوسترادامـوس) وضع كتابًا مدهشًا، أطلق عليه اسم (قرون)، وفيه كتب مئويات من الرباعيات الشعرية، التي حملت في معظمها تنبؤات أثارت العالم كله، طوال القرون الماضية؛ ففي رباعياته تنبأ بتوقيت ووسيلة مقتل الملك (هنري الخامس)، مما أثار غضب الملكة (كاترين دي ميديتشي)، واضطره للفرار، ولم تكن هذه سوى بداية لتنبؤاته المدهشة، والتي تجاوزت حتى زمن وفاته، فقد تنبأ بمقتل (جون كينيدى)، الرئيس الأمريكي الأسبق، في (دالاس)، ومقتل شقيقه (روبرت)، واندلاع الحرب العالمية الثانية، والأولى أيضًا، وحتى بحرب (العراق)، وربما كانت أشهر تنبؤاته هي تلك التي حدَّد فيها، وبمنتهى الدقة، ضربة الحادي عشر من سبتمبر، وانهيار برجي التجارة العالميين، قبل الحدث بخمسة قرون كاملة، ولا تعود شهرة نبوءته الأخيرة هذه إلى التوقيت والأسلوب الذي حدَّده فحسب، وإنما إلى أنه ذكر في رباعياته عبارة « برجان عظيمان ينهاران»، في زمن لم تكن

الأبراج فيه معروفة، حتى أن البعض تصوَّر أنه قد أخطأ اللفظ، وأنه كان يقصد «صخرتان عظيمتان تنهاران»...

وبغض النظر عن قبول أو رفض هذا، فقد كان للفلكي (نوستراداموس) دورًا كبيرًا، في الحرب العالمية الثانية، وعلى نحو بالغ الغرابة.... فذات ليلة، وبينما استغرق وزير البروباجندا أو الدعاية بالمصطلح الحديث (جوزيف جوبلز) في نوم عميق، انهمكت زوجته في مطالعة الطبعة الألمانية من كتاب (قرون)، الذي وضعه (نوستراداموس) في القرن السادس عشر، وأذهلها أن وجدت إحدى رباعياته تتحَّدث في وضوح عن (هسلر)، الذي سيشعل الحرب في (أوروبا) فتسيل لها الدماء أنهارًا في نهر (الراين)... ومن شدة ذهولها وفزعها، أيقظت الزوجة (جوبلز)، وقرأت عليه الرباعية...

في البداية شعر (جوبلز) بسخافة الأمر، الذي أيقظته زوجته من أجله، إلا أنه لم يلبث أن حمل عدوى الذهول والفزع بدوره، عندما طالع الرباعيات، ووجد أنها تصف (هتلر) بدقة، وإن حملت اسم (هسلر)، بدلًا من (هتلر)...

وفي الصباح التالي، كان (جوبلز) يقف بزيه العسكري أمام (أدولف هتلر)، ويروي له الأمر، ثم يقترح حربًا دعائية من نوع جديد...

وعجيب....

فعبر مجموعة من الخبراء، تم استخلاص كل الرباعيات، التي

تشير إلى انتصار (هتلر)، وقام (جوبلز) بطبعها في كتاب خاص، حملت الطائرات الألمانية آلاف النسخ منه؛ لتلقيها على (انجلترا)، وباقي الدول، التي لم تصل إليها الجيوش النازية بعد...

ولقد فوجئ الحلفاء بهذا الأسلوب الجديد من الحرب النفسية، والذي لم يستخدمه أحد من قبل، فأسرعت المخابرات البريطانية تدرس كتاب (نوستراداموس)، بواسطة لجنة من الخبراء أيضًا، واستخلصت منه بدورها تلك الرباعيات، التي تتحَّدث عن هزيمة (هتلر) في النهاية، وانتصار الحلفاء، وعملت المطابع البريطانية بأقصى طاقاتها؛ لتطبع آلاف النسخ من تلك الرباعيات، باللغة الألمانية، وحملتها الطائرات الانجليزية؛ لتلقيها على (ألمانيا)...

وغضب (هتلر) بشدة من الهجمة المرتَّدة البريطانية، وصب غضبه على (جوبلز)، الذي لم يقبل بالهزيمة، فاستقدم مجموعة من الخبراء، ليس لاستخلاص المزيد من الرباعيات هذه المرة، ولكن لتأليف رباعيات جديدة، لها نفس خصائص رباعيات (نوستراداموس)، ولكنها تشير إلى أن (هتلر) سيربح الحرب في النهاية، وأرسل طائرات النازية لتلقيها على (انجلترا)...

وأدرك رجال المخابرات البريطانية اللعبة بسرعة، وقرَّروا دخولها بالأسلوب نفسه، وسرعان ما ألقوا على (المانيا) عشرات الآلاف من نسخ كتاب جديد، زيَّفوا فيه بدورهم رباعيات جديدة، تقول: إن الحلفاء سيربحون المعركة، وسيلقون القبض

على (هتلر) حيًا، ويعرضونه على الناس داخل قفص حديدي، مما أثار جنون (أدولف هتلر)، وجعله يأمر بإيقاف هذه الحرب الدعائية فورًا؛ كوسيلة لدفع البريطانيين إلى إيقافها من جانبهم...

ولكن الفكرة لم تفارق ذهنه قط، وربما لهذا أقدم على الانتحار، عندما خسر الحرب، خشية أن يفعل به الحلفاء ما قالوه، في رباعيات (نوستراداموس) الزائفة، وإن كانت هناك شكوك عديدة، أثيرت مؤخرًا، حول انتحار (هتلر)، خاصة وقد تم حرق جثته وجثة عشيقته (إيفا براون)، والتي أصرَّ على أن يتزوَّجها، في ساعاته الأخيرة؛ إذ صدر كتاب يقول مؤلفه أن (هتلر) لم ينتحر فعليًا، وإنما تم تهريبه، بخطة وضعت مسبقًا، وأنه نجح في الفرار إلى (أمريكا الجنوبية)، حيث قضى ما تبقى من حياته مختبئًا، في مزرعة كبيرة هناك، ولكن مؤلف الكتاب لم يعط دليلًا واحدًا على ما كتبه، مما جعل الامر أشبه بقصة خيالية، تصلح لفيلم وهمي، ثم ظهر مؤلف آخر، يؤكِّد أن الحلفاء قد ألقوا القبض على (هتلر) حيًا، وأنهم قد احتفظوا به سجينًا، وأعلنوا عن انتحاره، حتى لا يثير وجوده على قيد الحياة حماسة النازيين مرة أخرى، والمدهش أنه أكَّد أن (هتلر) ظل سجينًا، حتى مات في السجن عام ١٩٦٩م، ولكنه أيضًا لم يقدِّم دليلًا واحدًا على قوله هذا، ولا عن التوقيت الذي ذكره بالتحديد، بل ولم يعط مبررًا أكثر قيمة، لسجن الزعيم النازي، دون الإعلان عن هذا... وأيًا كانت الحقيقة، فما حدث في الحرب العالمية الثانية،

أثبت، بما لا يدع سبيلًا للشك، أن الحرب النفسية هي واحدة من أقوى أسلحة الحروب، وأن جميع أجهزة المخابرات تتعامل معها بجدية بالغة، مهما بلغت غرابتها؛ نظرًا لأن هدم الجبهة الداخلية، هو أحد أهم وأخطر أهداف أجهزة المخابرات، لتدمير ترابط الشعوب، وإشعال النيران في المجتمعات، مما يضعف الجبهة الخارجية، التي تنشغل بصراعاتها في الجبهة الداخلية...

ومن أخطر وسائل الحرب النفسية حرب الشائعات، والتي تستخدم منذ قديم الأزل، إلا أنها، ومنذ الحرب العالمية الثانية، صارت أكثر تطورًا، إلى الحد الذي صنع منها علمًا مستقلًا، وصنع من الشائعات فصائل وتقسيمات عديدة، لكل منها مغزاه وهدفه، و...

لهذا حديث آخر.

***

الشائعات لعبة قديمة، عمرها هو عمر الحروب نفسها؛ ففي كل حرب، يسعى العدو دومًا لهدم الجبهة الداخلية، وإشاعة البلبلة فيها، وبث روح الفرقة في الشعوب، وقطع كل رباط ثقة، بينها وبين قياداتها ودفاعاتها، بحيث يصنع منها جبهة جديدة، ينشغل بها عدوه، فتسهل هزيمته، في جبهة الحرب والقتال...

الشائعات لعبة، استخدمها الفراعنة، وانتهجها البربر، وبرع فيها التتار، الذين كانت تسبقهم الشائعات التي ابتكروها، والتي تبالغ في قوتهم وبأسهم وجبروتهم؛ لكي ترهب عدوَّهم،

من قبل حتى أن يواجههم...

ولقد نجحت الشائعات، التي بثها الألمان، في الشعب الروسي، إبان الحرب العالمية الأولى، في إشعال وإذكاء جذوة الثورة الروسية، التي كان على رأس مطالبها الانسحاب من الحرب...

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، وجاء معها الفكر النازي، الذي أدرك أهمية الدعاية والشائعات، حتى أنه أنشأ، وربما لأوَّل مرة، وزارة البروباجندا، أو الدعاية، والتي رأسها (جوزيف جوبلز)، أحد مؤسسي علم الشائعات، المعروف الآن...

والشائعات فن من فنون عالم الجاسوسية، له تقسيماته وأنواعه وتأثيراته، ولكل شائعة من تصنيفاته مهمة، وغاية، وهدف، يجعلها أحد فنون الحياة، وفن عميق أيضًا، يدرك كيفية استخدام الشائعة الصحيحة، في الوقت الصحيح؛ لبلوغ الهدف الصحيح...

فالشائعات ليست كلها من طراز واحد، بل هي تندرج نحو نوعين كبيرين من التقسيمات...

نوع يعتمد على هدفها، والآخر يعتمد على مصدرها...

والشائعات التي ترتبط بمصدر الشائعة، هي الشائعات البيضاء، والشائعات السوداء، والشائعات الرمادية...

والمصطلح هنا لا صلة له بهدف الشائعة، ولا يعني أن الشائعة البيضاء ذات هدف نبيل، أو العكس بالعكس، وإنما يرتبط بمصدرها فحسب؛ فالشائعة البيضاء هي شائعة معلومة المصدر، مثل خبر ينشر أو يذاع في التليفزيون الإسرائيلي مثلًا،

ويثير بلبلة في الشارع المصري، أو ينشر عن لسان مسئول أمريكي، يحتل مكانة رفيعة، ولكنه ليس صاحب القرار الرئيسي، فيثير بلبلة هنا، لما حواه من تهديدات ومخاوف وتصريحات، ليست في النهاية سوى تعبير عن وجهة نظر صاحبها، الذي يمكن فورًا التصريح بأنه ليس في موقع إصدار القرار، إذا ما أتت الشائعة بنتيجة عكسية...

أما الشائعة الرمادية، فهي شائعة يصعب تحديد مصدرها بالضبط؛ إذ أنها تنطلق وتنتشر في الشارع، ويتناقلها ويردِّدها البعض، مما يزيد من انتشارها السريع، على الرغم من أنها لم تأت عن لسان شخص بعينه، ولم تصدر عن جهة معلومة، وليس هناك حتى ما يمكن أن يثبتها أو ينفيها؛ لذا فهي شائعة مجهولة المصدر، تحدث تأثيرًا كبيرًا، دون أن ينتبه أحد إلى ضبابية ورمادية مصدرها...

الشائعة السوداء أمرها يختلف؛ فهي تصدر عن مصدر، يخالف تمامًا ما توحي به، أو ما تنسب إليه...

كأن تتحَّدث بها إذاعة ناطقة بالعربية مثلًا، وتبدو وكأنها إذاعة وطنية، في أغنياتها، وإعلانها ومضمونها، ومعظم نشراتها الإخبارية، والتي تدس فيها الشائعات، التي هي سر وجودها من الأساس...

وتلك الإذاعات، ولأنها تتخذ مظهرًا وطنيًا؛ لتدس السم في العسل، تحظى في المعتاد بنسبة مستمعين عالية، وبنسبة مصداقية كبيرة بين الناس، مما يرفع من قيمة دورها، عندما تدس شائعاتها،

بين الأوساط البسيطة، والمتابعة لها، خاصة وأنها تنفرد أحيانًا بمجموعة من الحقائق، ترفع ثقة الناس بها إلى الحد المطلوب...

والشائعات، بكافة تصنيفاتها، تعتمد على قاعدة أساسية، توَّصل إليها خبراء علم النفس، منذ سنوات وسنوات...

قاعدة تقول: « إن الناس مستعدون لتصديق الكذب، مهما بدا زيفه، إذا ما صادف هواهم، وتكذيب الصدق، مهما بلغ وضوحه، إذا ما خالف هواهم»....

المسألة إذن ليست في صدق أو كذب ما يقال، ولكنه في رغبة الناس في تصديق أو تكذيب ما يقال...

ولكن دعنا نعود إلى الشائعات نفسها، وإلى تقسيماتها، حيث تنقسم من منطلق الهدف، إلى ثلاثة تصنيفات أخرى، وهي الشائعات المتفجِّرة، والشائعات الزاحفة، والشائعات الغائصة...

والشائعة المتفجِّرة، هي شائعة سريعة المفعول، معَّدة بحيث تتفجَّر في المجتمع، تحت ظروف بعينها، لكي تحقَّق هدفًا تكتيكيًا سريعًا، مثل شائعة موت (هتلر)، التي أطلقت عام ١٩٤١م؛ في محاولة لإثارة بلبلة كبيرة، يمكن من خلالها العمل على قلب نظام الحكم...

وشائعة فرار القيادة، مع الأيام الأولى لثورة يناير ٢٠١١م، والتي أشاعت الاضطراب في صفوف قيادات الشرطة...

وهذا النوع من الشائعات يقتصر على فترات المواجهات المباشرة، ولا يصلح للتعامل على مستوى كبير، او لفترات طويلة، إذ أنه ينكشف في سرعة، بعد أن يحقَّق الهدف المرجو منه،

على عكس الشائعات الزاحفة، ذات التأثير الاستراتيجي طويل المدى، وهي شائعة تعتمد على الانتشار، والتوَّغل في المجتمع، بحيث تتناقلها الألسن، وتضيف إليها، وتعمل على تقويتها، دون أن تدري، فتزحف الشائعة في المجتمع وتزحف، وتصبح بالنسبة إليه غير قابلة للجدل، بحيث يكون تكذيبها أشبه بالكذب، وليس بكشف الحقيقة، لذا فالشائعة الزاحفة تعد من أخطر أنواع الشائعات، لقدرتها على تغيير تفكير مجتمع كامل، مع مرور الوقت...

أما الشائعة الغائصة، فهي شائعة من نوع خاص، تظهر في ظروف بعينها، ثم تغوص في المجتمع، وتعود للظهور مرة أخرى، كلما عادت الظروف نفسها، وهو نوع من الشائعات، التي تعتمد على تكرار ظروف بعينها، في مجتمع بعينه...

هذا بالإضافة إلى نوعين أساسيين كبيرين من الشائعات، تندرج تحتهما كل أنواع الشائعات الأخرى، بمختلف تصنيفاتها، وهما الشائعة الاستراتيجية، والتي تندرج تحتها كل أنواع الشائعات، التي تستهدف ترك أثر دائم في المجتمع كله، على نطاق واسع، وتستهدف كل فئات المجتمع بلا استثناء، على المدى الطويل، والشائعة التكتيكية، التي تستهدف فئة من الشعب، أو حتى الشعب كله، لتحقيق هدف سريع ومرحلي، والوصول إلى نتائج قوية وفورية...

والشائعات، على الرغم من كونها وسيلة شديدة الفاعلية،

لضرب الجبهة الداخلية، وربما الجبهة الخارجية المباشرة أيضًا، إلا أنها ليست الوسيلة الوحيدة للحرب النفسية، ولهدم الجبهات الداخلية، فهناك وسائل أكثر قوة، وأكثر عنفًا أيضًا، ولهذا حديث... قادم.

***

عملية (سوزانا)، واحدة من أشهر عمليات الجاسوسية، على المستوى المصري والعالمي، وبالتأكيد على مستوى الصراع المصري الإسرائيلي، ولقد بدأت في الخمسينات، عقب حركة يوليو ١٩٥٢م، وعرفت عالميًا باسم (فضيحة لافون)، نسبة إلى (بنحاس لافون)، وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق، والذي أصدر قراره ببدء العملية، من خلال المخابرات الحربية الإسرائيلية (أمان)...

ولقد اعتمدت العملية على قيام مجموعة من الشباب الإسرائيلي المدرَّب، بتخريب بعض المنشآت الأمريكية في (مصر) في ذلك الحين...

ففي ذلك الحين، كان (دافيد بن جوريون)، رئيس الوزراء الإسرائيلي ووزير دفاعها الأسبق، قد اعتزل العمل السياسي، وجاء بدلًا منه (موشي شاريت) لرياسة الوزراء، و(بنحاس لافون) لوزارة الدفاع، في نفس الوقت الذي وجدت (إسرائيل) فيه نفسها في موقف لا تحسد عليه، إذ صار الاتحاد السوفييتي دولة عظمى، غير مؤيَّدة لها، في نفس الوقت الذي أدار فيه الرئيس الأمريكي (إيزنهاور) وجهه لها نسبيًا؛ أملًا في فتح قنوات اتصال

جديدة مع النظام المصري بعد الحركة، وكان الفكر الإسرائيلي يتوَّقع صدامًا ثأريًا، بينه وبين العرب، الذين لم تفارقهم مرارة هزيمة حرب ١٩٤٨م بعد، وتولى الجيش السلطة في (مصر)، يدق ناقوس الخطر حول هذا...

لذا فقد وضعت المخابرات العسكرية الإسرائيلية، المعروفة باسم (آمان)، خطة للتخريب والتجسَّس في (مصر)، وبالذات لضرب المصالح الأمريكية فيها، حتى لا يزداد التقارب المصري الأمريكي، على حساب ضعف العلاقة الإسرائيلية الأمريكية، وكانت الخطة تشتمل على الاعتداء على دور السينما، ومؤسسات الدولة العامة، وبعض المؤسسات الأمريكية والبريطانية، على أمل أن يفصم هذا العلاقة المصرية الأمريكية الوليدة، ويدفع بريطانيا إلى إعادة النظر، في فكرة إجلاء قواتها عن (السويس)...

وبناء على الخطة، تم إنشاء ما يعرف بالوحدة (١٣١) في (مصر)، والتي ضمت مجموعة من شباب اليهود في (الاسكندرية)، والعجيب أن أحدهم كان (جاك بيتون) موظف شركة التأمين الشاب، والذي هو في واقعة (رفعت الجمَّال)، الذي ينتحل شخصية يهودية، لحساب السلطات المصرية؛ لكي يتواجد في أوساط اليهود، ويكون عينا عليهم...

ولقد كان المقدَّم (مودخاي بن تسور) مسئولًا عن إنشاء ومتابعة الوحدة (١٣١)، والتي اختار لقيادتها الرائد (إبرهام دار)، الذي سافر إلى (مصر)، ودخلها بجواز سفر زائف،

كرجل أعمال بريطاني، تحت اسم (جون دارلنج)، ولقد تلَّقت الوحدة أوَّل أوامرها، كما كشفت التحقيقات فيما بعد، عبر رسالة لاسلكية، تحدَّد أن الهدف الأكبر للعملية، هو الحيلولة دون التَّوصُّل إلى اتفاقية مصرية بريطانية، بأي ثمن، وعن طريق توجيه ضربات متتالية للجبهة الداخلية المصرية، وحدَّدت الأوامر الأهداف المنشودة بالتالي: المراكز الثقافية والإعلامية، المؤسسات الاقتصادية، سيارات الدبلوماسيين البريطانيين، ورعايا (بريطانيا)، وأي هدف آخر، يمكن أن يؤدي تدميره إلى توتر العلاقات الدبلوماسية، بين (مصر) و(بريطانيا)، والبحث عن أهداف موجعة، في منطقة القناة، وكانت الأوامر تصل عبر الإذاعة الإسرائيلية، في السابعة من صباح كل يوم، وكانت إذاعة وصفة عمل (الكيك الإنجليزي)، هي إشارة بدء العملية.. وفي الأربعاء الثاني من يوليو ١٩٥٤م، بدأت العملية، بتفجير ثلاث صناديق بريد، في مبنى البريد الرئيسي في (الاسكندرية)، وكانت الأضرار طفيفة غير مؤثرة، مما دعا الصحافة إلى تجاهل الأمر، على الرغم من العثور على عبوة مجهولة، داخل الصناديق الثلاثة...

ولقد تولَّى التحقيق في هذا الصاغ (ممدوح سالم)، الذي صار رئيس وزراء (مصر) فيما بعد، ثم مساعدًا لرئيس الجمهورية، والذي كشفت له التحقيقات أن العبوات تحوي مزيجًا من المواد الكيماوية، وقطع صغيرة من الفسفور الأحمر، ولم ينتبه أحد عندئذ إلى أن صناديق البريد كانت مجرَّد تجربة لهذا النوع منزلي الصنع من

المتفجرات، حتى انفجرت قنبلة في المركز الثقافي الأمريكي في (الاسكندرية)، صباح الرابع عشر من يوليو، ثم في المركز الثقافي الأمريكي في (القاهرة)، في مساء اليوم نفسه، وفي الحادثين، ثم العثور على جراب لنظّارة، يشبه ما تم العثور عليه في حادث تفجير صناديق البريد، وفي الثالث والعشرين من يوليو، كانت الخطة تقضي بوضع متفجرات في محطات القطارات، ومسرح (ريفولي) بالقاهرة، وداري سينما (مترو) و(ريو)، إلا أن أحد العبوّات اشتعلت، في جيب أحد منفذي العملية، قبل موعدها، وتم انقاذه من قبل المارة، واعتقاله من قبل ضابط شرطة، ارتاب في الأمر...

وفي المستشفى، وجد الأطباء مسحوقًا فضيًا، يلطّخ جسم الشاب، وتم العثور معه على جراب نظّارة، داخله مسحوق مشابه، ورجّح الأطباء أن يكون الاشتعال ناشئا عن تفاعل كيمائي، وبتفتيش الشاب، الذي يدعى (فيليب ناتاسون)، غير المعروف الجنسية، والذي يبلغ من العمر- آنذاك - ٢١ عامًا، تم العثور على جراب آخر، به قنبلة من النوع ذاته، ويحمل اسم (مارون آياك)، صاحب محل النظارات، واعترف الشاب بأنه عضو في منظمة مسئولة عن الحرائق، وفي منزله، تم العثور على مصنع صغير للمفرقعات، ومواد كيماوية سريعة الاشتعال، وقنابل حارقة...

وبناءً على اعترافاته، سقط أفراد الشبكة، وهم (فيكتور

موين ليفي)، مهندس زراعي، في الحادية والعشرين من عمره، و (روبير نسيم داسا)، تاجر في نفس العمر، ولقد ادعى كلاهما الوطنية، وأن هدفهما كان حب (مصر)، وإرسال رسالة إلى الإنجليز والأمريكيين، بأنهم سيخرجون منها بالقوة، ولكنهما عجزا عن تبرير محاولة حرق مكتب البريد المصري، كما جاء التقرير، الذي يفيد العثور على شرائح ميكروفيلم، في منزل (فيليب ناتاسون)؛ ليحسم الأمر تمامًا، حيث لم يكن الحصول على الميكروفيلم متاحًا، في ذلك العصر، إلا لأجهزة المخابرات وحدها، مما يثبت أنهما جاسوسان..

وهكذا تساقط باقي أفراد العملية، واحدًا بعد الآخر، وتم احتجاز عدد كبير من اليهود للتحقيق معهم، كان من بينهم، وفقًا لترتيبات القدر (جاك بيتون) نفسه، والذي تم احتجازه في زنزانة واحدة، مع (إيلي حوفي كوهين)، والذي ساعد (رفعت الجمَّال) على إسقاطه في (سوريا) بعد بسنوات، عندما عاش هناك تحت اسم (كامل أمين ثابت)، وكاد يتولَّى منصب وزير الدفاع السوري، بعد أن تم ترشيحه لمنصب نائب وزير الدفاع بالفعل، قبيل كشف أمره وسقوطه بقليل، أما في (مصر)، فقد جاءت قائمة الاتهامات، في قضية (سوزانا) كبيرة....

ولهذا حديث آخر.

***

عندما تم الإيقاع بأوائل المتهمين في عملية الجاسوسية

الكبرى، التي عرفت باسم (عملية سوزانا)، أو (فضيحة لافون)، كان من أهم الأدلة، التي تم العثور عليها، في منزل (فيليب ناتاسون)، أحد المتهمين، شرائح ميكروفيلم دقيقة، لم يكن من الممكن توافرها، في ذلك الحين، إلا لأجهزة المخابرات، ولقد تبيَّن فيما بعد، أن تلك الشرائح قد دخلت إلى (مصر) عن طريق (باريس)، وبوسيلة كانت آنذاك مبتكرة للغاية؛ إذ تم لصقها خلف طوابع البريد، في رسائل عادية، ولعناوين مختلفة...

وعندما تم تكبير تلك الشرائح، وجد الخبراء عليها سبع وثائق، عن تركيب واستعمال بعض القنابل البدائية الحارقة، وشفرة للاتصال اللاسلكي، وعدد من الخرائط للأهداف المراد توجيه الضربات إليها، وأشياء أخرى، تنتمي كلها إلى منظومة التجسَّس...

ولقد قادت التحريات والاستجوابات إلى الإيقاع بعدة متهمين آخرين، مثل (صمويل باخور)، وهو مهندس يهودي، في الرابعة والعشرين من عمره، أسس خلية الوحدة في (الاسكندرية)، وتولَّى زعامتها مؤقتًا، قبل أن يحتل (فيكتور ليفي) منصب الزعامة، لتفوقه خبرة وتدريبًا، وعبر اعترافات (صمويل)، تم إلقاء القبض على (ماير موحاس)، اليهودي البولندي الأصل، والذي يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، ويعمل مندوبًا للمبيعات، والذي أرشد في اعترافاته إلى (جون دارلنج)، أو (إبراهام دار)، قائد الشبكة، ومؤسس فرعيها، في (القاهرة) و(الاسكندرية)، وأحد أخطر رجال المخابرات

الإسرائيلية، وأكثرهم مهارة، كما أرشد عن (موسى ليتو)، الجرَّاح ومسئول فرع (القاهرة)، والذي تم القبض عليه، ليرشد بدوره عن (فيكتورين نينو)، الشهير باسم (مارسيل نينو)، و(ماكس بينت)، و(إيلي جاكوب)، و(يوسف زعفران)، و(سيزار يوسف كوهين)، و(إيلى كوهين)، الذي لم يثبت تورَّطه في (عملية سوزانا)، وتم الإفراج عنه فيما بعد، وإن ساعد ملفه في هذه العملية، على كشف أمره فيما بعد، عندما تم زرعه في (سوريا)، تحت اسم (كامل أمين ثابت)، وألقى القبض عليه هناك، قبل أن يفوز بمنصب نائب وزير الدفاع مباشرة...

ولقد أعقب سقوط الشبكة في (مصر) وما صحب ذلك من دوي إعلامي عالمي، أن أصدر (موشى ديان)، رئيس أركان الجيش الإسرائيلي في ذلك الحين، قرارًا بعزل (موردخاي بن تسور)، من قيادة الوحدة (١٣١)، وتعيين (يوسى هارئيل)، بدلًا منه، ومن الواضح أن اختياره لم يكن موفقًا، إذ أن (يوسى هارئيل) قد اتخذ قرارًا بالغ الغرابة والعجب، في تاريخ المخابرات كله؛ إذ خشى تحمَّل المسئولية، فأصدر قراره بإيقاف جميع عمليات التجسَّس، في كل الدول العربية، واستدعاء جميع العملاء فيها، حتى لا يواجه مصيرًا مشابهًا لمصير سلفه... وهو إجراء لا يمكن ان يتخذه رجل مخابرات حقيقي، في فترة شديدة السخونة كهذه...

وعلى جانب آخر فقد تمت محاكمة أفراد شبكة التجسَّس،

التي استهدفت ضرب الجبهة الداخلية، وإفساد علاقات (مصر) الدولية، في الحادي عشر من ديسمبر عام ١٩٥٤م، وصدر الحكم على (موسى ليتو مرزوق)، و(صمويل بخور عازرا)، بالإعدام شنقًا، والأشغال الشاقة المؤبدة، لكل من (فيكتور ليفي)، و(فيليب هرمان ناتاسون)، والأشغال الشاقة لخمسة عشر عامًا، لكل من (فيكتورين نينو)، و(روبير نسيم داسا)، والأشغال الشاقة لسبع سنوات، لكل من (ماير يوسف زعفران)، و(ماير صمويل ميوحاس) ومصادرة أجهزة اللاسلكي والأموال المضبوطة، وسيارة (ماكس بينيت)، والذي لم يرد اسمه في منطوق الحكم؛ نظرًا لانتحاره في السجن...

أما (سيزار يوسف كوهين)، و(إيلي جاكوب)، فقد تمت تبرئتهما، ليخرجا بعدها من (مصر)، ويعاود (إيلي) نشاطه في المخابرات الإسرائيلية، ثم يسقط في (سوريا) بعدها بسنوات، وهو ينتحل شخصية (كامل أمين ثابت)...

ولقد أصيب الشارع الإسرائيلي بحالة من الغضب والغليان، عقب صدور الاحكام، وبذلت (إسرائيل) جهودًا مضنية؛ لإقناع (مصر) بالعدول عن الأحكام؛ لصغر سن المتهمين، وتدخل الرئيس الأمريكي - حينذاك - (أيزنهاور)، وأرسل رسالة شخصية إلى (جمال عبد الناصر)، يناشده الإفراج عن المتهمين لدوافع إنسانية، وكذلك فعل (أنتوني إيدن)، و(وينستون تشرشل)، وعدد من كبار المسئولين الفرنسيين، إلا

أن الرئيس (جمال) رفض كل هذا، وأصَّر على المضي في تنفيذ الأحكام، باعتبار أن مصلحة (مصر) تفوق كل اعتبار...

وبالفعل، وفي ٣١ يناير ١٩٥٥م، تم تنفيذ حكم الإعدام في (موسى ليتو مرزوق)، و (صمويل بخور عزرا)، حيث تم دفن الأوَّل في مقابر اليهود بالبساتين، والثاني في مقابر اليهود بالإسكندرية...

وعم الحزن (إسرائيل) كلها، حيث نكست أعلامها، ووقف أعضاء الكنيست حدادًا، وخرجت كل الصحف الإسرائيلية بمانشيتات سوداء، وتم إطلاق اسم الجاسوسين على أهم شوارع (بئر سبع)... ولكن الفضيحة لم تنته؛ وقد تم التحقيق مع (موشى شاريت)، رئيس الوزراء، والذي لم يكن لديه أي علم بالعملية، وكذلك التحقيق مع وزير الدفاع (بنحاس لافون)، الذي أنكر معرفته بأية عملية، تحمل اسم (سوزانا)، إلى أنه اضطر بعدها للاستقالة، وعاد (بن جوريون) إلى منصب وزير الدفاع، فأصدر قراره بعزل (بنيامين جيلبى)، مدير المخابرات العسكرية (أمان)، وتعيين (يهو شفاط هركابي) بدلًا منه...

و(هركابى) هذا، والذي كان نائبًا لمدير المخابرات العسكرية، هو صاحب نظرية الردع العسكري، التي تم تطبيقها في السياسة العسكرية الإسرائيلية فيما بعد...

أما باقي المتهمين، فقد تم عقد صفقة تبادل أسرى، عقب نكسة يونيو ١٩٦٧م، وتم الإفراج عنهم في بدايات عام ١٩٦٨م،

ليعودوا إلى (إسرائيل)، التي تم استقبالهم فيها استقبال الأبطال، واستقبلتهم رئيسة الوزراء- آنذاك- (جولدا مائير)، وصدر قرار بتعيينهم في الجيش الإسرائيلي؛ كوسيلة لمنعهم من ذكر تفاصيل القضية، وحضرت (جولدا مائير) مع (موشى ديان)، وزير الدفاع الإسرائيلي -آنذاك- حفل زفاف (مارسيل نينو)، وإن لم يمنع هذا ظهور هذه الأخيرة، مع (روبير داسا)، و(يوسف زعفران)، على شاشة التليفزيون الإسرائيلي، بعد عشرين عامًا من العملية، في يوليو ١٩٧٤م، ليهاجموا الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة؛ لأنها لم تبذل الجهد الكافي إطلاق سراحهم قبل هذا، وأنه لولا عملية تبادل الأسرى، لما عادوا إلى (إسرائيل)...

وهذا يقودنا إلى الحديث عن لعبة تبادل الأسرى وصفقات تبادل الجواسيس، باعتبار أنه حتى هذا... فن آخر، من فنون اللعبة، التي لا نهاية لها...

لعبة الجاسوسية.

***

\book100100

(٩)

ماذا بعد إلقاء القبض على جاسوس ما؟...

سؤال هام جدًا، يطرح نفسه على الساحة؛ ليبرز فنونًا أخرى، من فنون لعبة الجاسوسية، وحرب المخابرات، التي لا تضع أوزارها قط، في الحرب أو السلم..

فكشف الجاسوس فن... والإيقاع به فن... وإثبات أنه جاسوس فن أكبر...

أما الفن الحقيقي، فيأتي بعد الإيقاع به بالفعل...

فالجاسوس هو شخص ليس عاديًا، ولو أنه رجل مخابرات محترف، أو حتى عميل تم تجنيده، أو زرعه في مكان ما، فهو مدرَّب دومًا على المراوغة خلال الاستجواب، وعلى خطة أو عدة خطط احتياطية، وفقًا لدرجة ذكائه، وخبرته، وقوة تدريبية...

وعندما يتم الإيقاع به، وعلى عكس ما يحدث في جهات الأمن الداخلي لأية دولة، تكون أدلة وقرائن اتهامه كاملة ومؤكَّدة، وعلى الرغم من هذا فاعترافه ضرورة كبيرة؛ لأن ما يخفيه في أعماقه، يكون دومًا أكبر مما تم التوَّصل إليه وكشفه، واستخراج المعلومات الباقية منه ليس بالأمر السهل، وإنما يحتاج إلى مزيج من الفن والصبر؛ لأن الجاسوس سيدلي بالخطة (ب) أوَّلا؛ عندما

تواجهه بالأدلة والبراهين، وهي خطة ستبدو متقنة، وربما تتفق مع عدد كبير من الادلة، وسيقاوم لوقت طويل، قبل أن يدلى بها؛ حتى يكسبها المصداقية اللازمة، لذا فسيتحتَّم إرسالها إلى القسم الفني، الذي يفحص ويدرس ويحلِّل كل جزء وكلمة وحرف منها، قبل أن يخرج بتقرير يكشف زيفها، وهنا تتم مواجهة الجاسوس بما توَّصل إليه القسم الفني، فينتقل على الفور إلى الخطة (ج)، وتدور الدائرة نفسها مرة ثانية، وربما ثالثة ورابعة، لو أنه هناك الخطة (د) أو اكثر، وفي النهاية، يدرك الجاسوس أنه محاصر بفريق من المحترفين، فلا يجد أمامه سوى الإدلاء بالاعترافات الصحيحة، التي تؤيدها تقارير القسم الفني...

كل هذا لابد وأن يتم دون اللجوء إلى أي نوع من الإكراه البدني؛ لأن الإكراه البدني يدفع الجاسوس إلى قول ما تريد سماعه، وليس الحقيقة، وهذا لا يتفق مع النظرية المعلوماتية التراكمية، اللازمة لعمل أي جهاز مخابرات، والتي إذا ما شابها معلومة واحدة خاطئة، أدلى بها جاسوس واحد، تحت إكراه بدني، يمكن ان تنهار منظومتها المعلوماتية بالكامل، مما ينجم عنه فشل ذريع، في عدة عمليات تالية... قيمة الجاسوس إذن، تكمن أوَّلا، فيما يمكن انتزاعه منه، من معلومات حقيقية، يمكنها أن تضيف شيئًا إلى المنظومة المعلوماتية المتراكمة، أو كشف بعض الغموض، الذي اكتنف أجزاءً منها... وبعد اعتصار الجاسوس، بغض النظر عن الوقت الذي يستغرقه هذا، لا تعود له فائدة

تذكر، اللهم إلا توجيه رسالة إلى العدو، بأنه قد خسر هذه الجولة، وتم تقديم عميله أو جاسوسه للمحاكمة...

وهنا يتم سجن الجاسوس، في انتظار بلوغ لحظة الفائدة الحقيقية له، وهي عملية تبادله مع آخرين، أو ربح صفقة هامة بشأنه...

هنا في الواقع تكمن الاهمية الكبرى، وربما الأساسية؛ لأي جاسوس يتم إلقاء القبض عليه، واعتصار كل المعلومات الممكنة منه...

فبعد سجنه، يصبح الجاسوس، مهما علا شأنه، مجرَّد سجين عادى، يقضي مدة عقوبته، ويتحتَّم على الدولة أن ترعاه صحيًا وبدنيًا، وأن توَّفر له باختصار، يصبح عبئًا عليها...

حتى تأتى اللحظة، التي لابد وأن تأتي، في كل جولات حرب الجاسوسية بلا استثناء....

لحظة سقوط أحد رجالنا، أو احتجازه من قبل العدو، أو تعرَّض العدو لضغوط شعبية شديدة؛ حتى يسترد جاسوسه، الذي هو بطل في نظر شعبه...

هذا ينطبق بالطبع على الجواسيس الأجانب، وليس على الخائنين من بنى الوطن نفسه، والذين أسقطوا أنفسهم في بئر التجسَّس؛ فمن النادر أن تسلَّم دولة مواطنيها لدولة أخرى، دون هدف قومي كبير...

وعندما يطالب العدو بجاسوسه، أو يسعى لاستعادته، يبدأ فن جديد من فنون لعبة الجاسوسية.... فن التفاوض، وعقد الصفقات...

فقبل حرب أكتوبر ١٩٧٣م، نجحت (مصر) في إسقاط رجل

مخابرات إسرائيلي في قبضتها، يدعى (باروخ زكى مزراحي)، وهو أحد المولودين في (مصر)، وأكمل دراسته كلها فيها، ثم هاجر إلى (إسرائيل)، وعمل في شرطة الآداب، وتزوَّج وأنجب، ثم تم إلحاقه بالمخابرات الإسرائيلية... ولأنه يجيد اللهجة المصرية، تم إرساله في مهمة إلى (أوروبا)؛ ليندس بين المصريين هناك، وينقل أخبارهم وتفاصيل حياتهم، وعندما نجحت مهمته هناك، تم إرساله إلى (اليمن)؛ لتصوير البوارج المصرية في باب المندب، وهناك تم كشف أمره، وألقى القبض عليه، وسافر رجل مخابرات مصري لإحضاره، وخاض مغامرات مدهشة، أشبه بروايات السينما؛ لإحضاره إلى (مصر)، والمخابرات الإسرائيلية تطارده في شراسة؛ لاسترجاع ضابطها، أو حتى التخلُّص منه، حتى لا يصل بكل ما لديه من معلومات إلى (مصر)...

في ذلك الحين، وفي قلب (العريش)، كانت هناك مجموعة من الرجال، تعمل لصالح المخابرات المصرية، أطلقت على نفسها اسم (مجموعة العريش)، وكبَّدت العدو خسائر فادحة، واستمرت تكبده، حتى قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣م، مباشرة، وقامت بعدة عمليات عظيمة؛ لقطع خطوط مواصلات واتصالات العدو، خلال الأيام الأولى للحرب، إلى الحد الذي جعل العدو يكَّثف جهوده وتحرياته، حتى أوقع بالمجموعة، عقب إعلان الهدنة...

كانت المخابرات، في ذلك الحين، قد انتهت من تصفية كل

المعلومات التي تنشدها، من (باروخ زكى مزراحى)، ولم تعد هناك فائدة أمنية تذكر، من استمرار سجنه في (مصر)؛ لذا فقد تم عقد صفقة تبادل مع الإسرائيليين، استعاد فيها الإسرائيليون جاسوسهم، واستعدنا نحن فيها عددًا من أسرانا، وممن عملوا لصالح (مصر) في قلب (سيناء)، وكان من بينهم (مجموعة العريش)....

وعندما يعقد رجال المخابرات مثل هذه الصفقات؛ فإنهم ينظرون إليها باعتبارها وسيلة لاسترجاع رجالنا، وليست تساهلًا مع جاسوس للعدو، فرجالنا لهم الأولوية، مهما كان ثمن استرجاعهم، وهنا يكمن فن السيطرة على المشاعر، وضبط النفس، والثبات الانفعالي...

ولهذا فن مختلف.

***

الثبات الانفعالي... مصطلح ارتبط دومًا، في أذهان الناس، بلعبة الجاسوسية والمخابرات، وصار العديدون يردِّدونه، دون أن يستوعب معظمهم معناه بالضبط، ولقد أدركت معناه العملي، خلال أكثر من عشرين عامًا، تعاملت فيها مع رجال مخابرات محترفين، دون أن ألتقي برجل واحد منهم، يمكن استفزازه أو إثارة غضبه، أو دفعه إلى القيام برد فعل غير مدروس...

وهذا يمكن أن يوضح ما يعنيه مصطلح (الثبات الانفعالي)... فالمصطلح يعنى، باختصار، القدرة على السيطرة على الانفعالات البشرية، مهما كانت الضغوط والمؤثِّرات، ومهما كان الموقف، أو

بلغت صعوباته وتعقيداته، والقدرة على ضبط تردَّد العقل، على إيقاع واحد، تحت أحلك الظروف، بحيث يكون قادرًا، في كل الأحوال، على اتخاذ القرار السليم، في الوقت السليم، دون التأثر بمجريات الأمور القادرة على تشتيت أي عقل...

وبلوغ هذه المرحلة، من الثبات الانفعالي، ليس بالأمر السهل، وليس بالأمر الذي نرثه، أو نولد به، فهو ليس نوعًا من تبلّد المشاعر، وإنما هي قدرة مكتسبة، على فصل المشاعر عن العقل، في اللحظات التي يحتاج المرء فيها إلى قرارات عملية، قد تؤثر في مجرى الأمور من حوله، أو في مستقبل وطنه كله، في بعض الاحيان... والتدريبات اللازمة، للوصول إلى حالة الثبات الانفعالي، كثيرة، وتحتاج إلى صبر وحكمة، وربما واجه بعض من تقدَّموا لاختبارات القبول، في مؤسسات عسكرية، أو في هيئة الشرطة، ذلك الاختبار الخاص بالثبات الانفعالي، عندما يسعى مختبروه لاستفزازه، ودراسة ردود أفعاله، تحت هذا المؤثر المباشر...

فالشخص لحظتها، إما أن يفقد أعصابه، أمام هذا الاستفزاز، أو يتماسك، ويعبر الاختبار بسلام...

أما بالنسبة لرجل المخابرات، فهذا الاختبار الأوَّلي يعد مجرَّد بداية فحسب، إذ أنه، وفور التحاقه بجهاز المخابرات - أي جهاز مخابرات - يبدأ في التدرُّب عمليًا، على اكتساب حالة مرتفعة من الثبات الانفعالي، تؤهله لمواجهة ظروف بالغة الحساسية والخطورة، وعلى نحو مباغت، دون استعداد مسبق

لها؛ إذ أن رجل المخابرات المحترف معرَّض دومًا لمواجهات غير متوَّقعة، وتطورًات غير محسوبة، ولابد له من أن يمتلك القدرة على مواجهتها مباشرة، ودون إضاعة الفرصة...

والتدريب على الثبات الانفعالي لا يتم دومًا على نحو مباشر، وإنما من خلال برنامج تراكمي مدروس، يمر به رجل المخابرات خطوة بخطوة، وأحيانًا دون أن يدرك أنه يمر بجزء من أهم تدريباته...

فهو، في أثناء فترة التدريب الأولى، قد يواصل التدريب حتى ساعة متأخرة للغاية، حتى يشعر بإرهاق شديد، وعندما يغفو قليلًا، يتم إيقاظه بعد ساعة أو ساعتين، وعليه فور استيقاظه، أن يواجه مشكلة ما، ويوجد لها الحلول العملية، في سرعة مناسبة...

هذا لكي يعتاد عقله سرعة الاستيقاظ، تحت أية ظروف، وتحت أية ضغوط...

وفي البداية لا يكون هذا سهلًا، ويكون على العقل ان يبذل جهدًا شديدًا؛ لكي يمكنه الاستيقاظ، والعمل بكفاءة، في ظل هذا الموقف، ولكن مع مرور الوقت، يعتاد العقل هذا، وتهدأ الانفعالات المصاحبة له، وتبدأ أولى خطوات الثبات الانفعالي، وبعدها يتم طلب مشروع ما، مثل رسم طوبوغرافي للمنطقة المحيطة بمركز التدريب، ويكون على المتدرِّب قضاء الليل كله في رسم المشروع، وعند الانتهاء منه، في الصباح الباكر، يتم تقديمه إلى المشرف، الذي يقوم بتمزيقه، دون حتى الاطلاع

عليه، ويطلب إعادته مرة أخرى....

لو حدث هذا مع أي شخص عادى، لتملكه الغضب، وثار على المشرف، وربما رفض إعادة المشروع مرة أخرى، ولكن في حالة الثبات الانفعالي، يواجه رجل المخابرات الأمر في هدوء، ويبدأ في إعادة المشروع...

هذا بالطبع عندما يصبح مؤهلًا لحالة الثبات الانفعالي، التي يكتسبها مع مرور الوقت، وتصبح جزءًا من شخصيته، وسمة من سماته، فلا يعود من السهل استفزازه، أو إفقاده أعصابه، مهما كانت المؤثرات....

الثبات الانفعالي سمة حتمية، لكل رجل مخابرات محترف؛ إذ أن عمليات المخابرات، مهما بلغت دقة إعدادها وتنظيمها، يمكن أن تواجه تطوُّرات مفاجئة، أو مصادفات مباغتة، تضطر ضابط المخابرات إلى الخروج عن الخطة الأساسية، أو العمل على تعديل مسارها؛ لتتفق مع المتغيِّرات، ولو أن رجل المخابرات ارتبك، أو اضطرب، أو فقد قدرته على التحكُّم في انفعالاته، تحت وطأة المفاجأة، لانهارت العملية برمتها، وقد ينهار معها خط دفاعي كبير، في الأمن القومي لوطن بأكمله...

ثم أنه من المحتمل أن يسقط رجل المخابرات، تحت أي ظروف، في قبضة العدو، وعندئذ سيكون عليه استنفار ثباته الانفعالي إلى أقصى حد، حتى يمكنه مواجهة العدو، والحفاظ على أسرار وطنه، وعدم كشف طبيعة مهمته في الوقت نفسه، خاصة وأنه سيواجه

محترفين أيضًا، يجيدون سبل الاستجواب واستخلاص المعلومات، وربما يلجئون إلى وسائل كيماوية، مثل عقار (بنتوثال الصوديوم)، الذي يطلق عليه اسم (مصل الحقيقة)، والذي من سماته انه يضع العقل البشرى في حالة من نصف الوعى، يعجز معها عن ترتيب أفكاره، أو كتمان حقائق أساسية لمهمته، أو إلى وسائل إليكترونية، مثل جهاز كشف الكذب، الذي هو عبارة عن جهاز متعدِّد النتائج، يقيس معدَّلات النبض، والتنفس، وإفرازات العرق، باعتبار أن الكذب يزيد كل منها، على نحو يمكن معه لأي محترف، ان يكشف ما إذا كان المستجوب يذكر الحقيقة، أم أنه يروي حقيقة مختلقة؛ للتغطية على الحقيقة الأساسية...

والتدريب الطويل على الثبات الانفعالي، يجعل رجل المخابرات المحترف، والذي يخوض مواجهات مباشرة، قادرًا على التحكُّم في أعصابه، إلى درجة يعجز معها جهاز كشف الكذب عن إدراك حقيقة روايته، اما عقار (بنتوثال الصوديوم)، فيمكن إلغاء تأثيره، عبر سلسلة من التعامل بجرعات صغيرة منه، عبر مسار عمل رجل المخابرات...

والحديث عن تقنيات الاستجواب، في عالم الجاسوسية، يقود حتمًا إلى الحديث عن تاريخ تقنية التجسُّس.. ولهذا حديث آخر... قادم.

***

(١٠)

تقنية التجسَّس جزء هام للغاية، ويكاد يكون الجزء الأهم، بعد الجاسوس البشرى، في عالم الجاسوسية والمخابرات...

وهو يتطوَّر مع تطوَّر الزمن والتكنولوجيا، ولابد له من أن يسبق التكنولوجيا المتاحة للعامة، وحتى للخاصة، بخطوتين على الأقل، وأن يسبق ما لدى العدو من تقنية، ولو بخطوة...

فقديمًا كانت تقنية التجسَّس ببساطة عصوره الأولى، ففي زمن الفراعنة، كانوا يحلقون شعر عبد ما، ويوشمون الخطابات والأوامر السرية على رأسه، ويتركون شعره ينمو من جديد، ثم يرسلونه بالأوامر إلى القادة، الذين يقومون بحلاقة شعره، ويقرأون الرسالة الموشومة على رأسه، ثم يقتلونه؛ لمنع الرسالة من الوصول إلى العدو، تحت أية ظروف..

وكانت تلك التقنية البسيطة ناجحة تمامًا في زمنها، حتى تم كشف أمرها، فلم يعد استخدامها ممكنًا... وفي زمن الرومان، ابتكروا العصا المجوفة، التي توضع داخلها الرسالة، المكتوبة على رقعة من الجلد، والتي تحوي بيانات ومعلومات هامة، وأحيانًا دون أن يدرك حاملها هذا، وإنما يدرك فقط أنه عليه تسليمها لجهة بعينها، أو شخص بعينه...

أما في الحرب العالمية الاولى، فقد بدأت الأمور تتطوَّر، وخاصة مع وجود آلات التصوير، التي كان يتم إخفاؤها في حقائب السفر، أو جدران المنازل...

ثم تطوَّرت الأمور في الحرب العالمية الثانية، التي ظهر فيها الميكروفيلم إلى الوجود، بحجمه الصغير الدقيق، مع آلات التصوير الصغيرة، والتي كانت تحفة التجسَّس آنذاك، من حيث القدرة على إخفائها في علب السجائر والقدّاحات، وتصوير المنشآت السرية بوساطتها، على ميكروفيلم دقيق، يمكن إخفاؤه في زر معطف، أو كعب حذاء، أو بطانة حقيبة يد صغيرة، أو على ظهر طابع بريد، كما حدث في قضية (سوزانا)...

وبعدها ظهر التصوير الرقمي، الذي حوَّل الميكروفيلم إلى سلعة شعبية، بحيث صار من الممكن الآن، لأي مستهلك عادي، شراء أفلام وكاميرات الميكروفيلم، من متاجر التصوير الفوتوجرافي، بأسعار زهيدة للغاية...

وعندما ظهر التصوير الرقمي في البداية، لم يكن متاحًا للأشخاص العاديين، وإنما كان تقنية استخباراتية فريدة، يستخدمها الجواسيس ورجال المخابرات فحسب، قبل أن تخرج للعامة، بدقة وضوح محدودة، سرعان ما تطوَّرت، لتبلغ حدًا مدهشًا، يعلم الله سبحانه وتعالى وحده كم ستبلغ مستقبلًا...

والحديث عن استخدامات التصوير في عالم المخابرات والجاسوسية وجمع المعلومات، يقود إلى الحديث عن التصوير

الجوي؛ لدراسة أرض المعركة، والذي بدأ استخدامه خلال الحرب العالمية الثانية، من خلال آلات تصوير، مثبتة أسفل طائرات، لديها القدرة على التحليق عاليًا، وعلى التقاط الصور في سرعة كبيرة، تتناسب وسرعة الطائرة نفسها، كما فعلت (اليابان)، قبيل هجومها على ميناء (بيرل هاربور) الأمريكي، في بدايات الحرب العالمية الثانية، حيث التقطت طائراتها صور الأسطول الأمريكي هناك، وحدَّدت أهدافها، قبل بدء الهجوم....

وفي ذلك الزمن، لم تكن السرعات العالية لآلات التصوير وعدساتها متاحة للعامة، بل ولم يكن فلاش التصوير، المعروف حاليًا، متاحًا على الإطلاق، بل كانت آلات التصوير تستخدم مصابيح خاصة، تنفجر مع كل لقطة، ويتحتَّم على المصوِّر المحترف حمل كمية كبيرة منها، لاستخدامها مع كل صورة، ثم جاء الأمريكي (هارولد ادجرتون)، فاخترع الفلاش الإليكتروني، الذي يمكن أن تتكرَّر إضاءة مصباحه، لعدد كبير من اللقطات، دون الحاجة إلى تغييره، وابتكر أيضًا نظامًا صوتيًا، يطلق إضاءة الفلاش، مع أي صوت مرتفع، وأمكنه بهذا تصوير رصاصة، وهي تشق ورقة من أوراق اللعب (الكوتشينة)، قبل أن تمضي في طريقها...

ومع ظهور الانترنت، الذي كان في البداية وسيلة عسكرية، محدودة الاتصال، وغير متاحة للعامة، ثم صار وسيلة تواصل اجتماعي متاحة للجميع، تطوَّر فن إرسال الصور والمعلومات،

وصار بإمكان الجاسوس إرسال ما لديه، وقتما يريدً، وإلى حيث يريد، عبر شبكة الانترنت.... ولكن، ولأن تقنية التجسَّس ليست حكرًا على جهاز مخابرات دون الآخر، فقد بدأت حرب إليكترونية رقمية جديدة، في عالم الجاسوسية، مما دفع البعض إلى ابتكار تقنية تعرف باسم (ستينوجرافي) (Stenography)، أو الصورة المختفية داخل صورة أخرى، بحيث لا يمكن رصدها، إلا لو تمت معرفة الصورة الأم بالتحديد، وفحصها عبر تقنية أخرى مضادة، ولكن الصورة الرقمية لها خصائص تختلف عن الصورة الفيلمية العادية، من حيث أنها في الأساس مجموعة من الأرقام والمعادلات الرياضية الرقمية، التي تضع صورة على الشاشة، لذا فمن الممكن دس صورة أخرى، هي أيضًا عبارة عن معادلات رقمية، داخل الصورة الأم، كما يمكن تشفير معادلات الصورة الجنينية، داخل معادلات الصورة الأم، بحيث تصعب رؤيتها، حتى ولو تم إنجابها، دون معرفة الشفرة الأصلية لها، مما ادى بالتالي إلى السعي لابتكار برامج شديدة التطوُّر؛ للتعامل مع الشفرات المختلفة، ومحاولة حلِّها وفك رموزها، ولكن حرب التكنولوجيا الحديثة، جعلت الاطراف الاخرى تبتكر البرامج المضادة، التي تصنع شفرات شديدة التعقيد، بحيث يستغرق فك رموزها وقتًا طويلًا، يكفي لكي تؤدي الشفرة دورها، وتنقل معلومات، تتم الاستفادة بها، قبل التوَّصل إلى فك الشفرة الأولى، في نفس الوقت الذي تكون فيه البرامج الرقمية الدقيقة،

قد ابتكرت شفرة ثانية، وهكذا...

وفي عالم المخابرات والجاسوسية الآن، برامج رقمية شديدة التطوُّر، لديها القدرة على ابتكار شفرة خاصة لكل مرة إرسال، بحيث لا تتكرر الشفرة الواحدة مرتين، فيصير التعامل مع الصور الجنينية عسيرًا، ولكن هناك برامج أخرى، تسعى لإيجاد نظام موَّحد، يمكنه كشف كل الشفرات، على نحو واحد...

وهنا يعيدنا ذلك الجزء من تقنية التجسَّس إلى الجاسوس البشرى، الذي لو امكنه نقل برنامج التشفير الرقمي إلى الطرف الآخر، فسيحسم حرب التكنولوجيا التشفيرية بخبطة واحدة...

والتصوير السري لم يتوقّف عند التقاط صور الأشياء، التي يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة، وإنما تطوّرت تقنية التصوير، في هذا العالم الممتلئ بالغموض والأسرار، وحوت تقنيات أخرى، تطوَّرت أيضًا مع الزمن...

ولهذا حديث آخر.

***

كل شيء في عالم الجاسوسية يتطوَّر في سرعة...

وكل تقنية من تقنيات التجسَّس، تدخل في سباق سرعة من نوع آخر، إذ يتحوَّل الأمر، من تطوير تقني عادي، إلى حرب تقنية، يفوز فيها الأسرع، والأكثر قدرة على الابتكار...

وتقنية التصوير، الذي يدرك كل مصوِّر محترف، أو حتى مصوِّر عادي، كم صارت تتطوَّر في سرعة، في هذا الزمن، كانت

مضمار حرب طاحنة، في عالم الجاسوسية والمخابرات...

ولقد ساعد تطوُّر التقنيات الأخرى، على سرعة تطوُّر تقنية التصوير أيضًا؛ إذ تحوَّل التصوير الجوي، الذي كان يتم بوساطة طائرات ذات قدرة على الارتفاع عاليًا، إلى تصوير رقمي، يتم بوساطة الأقمار الصناعية، التي تجوب الفضاء الخارجي، المحيط بالأرض، طوال الوقت تقريبًا، ويمكنها رصد أية بقعة فيه، بدقة وضوح عالية، وإرسالها في لحظات إلى حيث يمكن فحصها وتحليلها، واستخلاص المعلومات الممكنة منها...

والأمريكيون يبالغون كثيرًا، في وصف قدرة أقمارهم الصناعية على التصوير الدقيق، حتى أنهم أعلنوا، عقب سقوط نظام (صدَّام حسين) في العراق، أنهم قادرون، مع دقة التصوير في أقمارهم الصناعية، على معرفة نوع ولون الملابس الداخلية للرئيس، ثم فشلت كل تقنياتهم في العثور على الرئيس نفسه، إلا عبر وشاية من أحد المقربين له...

ولكن هذا لا يمنع من أنهم قد أدخلوا تطوُّرات كبيرة على نظم التصوير والرصد، في أقمارهم الصناعية، بعد الخطأ الذي وقعوا فيه، في حرب الخليج الأولى؛ عندما رصدوا منصات صواريخ وسيَّارات مدرعة، في صور أقمارهم الصناعية، وبعد أن قاموا بقصفها، بصواريخ تساوي الملايين، كشفوا أنها لم تكن سوى هياكل خشبية، مصنوعة بدقة؛ لخداع صور الأقمار الصناعية بالتحديد...

فقد أضيفت تقنية التصوير بالأشعة تحت الحمراء، التي تستخدم في رصد الأهداف الليلية، وتقنية أخرى، أشبه بتقنية الرصد بالموجات فوق الصوتية؛ لتحديد الاهداف، التي تم إخفاؤها أو تمويهها... ولو حاولنا متابعة تقنية التصوير في عالم الجاسوسية الآن، فسنجد أنها قد بلغت حدًا أشبه بالخيال العلمي، حيث يمكن الآن تصوير الأشخاص، الذين يجلسون داخل حجرات مغلقة، إلا لو حصنوا جدران تلك الحجرات بألواح من الرصاص، الذي لا تخترقه الأشعة بأنواعها، أما آلات التصوير نفسها، فقد صارت في حجم رأس الدبوس، ويمكن اخفاؤها في طرف قلم، أو أرقام ساعة يد، او حتى في أزرار قميص عادى، وانتقلت تقنية التصوير من التصوير الضوئي، إلى التصوير الرقمي، إلى التصوير ثلاثي الأبعاد (الهولوجرام)، والذي يستخدم نوعًا من أشعة الليزر، لرصد الأجسام من كل الزوايا، وعمل صورة مجسَّمة لها، تظهر كل جوانبها في وضوح...

والمتابع لأفلام (جيمس بوند)، منذ نهايات الخمسينات، سيفاجأ بأن كل التقنيات، التي كانت تبهر المشاهد في ذلك الحين، وتمنحه صورة خرافية عن اجهزة المخابرات، لم تصبح فقط حقيقة تقنية في القرن الحادي والعشرين، بل صارت أيضًا متاحة للمستهلك العادي، وبأسعار في متناول اليد، فالمتابع للتسوُّق عبر شبكة الانترنت، سيجد أجهزة اتصال دقيقة، في ساعات يد صغيرة الحجم، ومزوَّدة أيضًا بكاميرا رقمية، يمكن استخدامها

لعمل اتصال مرئي شديد الوضوح، وسيجد كاميرات تصوير شديدة الدقة، مخفاة في مناظير شمسية، وأحزمة، ولعب أطفال، وحتى في دبوس صغير، يوضع على الصدر...

كل هذا صار تقنية متاحة للمستهلك العادي، أما في عالم المخابرات والتجسَّس، فالتقنية تفوق هذا بكثير، إذ صار هناك زجاج عادي المظهر، يمكن استخدامه في منظار طبي عادي، ولكنه يحوي موَّصلات شديدة الصغر والدقة، تنقل كل ما يراه الجاسوس، إلى مستقبل يجلس في منطقة ليست بالقريبة، بحيث يتحوَّل المنظار الطبي، عادى المظهر إلى جهاز رصد من الدرجة الأولى؛ إذ أن تقنية المنمنمات (نانوتكنولوجى)، قد جعلت هذه الأشياء دقيقة للغاية، وربما تصبح ميكروسكوبية أيضًا، في المستقبل القريب، بحيث تتحوَّل تقنية الرصد، في زجاج المنظار الطبي، إلى تقنية أدق، يمكن غرسها في عدسات لاصقة بسيطة...

هذا التطوُّر أضاف عبئًا كبيرًا على عالم المخابرات، وخاصة على ما يسمى بالشق السلبي منه، والمسئول عن محاولة منع العدو من الحصول على المعلومات، إذ صار السباق كله يتركَّز على إخفاء المعلومات السرية، حتى عن الأعين، والبحث عن وسائل تقنية جديدة؛ للكشف عن أجهزة الرصد بالغة الدقة والصغر....

وحرب التكنولوجيا، والتكنولوجيا المضادة، والتكنولوجيا المضادة للتكنولوجيا المضادة، صارت جزءًا أساسيًا من عالم المخابرات والجاسوسية، بل وانتقلت حتى إلى الحياة اليومية

المعتادة، فهناك أجهزة رادار؛ لرصد السيارات المسرعة، وأجهزة تكشف أجهزة الرادار، فور الدخول في مداها، وأجهزة أخرى تكشف أجهزة كشف الرادار، وهناك أجهزة دقيقة للتنصّت، وأجهزة للشوشرة على أجهزة التنصُّت، وأجهزة تكشف وجود أجهزة التنصُّت، وتزيل الشوشرة...

وتستمر حرب التقنية... والجاسوس المحترف، في زمننا هذا، لم يعد يحمل كتابًا للشفرة، أو حبرًا سريًا، أو ميكروفيلمًا، وإنما صار يحمل تقنية شعبية معتادة، تحوى داخلها تقنية جاسوسية متطوِّرة؛ فهو قد يحمل هاتفًا محمولًا، من طراز عادي، ولكنه يحوي برنامج تشفير شديد التطوُّر، بحيث يمكنه أن يرسل عبره أية معلومات، من خلال رسالة نصية عادية، ولكنها تخضع للتشفير فور كتابتها، بحيث لا يمكن فهم محتواها، حتى ولو تم تعقُّبها، إلا من خلال برنامج مماثل، في هاتف المستقبل، وقد يحمل وحدة معلومات صغيرة (فلاش ميموري)، بريئة المظهر، ولكن لا يمكن إخراج المعلومات المخزَّنة عليها، إلا عبر برامج خاصة، أو تحت الاشعة دون الحمراء، أو فوق البنفسجية، كما حدث مع جاسوس تم الإيقاع به في (مصر)، عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير.... والحديث عن تقنية التجسُّس يطول، مع ذلك الكم الهائل من التقنيات، التي يتم ابتكارها في كل لحظة؛ لتسهيل عملية التجسُّس وجمع المعلومات، والتصوير ليس التقنية الوحيدة، التي يتم تطويرها يوميًا، وإنما هناك أيضًا

التقنية الصوتية، و....

لهذا حديث طويل آخر.

***

التنصُّت وسيلة شديدة الأهمية والفاعلية، في عالم الجاسوسية والمخابرات، ولقد كانت أوَّل وسيلة مستخدمة، لجمع المعلومات، منذ أزمنة الصراع الأولى، إذ كان التنصُّت بالأذان المجردَّة، على أحاديث الأعداء، هو الوسيلة الوحيدة لكشف أسرارهم، وسبر أغوارهم، وتحديد نواياهم، قبل أن تنتقل الأحاديث إلى الأفعال...

ومنذ قديم الزمان، كان الملوك يصنعون ممرات سرية في قصورهم، وفتحات خفية في حجرات الوزراء والمستشارين، وحتى الجواري والمحظيات؛ بهدف التنصُّت على أحاديث الجميع، كجزء من درء مؤامرات القصور، التي لم يخل قصر في التاريخ كله منها...

ولقد استمر استخدام الأذن المجردَّة، كوسيلة للتنصُّت، لقرون وقرون، مع اختلاف الوسائل وتطوُّرها، ففي قصور الرومان، كانوا يمدون أنابيب خاصة في الجدران، تبدأ من حجرة الامبراطور، وتنتهي بفتحات في معظم جدران حجرات القصر، داخل تجويف في نقوش جدار، أو فوهة أحد تماثيل الحجرات، بحيث لا تكون ظاهرة للأعين، ولكنها تنقل كل الأحاديث، إلى أذني الامبراطور مباشرة...

ولقد تم استخدام الجواسيس أيضًا، للإنصات لما يقوله الآخرين، والجواسيس في تلك الحالة كانوا من الخدم والعبيد، الذين يتم تجنيدهم، كوسيلة للتنصُّت ونقل المعلومات، وكشف أسرار الآخرين...

ثم تطوَّر الزمن، وصارت هناك وسائل أكثر تقدَّما، مع اختراع الراديو، والفونوجراف، والميكروفونات، وبدأ عصر جديد في دنيا التنصُّت، حيث بدأ استخدام الميكروفونات، وأجهزة الفونوجراف؛ لتسجيل الأحاديث، وإعادة سماعها، وتحليل فحواها فيما بعد...

ولكن الميكروفونات كانت كبيرة الحجم، واجهزة الفونوجراف ضخمة، مما كان يستلزم الحفر في الجدران؛ لزرع الميكروفونات، التي يمتد منها سلك كبير، إلى جهاز فونوجراف، يتم وضعه في حجرة مجاورة...

كل هذا كان يضعف من موقف الجاسوس، الذي يحتاج إلى عمل شاق، واماكن متاحة؛ للقيام بعملية التنصُّت، وتسجيل الأحاديث...

وطوال سنوات، حاول عالم الجاسوسية والمخابرات- كالمعتاد- أن يسبق عالم العامة بخطوة أو خطوتين، وبدأت محاولات لابتكار ميكرفونات أصغر حجمًا، وأجهزة تسجيل، يمكنها استخدام اسطوانات صغيرة، بدلًا من الاسطوانات العادية كبيرة الحجم، إلا أنه، وعلى الرغم من نجاح تلك

الابتكارات، ظلَّت الميكروفونات سلكية، يتحتم زرعها في الجدران، وتوصيلها بواسطة الأسلاك، إلى اجهزة التسجيل، التي يتحتم أن تكون قريبة من موضع التنصُّت نسبيًا...

وفي الحرب العالمية الثانية، أمكن ابتكار النموذج الأوَّل من الميكروفونات اللاسلكية، والتي يمكنها بث الإشارة إلى مسافة محدودة، وهذا في عالم الجاسوسية والمخابرات فحسب، إذ لم تتح للعامة في ذلك الحين...

وعلى الرغم من أنها ظلت كبيرة الحجم نسبيًا، إلى أن قدرتها على إرسال الأحاديث لاسلكيًا، ساعدت على زرعها أسفل موائد الاجتماعات، أو وضعها تحت أريكة أو فراش، او حتى اخفائها أسفل أحد مقاعد سيارة، ولكن المدى الفعَّال لها كان قصيرًا، ويحتم وجود أجهزة التسجيل قريبة، مما يعرِّض الجاسوس ومهمته لخطر بالغ...

ثم تطوَّرت أجهزة التنصَّت أكثر وأكثر، في فترة الستينات، وتم ابتكار أشرطة الكاسيت، في اجهزة المخابرات، قبل طرحها للعامة كالمعتاد، وأصبح حجم الميكروفونات أصغر، وقدرتها على البث أعلى، كما صارت أشرطة الكاسيت المستخدمة في عالم التخابر، صغيرة نسبيًا، عن مثيلاتها، في عالم التسجيلات الصوتية...

ولكن حتى هذا لم يرض خبراء عالم الجاسوسية بشكل كاف... وفي أفلام (جيمس بوند)، شاهدناه يتحدَّث عبر ساعته، او من خلال زجاجة لوسيون ما بعد الحلاقة، أو أي جهاز آخر

صغير، وكانت كلها، في ذلك الحين، أحلامًا، يتمنى خبراء عالم المخابرات تحقيقها، إلى أنه لم يمض وقت طويل، حتى أطلَّت السبعينات، وأطل معها تطوُّر كبير، في عالم التنصُّت، إذ صار من الممكن زرع أجهزة نقل الصوت، في قدَّاحات كبيرة، أو مذياع سيارة، أو ساعة حائط، وصار من الممكن أن تبث الأصوات لمسافة ثلاثمائة متر كاملة، مما منحها- آنذاك- فعالية كبيرة، في مضمار كشف المعلومات... ولكن أجهزة المخابرات المضادة طوَّرت وسائل أخرى، يمكنها كشف أي بث صوتي، ينطلق من مكان يفترض أن يكون سريًا، ومن خلال تلك الأجهزة، أمكنها كشف أجهزة التنصُّت، والتخلُّص منها، وهنا قامت الأجهزة الأساسية بإلغاء فكرة البث اللاسلكي، واستخدمت فكرة التسجيل الفوري للأحاديث، خاصة وأن أجهزة التسجيل صارت أصغر حجمًا، وأشرطة التسجيل صارت أكثر دقة...

ومع مطلع التسعينات، كانت أجهزة التنصُّت قد صارت دقيقة، وصغيرة، نسبة إلى ما كانت عليه، في الحرب العالمية الثانية، إلا أنها مازالت واضحة للعين المجرَّدة، وأكثر وضوحًا للعين الفاحصة الخبيرة، وصارت المشكلة ليس في استخدامها، ولكن في إيجاد المكان المناسب لزرعها...

ومع تطوُّر التكنولوجيا، ابتكرت أجهزة المخابرات ما يعرف باسم (مسدس الميكروفون)، وهو ميكروفون شديد الحساسية، يحيط به قمع من الألياف الصناعية، بحيث يمكن توجيهه إلى

هدف واحد من بعيد، دون أي تداخل من أصوات أخرى، وكان هذا الابتكار ناجحًا، في التنصُّت على أحاديث أشخاص يقفون وسط مجاميع، أو في مكان عام...

ولم يكن هذا يكفي بالطبع؛ فمعظم الأسرار الحقيقية، يتم تداولها في حجرات مغلقة، أو خلف سواتر، لذا كان من الضروري البحث عن وسائل أكثر تطورًا...

ومن هنا كان ابتكار ميكروفون الليزر، وهو عبارة عن شعاع، يطلق من جهاز خاص، نحو جدار تدور خلفه أحاديث سرية، فيرتد حاملًا ذبذبات الأصوات داخل الحجرة، ويقوم كمبيوتر خاص بتنقية تلك الأصوات، وإعادة تكوينها، لتتحوَّل إلى أصوات مسموعة واضحة...

ومن أهم سمات ميكروفون الليزر، أنه من الممكن استخدامه من مسافات بعيدة للغاية، ومع أبواب وجدران مغلقة بمنتهى الإحكام...

وفي القرن الحادي والعشرين، ومع تطوُّر تكنولوجيا المنمنمات، صار سمك شعاع الليزر، في ميكروفون الليزر، أصغر بواحد على عشرة آلاف، من سمك شعاع الليزر القديم، مما جعله أكثر قوة ودقة، في نفس الوقت الذي صار من الممكن فيه صنع أجهزة تنصُّت شديدة الفاعلية، في حجم ذرة رمل...

وسباق التكنولوجيا لن يتوَّقف بالطبع، وخاصة في عالم الجاسوسية، الذي طوَّر كل شيء، حتى وسائل القتل نفسها....

ولنا حديث آخر، في هذا الشأن.

***

الاغتيالات لعبة من ألعاب أجهزة المخابرات، منذ زمن بعيد، وإن اختلف كل جهاز، في كل دولة، في أيديولوجيته الخاصة بهذا الشأن...

فهناك أجهزة مخابرات تراه ضرورة، ووسيلة ناجحة وسريعة؛ لحسم كثير من الأمور، وانهاء المشكلات على نحو حاسم وسريع، وربما لتصفية خصومها ومعارضيها أيضًا، مثل المخابرات السوفييتية السابقة(KGB)، والمخابرات الليبية السابقة، والمخابرات الإيرانية عقب ثورة (الخميني)، والمخابرات الإسرائيلية بالطبع، والتي لا تلجأ إلى لعبة الاغتيالات فحسب، وإنما تعتبرها جزءًا من قوتها، وعمادًا أساسيًا لسمعتها وسطوتها، في العالم أجمع...

والمخابرات الفرنسية، في زمن احتلال (الجزائر)، مارست أبشع وسائل القتل والاغتيال؛ في محاولة لقمع المقاومة، فقد كانت تلقى خصومها أحياءً من الطائرات، على ارتفاع شاهق، أو تدفنهم أحياءً، باعتبار أن الموت في حد ذاته لا يخيف من يقاوم احتلال وطنه؛ لذا فلابد وان تخيفه وسيلة قتل بشعة... والمخابرات الليبية، في زمن (القذافي)، كانت تحاول تقليد المقاومة الفلسطينية في بداياتها، وفرض إرادتها على العالم، من

خلال إرهابه وترويعه، ولم تتردَّد في صنع كوارث رهيبة، فقط لكي تتخلص من خصم واحد أو خصمين، وكذلك فعلت المخابرات الإيرانية، مع حماس واندفاع سنوات الثورة الاولى، وكوسيلة لينتقم (الخميني) من كل من آذوه في حياته...

أما المخابرات السوفيتية والإسرائيلية، فهما تستحقان دراسة شاملة في هذا الشأن بحق...

فعقب الثورة البلشيفية، في أكتوبر ١٩١٧م، بدأ البلاشفة في بسط نفوذهم على البلاد بالقوة، وبأساليب تتعارض تمامًا مع ما خرج الشعب ليثور من أجله، ولكي تفرض هذا النفوذ، على شعب ثائر منفلت، أسقط البلاشفة كل قواعد الحرية والديمقراطية والعدالة، واستخدموا كل نظم القهر والقمع والترويع... ومع شعب ثار من أجل الحرية، لم يكن هذا سهلًا، لذا فقد لجأ البلاشفة إلى اعتقال كل المعارضين لفكرهم ونظمهم، وكل من يخالف رأيًا واحدًا من أراءهم، أو حتى يبدي اعتراضًا عليه، وبدأت القطارات في نقل الآلاف، من شتى أنحاء (روسيا)، إلى (سيبيريا)، حيث الصقيع القارص، الذي تنخفض درجات الحرارة فيه، في فصل الشتاء، إلى ما يقارب الأربعين درجة تحت الصفر...

ولكن كل وسائل القمع والإرهاب والترويع، لم تستطع منع المعارضين من الفرار إلى (أوروبا)، بحثًا عن الحرية، وسعيًا إلى تقليب العالم على النظام الشيوعي الجديد...

ولم يرض البلاشفة بهذا، فقد صوَّر لهم تعنُّتهم، أن فرار معارض واحد منهم، يعني فشلهم في فرض إرادتهم ومن هنا بدأت لعبة الاغتيالات الخارجية...

لم تكن الاغتيالات الداخلية مشكلة بالنسبة إليهم، إذ كان أي ضابط، يتبع النظام البلشيفي، يمتلك السلطة والصلاحية، لإطلاق النار على رأس أي معارض يقع في قبضته، في وضح النهار، ووسط شارع مزدحم، دون أن يجرؤ مواطن واحد على الاعتراض؛ حتى لا يلقى المصير نفسه...

أما الاغتيالات الخارجية، فأمرها مختلف؛ إذ أنها تتم في دول أخرى، لا يمكنك أن تمارس فيها هذه الوحشية الوقحة، دون أن تنالك يد القانون...

وهذا بدأ ابتكار وسائل القتل والاغتيال الخفية...

في البداية، كانت اللعبة كلها تدور حول ما عرف باسم (مسدس الرصاصة الواحدة)، وهو وسيلة خفية، تتخذ من الخارج شكل قدَّاحة بسيطة، أو إصبع طلاء شفاه، أو يد حقيبة جلدية، ولكنها تحوي داخلها رصاصة واحدة، تتناسب مع حجمها الصغير، مع زناد مخفي في قاعدة إصبع طلاء الشفاه، أو مشعل القدَّاحة، او مقبض الحقيبة الجلدية، وتكفي ضغطة واحدة على ذلك الزناد؛ لتنطلق الرصاصة نحو الهدف، وتصيبه في مقتل، من مسافة قريبة...

ولقد حققت تلك التقنية نجاحًا كبيرًا، لفترة طويلة من

الزمن، تم خلالها تصفية عدد كبير من المعارضين، قبل أن تنكشف اللعبة، وتصبح غير قابلة للتكرار، وهنا انتقل خبراء الاغتيالات، في المخابرات الروسية، إلى السم، كوسيلة للخلاص من المنشقين، وبدأوا في ابتكار أنواع وتركيبات شديدة التعقيد من السموم، بحيث يصعب إيجاد ترياق مناسب لها، قبل فوات الأوان، ولأن اللعبة الكيميائية لم تكن معضلة كبيرة، فقد بقيت مشكلة التقنية اللازمة، لدس السم للمنشق، دون أن ينتبه إلى هذا... في البداية كانت اللعبة تعتمد على إغواء المنشق، بوساطة عميلة بالغة الحسن، تدفعه إلى محاولة التقرب منها، ودعوتها إلى كأس من الشراب، وفي لحظة هيام، تضغط العميلة زرًا خفيًا في خاتمها، فتنفتح فجوة صغيرة فيه، لتصب السم المختزن داخله، في كأس المنشق...

وبعدها تم ابتكار كرة صغيرة شفافة، تحوي أربعة أنواع من السموم، في تجاويف دقيقة، يتم إلقاؤها في كأس المنشق، فتنتشر السموم الأربعة في شرابه، في سرعة كبيرة، ثم تذوب الكرة نفسها فيما بعد، خلال ثوان قليلة...

والهدف من وجود أربعة أنواع مختلفة من السموم، كان لظهور أعراض غير نمطية على المنشق، تمنع تشخيص حالته، ومنحه العلاج المناسب، مهما كانت مهارة وحنكة من حوله...

ولقد برع السوفييت في لعبة مزج السموم هذه، واستعانوا فيها بكل ما أمكنهم الحصول عليه، من سموم صينية، وهندية،

ويمنية، وبنغالية، بالإضافة إلى سموم تخليقية، صنعوها في معاملهم، من مزج بعض العقاقير الضارة ببعضها البعض؛ لضمان تأثيرات جديدة بالغة السرعة...

والسوفييت أيضًا هم من اخترعوا مسدس السم، وهو أشبه بمسدس الطلقة الواحدة، ولكنه يحوى إبرة رفيعة، مغموسة في سم قوى فعَّال، يكفي ان تنطلق، فتصيب أي جزء من جسد الضحية، فيسرى السم في عروقه على الفور، ويلقى مصرعه في لحظات، وهم أيضًا من اخترعوا مظلة السم، التي اغتالوا بها أحد كبار المنشقين، في وضح النهار، في أكبر ميادين (لندن)، إذ كانت قاعدتها أشبه بسن محقن رفيع، وفي مقبضها زناد خاص، ما أن يغرس حاملها ذلك السن، في أي جزء من جسد المنشق، حتى يضغط الزناد الخفي في مقبضها، فتنطلق، عبر فتحة السن الدقيقة، كرة ميكروسكوبية، تحوى عدة فجوات، في كل منها سم الخردل، وتستقر في جسد المنشق، ثم تبدأ في بث السم داخله، في بطء وانتظام، حتى يسقط فجأة، ويحار الكل في تشخيص حالته، ويلقى مصرعه، قبل معرفة سبب وفاته...

هذا مثال لوسائل وتقنية القتل والاغتيال، في عالم المخابرات السوفييتية، أما المخابرات الإسرائيلية، فلها حديث آخر... طويل.

***

المخابرات الإسرائيلية بفرعيها (الموساد) و(أمان)، لها تاريخ

طويل في لعبة الاغتيالات، والتي صارت أحد أبرز سماتها، وسر سمعتها، التي تحرص على تقويتها، وتأكيدها، ربما لإرهاب كل معارضيها، في كل مكان في العالم، فالإسرائيليون، ومنذ زمن (تيودور هرتزل)، مؤسس الحركة الصهيونية، يؤمنون بمبدأ فتح الطريق، أمام طموحاتهم وتفوّقهم، بأي ثمن كان، بما في ذلك الجنس، والرشوة، والتهديد والوعيد، ووصولًا إلى الاغتيالات، لو لزم الأمر...

والاغتيالات في شريعة المخابرات الإسرائيلية، ليست لتحقيق الأهداف فحسب، ولكنها للانتقام أيضًا، وفقًا لما أسموه بسياسة دفع الثمن، وهم لا يقتنعون بمبدأ العين بالعين والسن بالسن، وإنما يقول مبدأهم أنك لو مسست سنًا من أسنانهم، حطموا فمك كله، أما لو اقتلعت عينهم، فهم يقتلعون رأسك كله، وهذا لكي تفكّر ألف مرة، قبل أن تمس سنًا من أسنانهم...

ولقد نفذ الإسرائيليون مبدأهم هذا، عقب عملية (ميونخ)، والتي قتل فيها الفريق الأوليمبي الإسرائيلي كله، إذ قرّر (الموساد) تعقّب كل مخططي ومنفذي العملية وأسرهم، والقضاء عليهم عن بكرة أبيهم... ولقد استغرقهم الأمر سنوات، نفذوا فيها عمليات اغتيال وحشية، في أماكن مختلفة من العالم، وعلى نحو سافر، أثبتوا به نزعتهم الانتقامية، وأساليبهم الوحشية، وتجاهلهم لكل القوانين والأعراف الدولية، وموصلين رسالة إلى العالم أجمع تقول باختصار: «احذرونا»...

وعندما بدأ (العراق) مشروعه النووي، شعر الإسرائيليون بخطر امتلاك دولة عربية قريبة لسلاح نووي، فأطلقوا مخابراتهم لتعقَّب كل من وراء المشروع، ووقع اختيارهم على العالم المصري (يحيى المشد)، الذي يتولى أمر اول مفاعل نووي عراقي (أوسراك)، والذي تم إيفاده إلى (فرنسا)، من قبل الحكومة العراقية، للتعاقد بشأن بعض الأجهزة المطلوبة، لإنشاء وتشغيل المفاعل...

المشكلة أن العراقيين لم يولوا الأمر الاهتمام نفسه، الذي أولاه إياه الإسرائيليون، فلم يسعوا لتوفير الحماية والحراسة الكافيين للعالم المصري، واكتفوا برجل أمن واحد، والأسوأ أن القواعد البيروقراطية لم تسمح له بالإقامة في الجناح المجاور للعالم المصري؛ نظرًا لصغر رتبته، والاعتمادات المالية الخاصة بمهمته... وهناك روايات عديدة، تروى عن كيفية الوصول إلى جناح (يحيى المشد) واغتياله، ولكن جثته تم العثور عليها مذبوحة، داخل جناحه الخاص، ولكي يتم اغتياله معنويًا، وإغلاق الملف في سرعة، تم ترك بضعة أشياء نسائية في جناحه؛ للإيحاء بأن مغتاله هو أحد القوادين، بعد أن اصطحب عاهرة محترفة إلى حجرته، إلا أن نشأة (يحيى المشد) وتاريخه، كانا يتعارضان مع هذا في شدة، كما أنه من غير المنطقي، أن يتولَّى عالم معروف مهمة بهذه الخطورة، ثم يتوَّرط في اصطحاب عاهرة إلى جناحه الخاص، في فندق شهير، أضف إلى هذا أن الدافع لاغتياله كان يتوافر لدى (الموساد)، بأكثر مما يتوافر لدى قوَّاد عادي، كل

ما يعنيه هو الفوز ببضعة فرنكات...

وحتى يومنا هذا، لم يعترف (الموساد)، أو تعترف أية جهة إسرائيلية رسمية، بعملية اغتيال (يحيى المشد)، وكالمعتاد في أعمال المخابرات، لم تنجح أية جهة، في اثبات تورّط (الموساد) في عملية الاغتيال، من قريب أو بعيد، وبقيت حقيقة اغتيال عالم مصري، يشارك في مشروع بناء المفاعل العراقي، الذي قام الإسرائيليون بقصفه بطائراتهم بالفعل؛ لمنع أية دولة عربية من تطوير أو إنتاج سلاح نووي...

ولقد تكرَّر الأمر مع عالم مصري آخر، عمل على تطوير موجات الميكروويف، في قدرتها على التعامل مع أقمار التجسُّس الصناعية، بحيث تمنعها من التقاط أية صور للمنشآت الحيوية، بل ويمكنها أن تسحب منها كل ما التقطته من صور، وهو العالم المصري (سعيد سيد بدير)، ابن الفنان الراحل (سيد بدير)، والذي تم العثور عليه قتيلًا، وقيل أنه قد حاول الانتحار بالغاز، ثم طعن نفسه، قبل أن يقفز من النافذة، مما يجعلك تستعيد مشهدًا من أحد الأفلام الكوميدية، عندما اتهم شخص بطعن غريمه في الحمام، فدافع محاميه بأن أرضية الحمام كانت زلقة، فسقط الرجل فوق خنجره، ولقي مصرعه، وعندما اعترض المدعي العام بأن الرجل قتل بخمس طعنات، أسرع المحامي يجيب بأن الأرضية كانت زلقة للغاية... المشهد في الفيلم كان هزليًا تمامًا، ولكن تبرير مقتل (سعيد بدير) كان أكثر هزلية...

والمخابرات الإسرائيلية تعتمد، في تخطيط وتنفيذ عمليات الاغتيالات، على ثلاثة أمور رئيسية...النساء، والخيانة، والتكنولوجيا... ولديها معرفة كافية بكيفية اختيار المرأة، القادرة على الإيقاع بأي شخص؛ فهم يمررون أمامه عددًا من النساء، ويتابعون اهتماماته بأجسادهن، ثم يختارون، من بين نساء (الموساد)، من تتوافق في تكوينها الجسدي مع اهتماماته، ويضعونها في طريقه؛ لتتودد إليه، وتجتذبه إلى حيث تريد، ثم تقضي عليه بدم بارد..

أما الخيانة، فهي اللعبة الأساسية، التي ترشدهم إلى الهدف المراد اغتياله، أو تؤمن لهم سبل الوصول إليه، كما حدث في عملية اغتيال الشيخ (ياسين)، حيث دسَّ أحدهم قطعة مغنطيسية إليكترونية في مقعده، ثم جاء دور التكنولوجيا، حيث أطلق الإسرائيليون صاروخًا، تجذبه تلك القطعة المغنطيسية الإليكترونية نحو الهدف، وذلك الصاروخ مزوَّد بجهاز خاص، يجعله يتفادى كل ما يعترض طريقه، فيدور من حوله، أو يرتفع فوقه، ويواصل طريقه، حتى يبلغ هدفه، وهناك فقط ينفجر؛ ليؤدي عملية الاغتيال في نجاح...

وتلك التكنولوجيا موجودة لدى العديد من البلاد، بما فيها (مصر)، ولكن استخدام لعبة الاغتيالات في عالم الجاسوسية والاستخبارات أيديولوجية تعتنقها أجهزة مخابرات بعينها؛ تميل إلى تصفية كل من يسبِّب لها الإزعاج من خصومها، أو تدميره

معنويًا على الأقل، باعتبار أنه في بعض الأحيان، يكون الاغتيال المعنوي أكثر تأثيرًا من الاغتيال الجسدي، كما حدث في قضية (بيل كلينتون)، و(مونيكا لوينسكي)، فما إن بدأ (كلينتون) في تجاهل الرغبات الإسرائيلية، حتى تم توريطه في القضية، التي حيكت في براعة، لا تتفق مع عقلية فتاة عادية؛ إذ تم الانتظار، حتى أنكر (كلينتون) تلك العلاقة، بينه وبين (مونيكا)، متدربة البيت الأبيض، ثم تبرز هذه الأخيرة ثوبها الأزرق، الذي يحمل الحمض النووي للرئيس الأمريكي، فتصبح اللعبة محبوكة...

هكذا تعمل المخابرات الإسرائيلية، التي يصعب إثبات تورطها بالأدلة المادية، وهذا لا يخرج المخابرات الأمريكية نفسها من لعبة الاغتيالات...

ولهذا قصة أخرى.

***

\book100100

(١١)

المخابرات الأمريكية، على الرغم من شهرتها، ليست مخابرات عريقة، مثل المخابرات البريطانية أو الروسية، وإنما، وحتى الحرب العالمية الثانية، لم يكن هناك جهاز مخابرات أمريكي بالمعنى المعروف الآن، بل كان هناك فقط مكتب الخدمات الاستراتيجية، وتطوَّر فيما بعد إلى جهاز مخابرات استراتيجية محدود، ولقد انبهر الأمريكيون بقوة ومهارة جهاز المخابرات البريطاني، الذي خطَّط ونفذ عدة عمليات ناجحة، خلال الحرب العالمية الثانية، كان لها الكثير من الفضل، في انتصار الحلفاء في الحرب، وانبهروا أكثر بعملية مخابرات من النوع ذي النفس الطويل، قام بها جهاز المخابرات البريطاني؛ لدفع (أمريكا) إلى خوض الحرب، في مواجهة دول المحور، على الرغم من أن تلك العملية قد تسبَّبت في تلك الضربة الموجعة، التي سددَّها الطيران الياباني لميناء (بيرل هاربور) الأمريكي، والتي كانت سببًا رئيسيًا في دخول (أمريكا) الحرب ضمن الحلفاء...

ففي بدايات الحرب، رفضت (أمريكا) بشدة التورُّط فيها، واعتبرتها شأنًا أوروبيًا بحتًا، حتى عندما بدأ (هتلر) يمد قواته إلى دول (آسيا) و(أفريقيا)، ومع توالى الخسائر على الجانب

البريطاني، أدرك (تشرشل) رئيس وزراء (بريطانيا) آنذاك، أن الأمل الوحيد في ربح الحرب، مع الانتصارات المتوالية للجيش النازي، هي في دخول (أمريكا) ميدان المعركة وساحة القتال، ليس بما تورِّده للجانب البريطاني من السلاح فحسب، ولكن بقواتها كاملة...

وهنا، ولدفع (أمريكا) إلى دخول حرب، ترى أنها بعيدة عن أراضيها، كان السبيل الوحيد هو أن تصل الحرب إلى الأراضي الأمريكية مباشرة...

ومن هذا المنطلق، بدأت أغرب عملية تجسُّس، بين الحلفاء بعضهم وبعض...

في البداية سرَّب رجال المخابرات البريطانية إحدى شفراتهم الجديدة إلى اليابانيين، عبر أحد جواسيسهم، والذي تم كشفه، دون إلقاء القبض عليه؛ لاستغلاله في توصيل ما يريدون من معلومات إلى العدو، ثم، وعبر تلك الشفرة، بدأت المخابرات البريطانية في تبادل الرسائل مع قطع من أسطولها، والتي تقع في مجال، يمكن لأجهزة اللاسلكي اليابانية رصده واعتراضه، وبدأ اليابانيون في التقاط تلك الرسائل، وفك رموزها، وهم يتصوَّرون أن البريطانيين يجهلون حصولهم على تلك الشفرة، التي يتم تبادل الرسائل بها... ولكي تنجح اللعبة، كانت مجموعة الرسائل، التي تم تبادلها في البداية، تحمل معلومات صحيحة، سمحت لليابانيين بتحقيق انتصارات محدودة ومحسوبة، ثم جاء

دور اللعبة الأساسية...

مجموعة من الرسائل، تم تبادلها، بواسطة الشفرة نفسها، تتحدَّث عن عزم الأسطول الأمريكي توجيه ضربة عنيفة للأسطول الياباني، بالقرب من سواحل اليابان، ولم ينس البريطانيون تأكيد رفضهم المشاركة في تلك الضربة المزعومة القادمة...

ولما كانت تلك معلومة شديدة الخطورة، بالنسبة لليابانيين، وجاءت من مصدر يتصوَّرون أنهم يسيطرون عليه مائة في المائة، فقد بدأوا على الفور في وضع خطة لمواجهة هذا، وكان من الطبيعي أن تعتمد خطتهم على توجيه ضربة وقائية للأسطول الأمريكي في (بيرل هاربور)، في نفس الوقت الذي لم يكن الأمريكيون يدركون فيه ما يدور خلف ظهورهم، من حلفائهم قبل أعدائهم...

وبناءً على أوامر المخابرات اليابانية، نشط جواسيسها؛ لجمع كل المعلومات عن الأسطول الأمريكي في (بيرل هاربور)، ورصدوا قطع الأسطول، ومواقعها، ولكن ما اخطأوا فيه هو أنهم تصوَّروا أن ما يدور على سطح سفن الأسطول الأمريكي هو استعداد للحرب، في حين لم يكن في الواقع سوى أعمال صيانة وتجهيزات معتادة، للأسطول الذي كان يعاني من نوع من الإهمال البيروقراطي؛ نظرًا للاستبعاد التام لفكرة انتقال الحرب عبر المحيط، من (أوروبا) إلى (أمريكا)...

وفي السابع من ديسمبر عام ١٩٤١م، شن اليابانيون ما

أطلقوا عليه اسم الخطة (زد) أو(z)، على الأسطول الأمريكي الغافل في (بيرل هاربور)، وكان هجومًا مباغتًا، حتى أن الأمريكيين لم يستطيعوا صده أو مقاومته، إلا بأقل القليل، وللتدليل على نجاحه، يكفي أن نعلم أنه قد تسبَّب في إغراق أربع بوارج أمريكية، وتدمير أربعة أخرى، بالإضافة إلى تدمير ثلاث طرادات، وثلاث مدمرات، وزارعة ألغام بحرية، إلى جانب مائة وثمانية وثمانين طائرة حربية، تم تدميرها على مهابط الطائرات، وقبل أن تنجح في الإقلاع وصد الهجوم، إلا فيما ندر...

ولقد راح ضحية هذا الهجوم ٢٤٠٢ قتيل، و١٢٨٢ جريحًا ومصابًا، في حين لم يخسر اليابانيون سوى ٢٩ طائرة، وأربع غواصات قزمة، و٦٥ جنديًا فحسب...

ولم يدرك الأمريكيون خطة المخابرات البريطانية في حينها، وإنما نجحت الخطة تمامًا، في دفع (أمريكا) لإعلان الحرب، وخوضها بكل قواتها وعتادها وعدتها...

لم يدرك الأمريكيون هذا إلا بعد سنوات من الحرب، ولم تنشر التفاصيل إلا مع نشر الوثائق البريطانية، بعد نصف قرن من انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولكنهم حوَّلوا مكتب الخدمات الاستراتيجية، والذي نشأ بأمر الرئيس الأمريكي الأسبق (هاري ترومان)، إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، بقرار من الرئيس (فرانكلين روزفلت)، تحت ضغط المخابرات العسكرية، ومكتب المباحث الفيدرالية، كوسيلة لمواكبة أجهزة

التجسُّس ومقاومة التجسُّس، وجمع المعلومات العسكرية والاقتصادية والمدنية، والتي أثبتت نجاحاتها الكبيرة، في الحرب العالمية الثانية...

وعلى الرغم من أن (آلان دالاس) هو أوَّل من أسس الجاسوسية الأمريكية، إلا أن الرئيس (ترومان) قام بإبعاده عن هذا العمل، نتيجة لبعض الأخطاء في البداية، ليحل محله الجنرال (والتر سميث)، إلا أن خبرة (دالاس) الكبيرة في هذا المضمار، وعبقريته في التعامل معه، جعلا الرئيس (إيزنهاور) يعيده إلى منصبه، مع توليه الرياسة، حيث جاء مدعومًا من شقيقه (جون فوستر دالاس)، وزير الخارجية الأمريكي آنذاك، ولكن عقب أزمة ما عرف باسم (خليج الخنازير)، والتي نشبت بين الأمريكيين والسوفييت؛ بسبب محاولة الأمريكيين غزو (كوبا)، قام الرئيس (جون ف كيندي)، بتنحية (آلان دالاس) من منصبه في رياسة وكالة المخابرات الأمريكية، وعيَّن بدلًا منه الجنرال (جون مكين)، عام ١٩٦٣م، و...

مازال الحديث عن المخابرات الأمريكية مستمرًا.

***

الشهرة الأسطورية للمخابرات الأمريكية، هي في واقعها شهرة دعائية وسينمائية، بأكثر منها حقيقة، تمامًا كالبطولات الأمريكية الخارقة، التي تبهر المشاهدين، على شاشة السينما، ثم لا نراها فعليًا على أرض الواقع...

فسواء المقاتل، أو رجل المخابرات الأمريكي، يستند على قوة السلاح، وتطوُّر التكنولوجيا، بأكثر مما يستند إلى كفاءة وقوة الأفراد؛ فالنظام الأمريكي في مجمله يعتمد على تفوقه العلمي، سواء في التسليح، وابتكار أسلحة الدمار والدمار الشامل، بأكثر مما يستند إلى الأمريكيين أنفسهم...

والمخابرات الأمريكية، على الرغم من أنها تتبع الرئيس الأمريكي مباشرة، إلا أنها لا تتورَّع عن خداع الرئيس نفسه، أو حتى اغتياله لو لزم الأمر؛ للحفاظ على قوتها وتفوَّقها... وفي عالم المخابرات الأمريكية، لا توجد حدود أو قواعد، باستثناء قاعدة واحدة، تشترك معها فيها المخابرات الإسرائيلية، وهي أن تنتصر دومًا...

وبأي ثمن...

وحتى عندما كانت في مهدها الأوَّل، كمكتب للخدمات الاستراتيجية، في عهد الرئيس (هاري ترومان)، ومع أبحاث القنبلة الذرية، كان هناك سباق عنيف، بين (المانيا) و(أمريكا)، في محاولة لكل منهما، للتوَّصل إلى إنتاج أوَّل قنبلة ذرية قبل الآخر؛ إذ أن العلماء الألمان هم أوَّل من وضعوا فكرة القنبلة الذرية، ولكن نظام الحكم القمعي النازي دفعهم إلى الفرار من (المانيا)، ومن (أوروبا) كلها، واللجوء إلى (أمريكا)، التي عرضوا عليها خدماتهم في هذا المضمار؛ ولأن الفكرة كانت تعنى انتاج سلاح جبَّار، يستطيع من يمتلكه السيطرة على العالم أجمع، فقد أولت

(أمريكا) الأمر اهتمامًا بالغًا، وحوَّلته إلى مشروع عسكري بالغ الأهمية، وعينت جنرالًا كبيرًا للإشراف عليه...

والطريف أن مشروع إنتاج أوَّل قنبلة ذرية كاد يفشل، بسبب التفكير العسكري لذلك الجنرال، الذي كان يتفقَّد المشروع بنظرة عسكرية، عندما فوجئ بقاعة كبيرة، بها عدد من أصحاب المعاطف البيضاء، يجلسون في استرخاء، لتناول الشاي والقهوة، وتبادل الحوارات والأحاديث، وكل حين وآخر، ينهض أحدهم إلى لوح أسود كبير، فيدِّون عليه بعض المعادلات، أو يعدِّل أو يضيف حرفًا أو رقمًا، إلى معادلة هنا أو هناك، فغضب بشدة، ووصف مجموعة أصحاب المعاطف البيضاء هؤلاء بالكسالى، الذين لا يقدمون ما يساوي رواتبهم، وكاد يصدر قرارًا عسكريًا بإيقافهم عن العمل، لولا أن سارع من حوله بإخباره أن هؤلاء الكسالى هم مجموعة العلماء، التي تقوم بالعمل كله فعليًا، أمام الباقين، والذين يعملون بجهد ودأب، هم مجرَّد منفذين لتعليمات هؤلاء فحسب...

ولا أحد يدري كيف كان من الممكن أن تتطور الأمور، لو أنه أوقف علماء الطاقة الذرية بالفعل عن عملهم حينذاك؟!...

المهم أن مكتب الخدمات الاستراتيجية قد نجح في الحفاظ على سرية المشروع، حتى تم انتاج قنبلتين ذريتين بالفعل، واحدة تعتمد على الانشطار النووي، والأخرى على الاندماج النووي...

وعندما جاء (هاري ترومان) إلى السلطة، في الثاني عشر من

أبريل، عام ١٩٤٥ م، خلفًا للرئيس (فرانكلين روزفلت)، خشى رجال مكتب الخدمات الاستراتيجية من طبيعة الرئيس الجديد، الذي وإن اعتمدت خلفيته على الخدمة العسكرية كضابط مدفعية، إلا أنه كان رقيق المشاعر، إلى الحد الذي يخشوا فيه من عدم تجربة سلاحهم النووي، الذي يفترض منه أن يضعهم على قمة العالم، لذا فقد أخفوا عنه تمامًا مشروع القنبلة الذرية، حتى أجروا أوَّل تفجير اختباري لها، في السادس عشر من يوليو، في العام نفسه، في صحراء (ألاموجوردو)، في ولاية (نيومكسيكو)، وأطلقوا على تلك التجربة الاختبارية اسم (القنبلة أ)، (A-Bomb)، وأثبتت التجربة نجاحها الفائق، ونجاح مشروع (مانهاتن)، وهو الاسم الذي أطلقوه على مشروع إنتاج القنبلة الذرية...

المشكلة التي بقيت أمامهم هو ان (المانيا) قد سقطت بالفعل، ولم يكن هناك أي مبرِّر لاستخدماها هناك، ثم أن نتائج التفجير الاختباري كانت تعنى أن الدمار سيكون شاملًا، حتى أنه سيتحتم سحب القوات المتحالفة تمامًا، قبل تفجير القنبلة، و(اليابان)، وإن كانت مستمرة في المقاومة، إلا أن المراقبين كلهم أجمعوا على أن سقوطها وشيك...

وفي الوقت ذاته، رأى رجال مكتب الخدمات الاستراتيجية، أنه من غير المنطقي ابتكار سلاح هائل مخيف كهذا، دون أن يدرك العالم قوته وتأثيره، لذا فقد فاتحوا الرئيس (ترومان) في الأمر، وطلبوا منه إصدار أوامره باستخدام القنبلة الذرية، على

مدينة (هيروشيما) اليابانية...

ولقد أصيب (ترومان) بالفزع؛ لوجود سلاح جبَّار كهذا، وأخبر القادة العسكريين، ورجال مكتب الخدمات الاستراتيجي، أنه لا يجد أي مبرِّر لاستخدامها؛ باعتبار أن الحرب قد أوشكت على الانتهاء بالفعل، ولا يوجد سبب لارتكاب أكبر مجزرة في التاريخ، ولكنه فوجئ بمعارضة الجميع، قبل أن يحسم مدير مكتب الخدمات الاستراتيجي الأمر بقوله:" ما فائدة أن تمتلك سلاحًا جبارًا، دون أن يدرك العالم هذا"...

وهكذا، وعلى مضض، أصدر (ترومان) الأمر بإلقاء القنبلة الذرية الأولى على (هيروشيما)...

وفي السادس من أغسطس، عام ١٩٤٥ م، تم إسقاط أوَّل قنبلة ذرية، على مدينة (هيروشيما) اليابانية...

وكانت النتيجة رهيبة...

آلاف القتلى لقوا حتفهم لحظيًا، ودمار شامل أصاب المدينة اليابانية الكبيرة، من أقصاها إلى أقصاها...

وعندما بلغ الأمر (ترومان)، أخفى وجهه بين كفيه، وقال منتحبًا: « لقد صرت أكبر سفاح عرفه التاريخ»...

في نفس الوقت، لم يكن اليابانيون قد فهموا أو استوعبوا بعد ما حدث، ولا كيف زالت مدينة كبيرة من مدنهم في لحظة واحدة، وكيف أصابها كل هذا الدمار، في غفلة من الزمن، وراح خبراؤهم يسعون لتحليل وفهم ما حدث، على ضوء كل ما

كان معروفًا آنذاك؛ فاقترح بعضهم أن الحلفاء قد أرسلوا آلاف الطائرات، في غارة جوية شاملة، وأنها قد ألقت كل حمولتها من القنابل دفعة واحدة، وفي توقيت واحد، محدثه ذلك الدمار الشامل، واقترح البعض الآخر أن الطائرات ألقت حمولة هائلة من مسحوق المغنسيوم، الذي تم إشعاله بقنبلة واحدة، وبينما يضربون أخماسًا في أسداس، أعلن الأمريكيون أنهم قد ألقوا على (هيروشيما) قنبلة جديدة واحدة...

ولم يصب اليابانيون وحدهم بالذعر، بل أصيب به العالم أجمع، من هول ما جاء في الإعلان الأمريكي...

كان (ترومان) يتصوَّر حينذاك أنه قد انتهى من أسوأ قرار اتخذه في عمره كله، إلا أن القادة العسكريين، ورجال مكتب الخدمات الاستراتيجية فاجأوه بأنه مازال هناك ما هو أسوأ...

بكثير...

ومازال للحديث بقية.

***

بعد أن ألقى الأمريكيون قنبلتهم الذرية الأولى، والتي محت مدينة (هيروشيما) اليابانية من الوجود بضربة واحدة، في السادس من أغسطس ١٩٤٥ م، فوجئ الرئيس (هاري ترومان) بالقادة العسكريين، وكبار رجال مكتب الخدمات الاستراتيجية، يطالبونه بإصدار أمر آخر، بإلقاء قنبلة ذرية ثانية، على مدينة (ناجازاكي) اليابانية أيضًا، والتي تقارب مساحتها

وعدد سكانها، مدينة (هيروشيما)...

ولقد غضب (ترومان) من الاقتراح في شدة، وواجههم بأنه لا يوجد أي مبرِّر على الإطلاق؛ للقيام بمذبحة ثانية، خاصة وأن اليابانيين سيصابون بالذعر من القنبلة الأولى، وسيستسلمون حتمًا، خلال فترة قصيرة، وتضع الحرب أوزارها، ولكنهم أخبروه في حزم، أنه توجد مبرِّرات أكيدة لإلقاء القنبلة الثانية، والتي أخفى عنه مكتب الخدمات الاستراتيجية أمرها، حتى وهو يأمر بإلقاء القنبلة الأولى؛ فالقنبلتان كانتا تعتمدان على نظامين نوويين مختلفين تمامًا...

الأولى كانت تطلق طاقتها الجبارة عن طريق الانشطار النووي، والثانية تطلقها عبر الاندماج النووي، والكل كان يريد اختبار تأثير كل منهما في ساحة المعركة، والمقارنة بين تأثير الانفجار الانشطاري، والانفجار الاندماجي النووي، ولهذا وقع الاختيار منذ البداية على مدينتين، تتقاربان من حيث المساحة وعدد السكان؛ حتى تكون المقارنة أكثر دقة...

وكاد (ترومان) يبكي وهو يستمع إلى تحليلاتهم وتفسيراتهم، إلا أنه لم يملك، وتحت ضغط الفريقين، إلا أن يصدر الأمر، وقد فقد كل ثقة له بمكتب الخدمات الاستراتيجي، الذي يحجب عنه المعلومات وقتما يشاء، ويطرحها عليه فقط عندما يشاء...

وفي التاسع من أغسطس، أي بعد ثلاثة أيام فحسب، من إلقاء القنبلة الأولى، أسقطت القنبلة الذرية الثانية، والتي

أطلق عليها الأمريكيون اسم (الولد السمين) (Fat Boy)، على عكس الأولى، والتي أطلقوا عليها اسم (الولد الصغير) (Small Boy)...

اسقطت القنبلة على مدينة (ناجازاكي) اليابانية، في تمام الساعة الثامنة والربع، ومحيت على إثرها المدينة تمامًا، في الثامنة وواحد وعشرين دقيقة...

ولقد أسفر إلقاء القنبلتين عن مصرع أكثر من مائتي ألف شخص لحظيًا، ودون أن يدرك أي من مخترعيها تلك التأثيرات الإشعاعية التي ستخلفها، والتي راح ضحيتها عدد مماثل، خلال السنوات العشر التي تلت ذلك...

وحقَّق العسكريون ومدراء مكتب الخدمات الاستراتيجي ما كانوا ينشدونه؛ فلقد استسلمت (اليابان) فورًا، دون قيد أو شرط، مع تعهدها بإقامة دولة ديمقراطية، وإلغاء قدسية الامبراطور، والتعهَّد بأن يظل تسليحها محدودًا، وألا تحاول بناء مفاعلات نووية، أو انتاج قنابل ذرية... وفي الوقت ذاته بلغت الرسالة كل دول العالم، التي صارت تدرك أن الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك سلاحًا جبَّارًا، قادرًا على محو مدن بأكملها من الوجود، في لحظات معدودة...

وكان أكثر من بلغته الرسالة، وأقلقته، وأفزعته، وأغاظته أيضًا، الاتحاد السوفيتي، الذي بدأت هزيمة الرايخ الثالث من أرضه، عندما دحر الهجوم الألماني، بعد خطأ (هتلر) المميت،

بوقف القتال على مشارف (موسكو)، وإجبار قواته على قضاء شتاء مفترس وسط الجليد، مما منح السوفييت فرصة إعادة تنظيم قواتهم، وشن هجوم شامل على القوات النازية، ودحرها، وإجبارها على الانسحاب، وهي تطاردها في شراسة، حتى دخلت (برلين)...

فبعد أن كان الاتحاد السوفيتي يرى نفسه كبطل قوي منتصر، فوجئ بأن الأمريكيين يمتلكون سلاحًا جبارًا، يعجز عن مقاومته ومواجهته، وأنهم لو أرادوا، يستطيعون محو (موسكو) من الوجود بضربة واحدة...

وعلى الرغم من أنهم كانوا حلفاء في الحرب العالمية الثانية، إلا أن (جوزيف ستالين)، ديكتاتور (روسيا)، كان يدرك أنه ما إن تستقر الأمور، حتى يبرز العداء التقليدي، بين الشيوعية والرأسمالية مرة أخرى، ويعود الصراع إلى الوجود، في الوقت الذي صارت فيه (أمريكا) الدولة، التي تملك أقوى سلاح في العالم...

لذا فقد كان أوَّل ما طلبه (ستالين)، من جهاز مخابراته، هو حشد كل الجهود الممكنة؛ للحصول على سر القنبلة الذرية، وبأي ثمن...

وفي الوقت الذي بدأت فيه المخابرات السوفيتية العريقة، ذات الخبرة الواسعة، في وضع خطتها بعيدة المدى؛ للحصول على سر القنبلة الذرية، والذي عكف فيه آلاف العلماء السوفييت، على دراسة الأمر، ومحاولة فك أسراره وتعقيداته، كان (هاري

ترومان) يصدر قراره بحل مكتب الخدمات الاستراتيجية، ويسند إلى (آلان دالاس) مهمة إنشاء وكالة المخابرات الأمريكية، بعد أن قفزت مذبحتا (هيروشيما) و(ناجازاكى) بشعبيته إلى القمة، ما دامتا قد انهيتا الحرب العالمية الثانية، التي فقد العالم بسببها اثني عشر مليون شخص...

وبينما انهمك (دالاس) في تكوين جهاز مخابراته، واختيار معاونيه، ووضع قواعد عمله الأساسية، والتي اشترط (ترومان) أن تحوي ما يحظر حجب المعلومات عن الرئيس، أيًا كانت الأسباب، كان الروس يبدأون خطتهم بزرع أكبر عدد ممكن من عملائهم، في الولايات المتحدة الأمريكية، التي شهدت حمى سيل طلبات الهجرة إليها، بعد أن صارت أقوى دولة في العالم، وصارت بعد الرخاء الاقتصادي الذي حظيت به، عقب الحرب، والذي محا تمامًا أثر الأزمة الاقتصادية العنيفة، التي عانت منها في أواخر العشرينات وحتى نهايات الثلاثينات، هي الحلم والأمل، بالنسبة لعدد كبير من الجنسيات المختلفة، وكانت فرصة مثالية للسوفييت، أن يزرعوا أكبر قدر من عملائهم، في المجتمع الأمريكي، عبر سيل المهاجرين الجدد، ولأن (انجلترا) كانت حليفًا للولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب، وتشترك معها في المنهج الرأسمالي نفسه، فقد استغل السوفييت الدمار الذي أصابها، وضياع العديد من سجلاتها خلال الحرب، وزرعوا فيها مجموعة من عملائهم أيضًا...

ووفقًا للإحصائيات غير الرسمية، زرع السوفييت ما يزيد على ألفين وثمانمائة عميل، في الولايات المتحدة الأمريكية و(انجلترا)، خلال السنوات الخمس، التي تلت الحرب العالمية الثانية...

خلال كل هذا، كان الأمريكيون يواصلون محاولات تطوير القنبلة الذرية، وإجراء الأبحاث لإنتاج القنبلة الهيدروجينية، والعمل على إنتاج قنابل نووية أصغر حجمًا من القنبلة الأولى، التي عابها حجمها شديد الضخامة، واستعانت في هذا بنفس الطاقم الذي أشرف على مشروع (مانهاتن)، والذي ضم عددًا من أبرز علماء الفيزياء، مثل (أنريكو فيرمي) و(هارولد أورى)...

وفجأة، وبينما بلغ الزهو الأمريكي مبلغه، واعتقدت المخابرات الأمريكية أنها قد صارت واحدة من أكبر أجهزة المخابرات العالمية، وصلها نبأ شديد الخطورة، إلى أقصى حد...

وللحديث بقية.

***

في الوقت الذي انشغلت فيه الولايات المتحدة الأمريكية، في تطوير طائراتها (Convair B-٣٦)؛ حتى يمكنها حمل قنابل نووية أكثر قوة، وقدرة على التدمير، وفي الوقت الذي تصوَّرت المخابرات الأمريكية فيه، أنها قد صارت قوة استخباراتية لا يشق لها غبار، أعلن الاتحاد السوفيتي فجأة، في التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩٤٩م، أنه قد أجرى تجربة ناجحة؛ لتفجير قنبلته الذرية الأولى، في منطقة (سيمى بالاتينسيك)؛ في

(كازاخستان)...

وكانت صدمة رهيبة، ليس للمخابرات الأمريكية وحدها، ولكن لكل مواطن أمريكي أيضًا؛ فبعد أن امتلأت نفوس الأمريكيين بشعور القوة والتميُّز، وصاروا على قمة العالم، وبدأوا بالتعالي على السوفييت بالتحديد، نزل ذلك الخبر على رءوسهم كالصاعقة، ونسف زهوهم وشعورهم بالقوة بضربة واحدة؛ فلم يكن هناك مخلوق واحد، لا بين العامة، ولا بين السياسيين، ولا حتى بين رجال المخابرات الأمريكية أنفسهم، يتصوَّر، أو يمكن حتى أن يتصوَّر، أن يتمكَّن السوفييت من بناء قنبلتهم الذرية الأولى بهذه السرعة... كان علماء مشروع (مانهاتن) قد حذرَّوا من أن السوفييت سيتوصلون حتمًا إلى سر صنع القنبلة الذرية؛ لأنه من المستحيل حجب العلم عن الآخرين، الذين يمتلكون عقولًا وعلومًا، تتساوى مع من أبدعوا القنبلة الأولى، ثم أن السوفييت كانوا يمتلكون الإمكانيات اللازمة؛ لإنتاج القنبلة الذرية، وكل ما ينقصهم، هو الخطوط الأساسية لتصميم وصنع القنبلة...

وبسرعة، سرت في أروقة المخابرات الأمريكية معلومة بالغة الخطورة، تقول: إن السوفييت قد حصلوا، من خلال أحد جواسيسهم، والذي يعمل لحساب (الكي جي بي) (KGB)، على التصميمات الأوليَّة، للقنبلة الانشطارية، التي ألقيت على (ناجازاكى) اليابانية!!... وفي الوقت الذي أصيبت

فيه المخابرات الأمريكية بحمى البحث عن الجاسوس، الذي سرَّب أسرار القنبلة الذرية، أصيب الشعب الأمريكي بحمى جديدة، أطلقوا عليها اسم (الرعب النووي)، وهي حالة من الهلع الشديد، من أن تدور عليهم الدوائر، ويصبحون ضحية لانفجار ذري سوفيتي، كما كانوا الجناة ذات يوم، عندما فجَّروا قنابلهم الذرية في (اليابان)...

وعلى نحو محموم، نابع من ذلك الرعب النووي، بدأ الأمريكيون في بناء مخابئ نووية، في الحدائق العامة، وتحت منازلهم، وزودوُّها بكميات هائلة من المياه والأطعمة المحفوظة، حتى يمكنهم العيش فيها لسنوات، إذا ما تعرضت الولايات المتحدة الأمريكية لقصف نووي، خاصة وأن السوفييت قد استعانوا بأسراهم من العلماء الألمان؛ لتطوير الصواريخ الألمانية (ف-١)، و(ف-٢) (V١ V٢ and)، والتي استخدمها (هتلر) في نهايات الحرب العالمية الثانية؛ لقصف (لندن) من (أوروبا) والتي كان لها الدور الأكبر، في الدمار الهائل، الذي شهدته (لندن)، في سنوات الحرب وأشهرها الأخيرة، وصار لدى الروس ما يعرف باسم (الصواريخ عابرة القارات)، والتي يمكن إطلاقها من أقصى شرق (روسيا)، نحو القارة الأمريكية، وهي تحمل رؤوسًا نووية بالغة الشدة والقوة التفجيرية...

المشكلة الكبرى آنذاك، كانت أن (روسيا)، في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، تمتلك ترسانة من الصواريخ، التي طوَّرتها

كثيرًا، خلال اهتمام الأمريكيين بتطوير أسلحتهم النووية، مما زاد من حدة الهلع النووي، الذي بلغ حد إصابة ما يزيد على الستين في المائة، من الأمريكيين البالغين، بحالات اكتئاب مرضي، وهلع نفسي متواصل، وإرهاق شديد؛ بسبب عجزهم عن النوم؛ من شدة خوفهم على أنفسهم وعلى أسرهم...

ربما لأن الخوف لم يقتصر على الخوف من الضربة النووية فحسب، وإنما امتد إلى الخوف من الشيوعية والشيوعيين، ومن أن يستيقظوا يومًا، فيجدوا أنهم صاروا تحت الاحتلال السوفيتي، ولقد دفعهم هذا، ودفع مخابراتهم، التي كان يرأسها- آنذاك- (آلان فوستر دالاس)، ومكتب المباحث الفيدرالية (FBI)، التي كان يرأسه (جون ادنمار هوفر)، المعروف باسم (إدجار هوفر)، إلى الشك في كل من ينتمى أو يتعاطف مع الفكر الشيوعي، وبلا أدنى رحمة... في تلك الفترة تم اعتقال المئات للتحقيق معهم، ومن بينهم (هاري جواد)، الذي ألقى القبض عليه، ثم أفرج عنه، عندما لم يثبت عليه شيء...

العجيب أنه بعد ذلك، وفي الثالث والعشرين من مايو، عام ١٩٥٠م، تم اعتقاله في (فلاديلفيا)؛ بعد أن تبين من التحريات توَّرطه في شبكة تجسُّس سوفيتية، تعمل في (أمريكا) منذ الثلاثينات، ومع اعتقاله، ويقينه من أن كل الأدلة تدينه، كشف (جواد) عن أسماء باقي أفراد الشبكة؛ في محاولة للتخفيف من عقوبته، واعترف بأنه، وفي يونيو ١٩٤٥م، التقى

بأحد العسكريين الأمريكيين، والذي يعمل في قاعدة (لوسن الاموس) في (نيومكسيكو)، حيث سلمه هذا الأخير وثائق بالغة السرية والخطورة، عن صاعق تفجير القنبلة الذرية، وأنه أعطى تلك الوثائق للمدعو (كلاوس فوشنر)، زعيم شبكة التجسُّس الروسية، مقابل خمسمائة دولار فحسب...

وعندما عرضت المخابرات الأمريكية عليه بعض صور العسكريين، الذين يشتبه في أمرهم، تعرَّف بينهم (دافيد جرين جلاس)، والذي تم تسريحه من الجيش قبل هذا؛ بسبب تعاطفه وزوجته مع الشيوعيين، الذين كان الأمريكيون يطلقون عليهم لقب (الحمر)، والذي كان يعمل في مؤسسة صناعية كبيرة في (بروكلين)، مع (جوليوس روزنبرج)، زوج شقيقته (إيثيل)، و(جوليوس) هذا ابن مهاجر روسي، وقد تم طرده قديمًا من مؤسسة صناعية أخرى، بعد خمس سنوات من عمله فيها؛ بسبب انتمائه للحزب الشيوعي غير الرسمي...

وتم اعتقال (دافيد جلاس)، في السادس عشر من يوليو ١٩٥٠م، واعترف ضمن ما اعترف، بأنه لم يسلم الوثائق إلى (جواد) فقط، وإنما سلم نسخة منها إلى زوج شقيقته (جوليوس)، الذي أخبره أيامها أنها ستذهب إلى (الأصدقاء الروس)، على حد قوله، وأضاف أن (جوليوس روزنبرج) قد نصحه وزوجته بالفرار إلى (المكسيك)، بعد اعتقال (جواد)، ولكنه تأخر في هذا، على عكس عميل آخر، وهو (مورتون

سويل)، الذي هرب بالفعل إلى (المكسيك)، وهنا تركّزت شبهات وتحريات المخابرات الأمريكية والمباحث الفيدرالية على (جوليوس روزنبرج، و....

مازال للحديث النووي بقية.

***

منذ فجَّر السوفييت قنبلتهم الذرية الأولى، جن جنون المخابرات الأمريكية، التي اتهمها الشعب الأمريكي كله، بأنها لم تستطع الحفاظ على أعظم سر، في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية بأكمله، ولم تشعر بشيء من الارتياح، حتى ألقت القبض على شبكة تجسُّس سوفيتية، اعترف أحد أفرادها، وهو (جرين جلاس) بأنه قد سلَّم مخطوطات القنبلة الذرية لزوج شقيقته (جوليوس روزنبرج)، الذي أخبره أنه سيرسلها إلى (الأصدقاء الروس)، على حد قوله ...

وفي اليوم التالي مباشرة، تم اعتقال (جوليوس)، الذي أصيب بالدهشة والفزع، وأقسم للمحققين أنه لم يسمع عن القنبلة الذرية، حتى أسقطت على (اليابان)، ولكن المحققين واجهوه باعتراف (جلاس)، الذي أنكره تمامًا، وأصرَّ على إنكاره ...

وعلى الرغم من هذا، فقد تم إلقاء القبض على زوجته (ايثيل) بعد ستة أيام، وعلى الرغم من فرار (مورتون سويل) إلى (المكسيك)، فقد قامت المخابرات الأمريكية بعملية محدودة، وتم

اختطافه، وإعادته إلى الولايات المتحدة، عبر الحدود الشمالية، وإن كان الإعلان الرسمي قد أشار إلى اعتقاله في (لاريدو) بولاية (تكساس) ...

وتم توجيه التهمة لكل من (جرين جلاس) و(جولد)، و(سويل)، بالإضافة إلى (جوليوس)و (إيثيل روزنبرج)، (أما (روث)، زوجة (جرين) فلم يوجِّه إليها أي اتهام، على الرغم من إفادة زوجها بأن (جوليوس) قد أرسلها إلى قاعدة (لوس آلاموس)؛ لاقناعه بالتجسس، وبعد عدة سنوات، ومع نشر وثائق القضية، تبيَّن أن المدعى العام- حينذاك- (جون روج)، قد عقد اتفاقًا مع (جرين)، باستثناء زوجته من الاتهام، مقابل شهادته ضد زوج شقيقته (جوليوس) ...

وعلى نحو عجيب، دارت القضية الكبرى، وشهدت تطوُّرات غير طبيعية، فبعد أن كانت إفادة (جرين) خالية، من أي اتهام لشقيقته (ايثيل)، عاد هو وزوجته يقرّان بأنها من قاما بطباعة المعلومات، التي سيتم إرسالها إلى الروس، ولقد كشفت إحدى الوثائق فيما بعد، أن (إدجار هوفر)، مدير المباحث الفيدرالية الأمريكية، قد ورَّط (إيثيل) عمدًا في القضية؛ حتى يدفع (جوليوس) إلى الاعتراف بوجود جواسيس آخرين، وكل هذا بسبب رسالة لاسلكية تم اعتراضها، من السفارة الروسية، تقول: إن زوجين يعملان كفريق تجسُّس ناجح في (نيويورك)، ولسبب غير مفهوم، لم يحاول شخص واحد التفكير في احتمال أن

تشير تلك الرسالة إلى الزوجين (جلاس)، وليس إلى الزوجين (روزنبرج)!!!...

ولقد أصرَّ (جوليوس) و(إيثيل روزنبرج) على نفي التهمة طوال الوقت، في حين اعترف الباقون بها، ورفضا إجابة سؤال المدعى العام، عن كونهما يعتنقان الفكر الشيوعي، في حين أكَّد محاميها أن (جرين جلاس) جاسوس مرتزق، من الطراز الذي يعمل من أجل المال وحده، وأنه مستعد لدفن أخته وزوجها؛ حتى ينجو بجلده من العقاب ....

وعلى الرغم من مرافعة الدفاع، ومن أدلة الاتهام الواهية، والاعتماد على شهادة رجل اعترف بالتجسَّس، فقد حصل كل المتهمين على أحكام متوسَّطة الشدة، فيما عدا (مورتون سويل) والزوجين (روزنبرج)، فقد حكم على (سويل) بالحد الأقصى للسجن- آنذاك- وكان ثلاثين عامًا، دون إمكانية الإفراج المبكِّر، تحت أية ظروف، في حين جاء الحكم على الزوجين (روزنبرج) بالإعدام، باعتبار أن جريمتهما تفوق حتى جرائم القتل المعتادة، وربط القاضي بين تسريب أسرار القنبلة الذرية، وعدوان الاتحاد السوفيتي على (كوريا)، والذي راح ضحيته خمسون ألف شخص، كما قال إن تسريب أسرار القنبلة الذرية، قد يعني موت الملايين فيما بعد ...

وعندما تم نقل (جوليوس) و(إيثيل) إلى السجن، تمهيدًا لإعدامهما، راحت (إيثيل) تغنى مقطعًا من الأوبرا، يقول: إن

غدًا سيعود جميلًا، وصفَّق لها (جوليوس) في حرارة، وطلب منها أن تغني مقطعًا آخر، صفق لها كل السجناء بعده طويلا....

ولقد تقدَّم محامي الزوجين (روزنبرج) بالتماس للرئيس (دوايت إيزنهاور) ثلاث مرات؛ لتخفيف الحكم عنها، إلا أنه رفض في إصرار، على الرغم من أن العالمين (هارولد يورى) و(ألبرت أينشتين)، الفائزان بجائزة (نوبل)، قد نشرا عدة رسائل في الصحف، تشكِّك في نتائج التحقيقات، باعتبار أن المعلومات، التي نسب تسريبها إلى الزوجين (روزنبرج)، لم تكن تكفي وحدها؛ ليصنع السوفييت قنبلتهم الذرية، إلا لو كانت أبحاثهم شبه مكتملة بالفعل، وأكّد (أينشتين) أن أوراق التحقيقات جاءت متجنية بشدة على الزوجين (روزنبرج)، وأنه من غير المنطقي أن يكافأ جاسوس بالسجن لمدة محدودة، في حين يعامل آخر بكل هذا التعنت، على التهمة نفسها، إلى حد يصل إلى الحكم عليه بالإعدام!!...

ولقد امتدَّت الشكوك إلى قطاع عريض من الأمريكيين، حتى أن وفدًا يمثل ألفين وثلاثمائة كنيسة أمريكية، من مختلف الطوائف، قد زار الرئيس الأمريكي، مطالبًا بتخفيف الحكم عن الزوجين (روزنبرج)، إلا أنه رفض تمامًا، وأصرَّ على حكم الإعدام، ولم يشفع له مشهد زيارة طفليهما (ميشيل) و(روبيرت) لهما، واللذين لا تزيد أعمارهما على أربع وثمان سنوات، ولا الدموع الغزيرة، التي ذرفت في كل زيارة، وتم رفض كل

الالتماسات، لتأييَّد الحكم بالإعدام، ويتحدَّد له يوم الثامن عشر من يونيو عام ١٩٦٣م ...

ومن عجائب القدر، أن وافق هذا اليوم ذكرى عيد زواجهما الرابع عشر، فتم تأجيله ليوم واحد، ليتم إعدامهما بالفعل، في التاسع عشر ...

أسوأ ما في هذه القصة كلها، أنه بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، ونشر العديد من وثائقه، التي كان نشرها محظورًا من قبل، تبيَّن أن الزوجين (روزنبرج) لم يتجسسا أبدًا لحساب السوفييت، على الرغم من إعجابهما بالإنجاز السوفيتي في الحرب العالمية الثانية، ولم يكن لهما أدنى دور، في تسريب أسرار القنبلة الذرية إليهم!!....

وبهذا انكشف الفشل الذريع للمخابرات الأمريكية، التي ارتكبت الكثير من التجاوزات، وضحت بزوجين بريئين، وحكمت على طفليهما باليتم والعار، فقط حتى تحفظ ماء وجهها، أمام الشعب الأمريكي، الذي لم يتخلَّص من حمى (الرعب النووي)، وإنما حوَّلها إلى اتجاه آخر ...

تمامًا.

***

إعدام (جوليوس) و(إيثيل روزنبرج)، لم يؤد إلى تهدئة مخاوف الشعب الأمريكي، ولا ساعد في خروجه من حالة (الرعب النووي)، التي أصابته عقب تفجير السوفييت لقنبلتهم النووية

الأولى، وخاصة مع الاخبار عن تطوير السوفييت لصواريخهم، التي بات في استطاعتها حمل رءوس نووية، وعبور القارات؛ لتهديد أمن وسلامة الأمريكيين، وكان على المخابرات الأمريكية توجيه مشاعر ومخاوف الشعب إلى اتجاه آخر، ينفث عن مشاعره، ويهدئ قليلًا من مخاوفه، وهذا ما اتفقت عليه المخابرات الأمريكية، التي رأسها -حينذاك- (آلان فوستر دالاس)، والمباحث الفيدرالية، التي كان يقودها (جون إدجار هوفر)...

ولا أحد يدري ما إذا كان اتفاقهما هو الدافع، أو الرغبة في الشهرة والزعامة، ولكن في تلك الفترة ظهر السيناتور الأمريكي (جوزيف مكارثي)، ليشن حملة شعواء ضد الشيوعية والفكر الشيوعي...

ولقد بدأ (جوزيف ريموند مكارثي) (١٤ نوفمبر ١٩٠٨م- ٢ مايو ١٩٥٧م) حملته عام ١٩٥٠م، وهو نفس العام الذي ألقى القبض فيه على (جوليوس روزنبرج)، بقائمة من مائتي وخمسة أسماء، اتهمهم بالعمالة للاتحاد السوفيتي، وباعتناق الفكر الشيوعي، في الخارجية الأمريكية، ولم تكن حملة (مكارثي) تستند إلى الأدلة أو البراهين، وإنما كانت تكتفي بتوجيه اتهامات جزافية، للعديد من رموز المجتمع الثقافية والسياسية، وحتى الفنية، وكان توجيه الاتهام الجزافي لأحدهم، يعني تدميره اجتماعيًا على نحو كبير، حتى انهم أطلقوا على حملة (مكارثي) اسم (حملة الخوف)...

ولما كان (جوزيف مكارثي) ينتمي إلى الحزب الجمهوري،

فقد تركَّزت اتهاماته على رموز الحزب الديمقراطي، مما أشاع حالة من الخوف والفزع في نفوس العديد من الأمريكيين، وانزاحت فكرة اتهام المخابرات الأمريكية بالتقصير، في تسُّرب سر القنبلة الذرية، وانشغل الكل بإثبات عدم انتمائه أو تأييده للفكر الشيوعي، خاصة وأن القائمة، التي بدأت بمائتي وخمسين اسمًا، اتسعت لتشمل أكثر من ثلاثة آلاف وسبعمائة اسم، حتى قيل ايامها أنها ستمتد لتشمل الولايات المتحدة الأمريكية كلها، خاصة وأن (مكارثي) لم يعد يفرَّق في حملته، بين الشيوعيين، والليبراليين، والحركات العمالية، التي تسعى لتحسين أوضاع العمل في (أمريكا)...

في البداية كان (مكارثي) يرفض الغوغائية، ويتعامل في هدوء وثقة، باعتباره أصغر أعضاء الكونجرس سنًا في ذلك الحين، إذ لم يزد عمره عن الثامنة والثلاثين، عندما بدأ حملته، ثم بدأ سلسلة من التحقيقات داخل الكونجرس، يساعده في هذا (روى كوهين)، الذي حقَّق مع (جوليوس) و(إيثيل روزنبرج)، ودفعهما إلى كرسي الإعدام الكهربائي، والذي أطلق على نفسه لقب (صائد الجواسيس الحمر)، وعاشت (أمريكا) الفترة الأكثر سوادًا في تاريخها الحديث (١٩٥٠م- ١٩٥٥م)، حيث لجأ العديدون إلى الهجرة إلى (أوروبا)، وتخلَّى عشرات الأدباء والكتاب عن وطنهم، وراحت دائرة اتهامات (مكارثي) تتسع وتتسع، ليجبر وزير الخارجية على منع دخول كتب أكثر

من أربعمائة كاتب وأديب وأستاذ جامعي أوروبي؛ باعتبار أنها تروِّج للشيوعية، ووضع قائمة سوداء للكتَّاب الأوروبيين، ولقد أيَّده الأعضاء الجمهوريون في الكونجرس؛ نظرًا لعدائهم للرئيس (هاري ترومان) الذي ينتمى للحزب الديمقراطي، وتم التحقيق مع مئات من الديبلوماسيين الأمريكيين، مما اضطر وزير الخارجية - آنذاك - (جيمس بيرنز) إلى فصل مائة شخص منهم تقريبًا، تحت مسمى (عدم الكفاءة)...

ثم التف (مكارثي) إلى (هوليوود)، واتهمها بأنها إما شيوعية، أو تعمل على ترويج الفكر الشيوعي، من خلال أفلامها، وكان اتهامه هذا موجَّهًا إلى اليهود، الذين يمتلكون معظم شركات الإنتاج السينمائي الأمريكية، والذين ترأسوا الكثير من المنظمات اليسارية والنقابات الصناعية، وكان منهم ممثلون ومخرجون ومؤلفون، مما دفع الكاتب اليهودي اليساري (والتر جودمان) إلى أن يصف المكارثية، بأنها لعبة وسيلتها قذرة، وهدفها يدفع إلى التقزُّز....

وعلى الرغم من أن الشعب الأمريكي قد أيَّد حملته في البداية، مدفوعًا بالخوف من الخطر الشيوعي، إلا أن بعض الصحفيين والكتاب كانت لديهم الشجاعة لمهاجمته، وهو في أوج شهرته، وكان أشهرهم (إدوارد مارلو)، الذي قاد حملة قوية ضد (جوزيف مكارثي)، مما دفع نجوم (هوليوود) إلى تنظيم مسيرة في قلب (واشنطن)، على رأسها (همفرى بوجارت)، و(لورين

بيكال)، و(جريجورى بيك)، و(دانى كي)، و(جين كيلى)، و(جيمس ستيوارت)، و(فرانك سيناترا)، و(جودي جارلاند)، و(ريتا هيوارث)، و(أفا جارنر)، وكانوا أشهر نجوم (أمريكا)، العالميين في ذلك الحين، ودخلوا الكونجرس، وطالبوا بأن يكون الإنسان الأمريكي حرًا في اعتناق ما يريد....

ومع تلك المسيرة، بدأت شعبية (جوزيف مكارثي) تتراجع، حتى أن الكونجرس أدان حملته، عام ١٩٥٦م، وبعد الشهرة التي حازها، صار اسمه مرادفًا للإرهاب الفكري الثقافي، وهوجمت حملته في عنف، دفعه للانزواء عن الأضواء، ودارت عليه الدوائر، ليصبح هو المتهم، في نظر الشعب الأمريكي كله...

أما مساعده في التحقيقات المشبوهة (روى كوهين)، فقد سقط في قبضة العدالة فيما بعد، متهمًا بالفساد، وتقاضى رشاوى، وثبت عليه الاتهامات، وحكم عليه بالسجن لسنوات عديدة... ومع كل هذا، فقد تحقَّق الهدف الرئيسي، وراء حملة (مكارثي)، كما اتفق على هذا عدد كبير من مثقفي وأدباء وصحفيي (أمريكا)، وهو جذب انتباه الشعب، بعيدًا عن تقصير المخابرات الأمريكية في حماية سر القنبلة الذرية، كما ثبت فيما بعد، أن الغرض الحقيقي من حملة (مكارثي) لم يكن استهداف الشيوعية، التي وصفها بأنه (دين جديد، يسعى لإزاحة المسيحية)، وإنما كانت تستهدف الحزب الديمقراطي، في محاولة فجة لرفع أسهم الحزب الجمهوري، مما جعل البعض يصفها مؤخرًا، بأنها « أقذر لعبة

سياسية، في التاريخ كله...»...

ولكنها لعبة حفظت ماء وجه المخابرات الأمريكية، في واحدة من أحرج لحظاتها....

ولا يمكن أن نختم الحديث عن المخابرات الأمريكية، دون الإشارة إلى أكثر عملياتها تعقيدًا و...

مازال للحديث بقية.

***

(خليج الخنازير) أو(Bahia de Cochinos)، هو خليج على الساحل الجنوبي الغربي لدولة (كوبا)، ويقول البعض: إن تسميته بهذا الاسم، تعود إلى غرق سفينة محمَّلة بالخنازير، بالقرب من ساحله، وألقت الأمواج الخنازير النافقة عليه، ولكن البعض ينكر هذا بشدة، ويؤكِّد أنه هناك خطأ فادح في الترجمة، وأن كلمة (Cochinos) هذه إنما تعني (سمك الفهد)، أو (Tiger Fish)، ولكن أيًا كان الصواب، بين هذا وذاك، فشهرة ذلك الخليج لا تعود إلى سبب تسميته، ولكن تعود إلى ارتباط اسمه بالهجوم الفاشل، الذي نظمته المخابرات المركزية الأمريكية، عبر مجموعة من الكوبيين، المناوئين لنظام (فيدل كاسترو)، والمنفيين خارج (كوبا)، بقيادة (باتستيتا)؛ لاسترجاع الحكم من يد ثوَّار (كاسترو) وأتباعه، في السابع عشر من أبريل، عام ١٩٦١م...

ولقد بدأ التخطيط للعملية، في السابع عشر من مارس ١٩٦٠م، عندما اقَّنعت المخابرات الأمريكية الرئيس (دوايت

إيزنهاور)، بدعم المعارضة الكوبية، ضد النظام الشيوعي الجديد- آنذاك- بقيادة (كاسترو)، ووقَّع (إيزنهاور) بالموافقة، ليبدأ تدريب قوات المعارضة الكوبية في (جواتيمالا)، وتم تشكيل اللواء (Brigada Asalto)، وأطلقت المخابرات الأمريكية على العملية، الاسم الكودي (زاباتا) (Zapata)... وعلى الرغم من أن (آلان دالاس)، مدير المخابرات الأمريكية- آنذاك- كان المسئول الأوَّل عن العملية، وأحاطها بأقصى قدر من السرية، إلا أنه من العسير أن تخفي حدثًا بهذه الضخامة، وأن تقوم بتدريب قوات كاملة من المرتزقة، دون أن تتسَّرب، ولو معلومة واحدة صغيرة..

ثم أن المخابرات السوفيتية (KGB)، كانت تحمي النظام الوليد، وتعتبره نقطة ارتكاز، قريبة من سواحل الولايات المتحدة الأمريكية، وحليفًا يمكن استخدامه في حالات الطوارئ، وفزَّاعة تطير النوم من عيون الامريكيين في الوقت نفسه؛ لذا، فبوسيلة ما، تسَّربت الخطة إلى الكوبيين، ربما عبر عملائهم السريين في الأوساط الأمريكية، أو عبر المخابرات السوفيتية نفسها...

كانت الخطة تعتمد على قصف أهم القواعد الجوية في (كوبا)، قبل الإنزال البرى بيومين، بوساطة طائرات تحمل شعار الطيران الكوبى، ويقودها طيارون كوبيون، وفي صباح يوم الإنزال البري، يتم توجيه ضربة أكثر عنفًا، للقواعد الجوية

نفسها، بهدف شل حركة القوات الجوية الكوبية، وتمهيد السبيل للتدخُّل العسكري، ثم قصف الجسور البرية وطرق المواصلات وخطوط القطارات، في العاصمة (هافانا) والمناطق المجاورة لها، وبعدها يتم إنزال قوات الكوماندوز الكوبية، التي درَّبتها المخابرات الأمريكية، عند خليج الخنازير، أو خليج (كوتشينوس)، كما يسميه الكوبيون، على أن تتكَّون تلك القوات من المرتزقة المأجورين، والعناصر المضادة للثورة الشعبية في (كوبا)، بحيث تبدو الولايات المتحدة الأمريكية خارج المنظور الإعلامي تمامًا، ويبدو الامر وكأنها عملية منظمة من القوات المسلحة الكوبية، وليست بتخطيط وتوجيه من الخارج...

ولقد كانت الخطة الاولى تعتمد على الإنزال في (تراينيداد)، في ساعات الصباح الأولى، ولكن تم استبدال الموقع بخليج الخنازير، والموعد بالليل بدلًا من الصباح؛ نظرًا لأن منطقة خليج الخنازير أصغر حجمًا، وأقل في تعداد السكان، كما أن سكانه سيقدمون الدعم للقوات القادمة، وفقًا لتقديرات الـ(CIA)... ولقد بدأ الفوج الأوَّل للهجوم الجوي، في صباح الخامس عشر من أبريل ١٩٦١م، بقاذفات (بي ٢٦) الأمريكية، التي قصفت القواعد الجوية في (كوبا)، وأحياء (هافانا)، و(سانتياجو)، والعديد من المناطق المجاورة، وعاد الطيارون وهم يعتقدون أن ضربتهم قد حققَّت أهدافها بنجاح... ولكن الواقع أن المعلومات التي تسرَّبت، جعلت جيش الثوَّار ينقل

العديد من الطائرات سرًا، إلى مطارات احتياطية بديلة، مما أنقذها من التدمير...

وعلى الرغم من هذا الإخفاق، لم يلغ الرئيس (جون ف. كينيدي)، خطة الإنزال البري، وإنما أصدر قرارًا بإلغاء الغارة الثانية، لذا فقد بدأ الإنزال بالفعل، على شواطئ (كوبا) ليلًا، واستمر حتى فجر يوم السابع عشر من أبريل، وانتشر المئات من المرتزقة على الشواطئ، وبدأوا الزحف إلى الداخل، عندما وجدوا أمامهم مفاجأة... الميليشيات الشعبية الكوبية كانت في انتظارهم، وتصدَّت لهم في عنف؛ لمنعهم من التقدَّم، لحين وصول الجيش الشعبي...

في نفس الوقت، قامت أربع طائرات نقل بإنزال ألف وخمسمائة وإحدى عشر رجلًا، ممن تم تدريبهم في (جواتيمالا)، عند خليج الخنازير، ومعهم كل المعدات والأسلحة، اللازمة للعملية، وبعد ساعتين، قامت خمس طائرات أخرى بإبراز مائة وسبعة وسبعين مظليًا؛ في محاولة للسيطرة على الطرق الرئيسية، إلا أن قوة المعلومات كانت تفوق قوة المناهضين للثورة؛ إذ أنه، وبناءً عليها، وضعت القوات المسلحة الثورية الكوبية خطة بالغة الدقة، نجحت بوساطتها في إيقاف تقدَّم المرتزقة الأمريكيين، واستعادة المواقع التي احتلوها... في اليوم التالي، الثامن عشر من أبريل، تم شن هجوم بست طائرات، على مواقع الميليشيات الكوبية، استخدم فيه الامريكيون الصواريخ، وقنابل النابالم الحارقة، وبلغ

عدد ضحايا ذلك الهجوم، ألف وثمانمائة من المليشيات الكوبية، إلا أن قدراتهم تزايدت، مع تدَّفق أعداد كبيرة منهم، ووصلهم السلاح والعتاد، وكبَّدوا المحتلين خسائر فادحة...

وفي التاسع عشر من أبريل، شن الامريكيون هجومهم الجوي الاخير، بأربع طائرات، نجح الكوبيون في اسقاط اثنتان منها، وقتل أربع امريكيين من طاقمها، ثم سرعان ما أسقطوا طائرة ثالثة، قبل نهاية النهار...

ومع غياب الدعم الجوي، حاولت قوات المرتزقة والمعارضين للثورة التراجع إلى الشاطئ، ولكن هجوم الميليشيات العنيف لم يسمح للسفن باستعادتهم، فاضطرت للانسحاب، ليأسر الكوبيون ألفًا ومائة وتسعة وسبعون شخصًا منهم، ويستولون على خمس دبابات (شيرمان) ثقيلة، وثمانية رشاشات كبيرة، ومئات من الأسلحة الفردية، من مسدسات ومدافع رشاشة وغيرها، بالإضافة إلى عشر سيارات نقل عسكرية، وأسلحة مضادة لطائرات...

ولقد اعترف الأسرى بأنهم من أنصار الحاكم المخلوع (باتستيتا)، وبأن المخابرات الأمريكية هي التي درَّبتهم، ووضعت خطة الهجوم، مما جعل وزير الخارجة الكوبي يقف في الأمم المتحدة، ليقول في قوة: « إنني أتهم الولايات المتحدة الأمريكية، أمام الرأي العام العالمي، بأنها شنت حربًا ضد (كوبا)، من أجل أن تمتلك ثرواتها من جديد، وتعيدها إلى التبعية لها...»...

وبعد تصريح وزير الخارجية الكوبي-آنذاك- (راءول روا)، في الجلسة السياسية الخاصة، في الأمم المتحدة، لم تستطع المخابرات الأمريكية التستر على فشلها الذريع، الذي لازمها حتى يومنا هذا... والتآمر على مصائر الشعوب، لعبة المخابرات الأمريكية دومًا، و...

لهذا حديث آخر.

***

في كتابه الشهير (لعبة الأمم) (Game Of Nations)، روى لنا رجل المخابرات الأمريكي السابق (مايلز كوبلاند)، كيف خطَّطت ونفَّذت المخابرات الأمريكية، بالتعاون مع المخابرات البريطانية، خطة الانقلاب على الرئيس الإيراني المنتخب ديمقراطيًا، قائد أوَّل ثورة مدنية حقيقية في (إيران)عام ١٩٥٣م..

لم يكن (محمد مصدَّق) عسكريًا، يضع النياشين أو الأوسمة، بل كان اقتصاديًا مدنيًا، تم انتخابه نائبًا برلمانيًا، عن دائرة (أصفهان) الإيرانية، عام ١٩٠٦م، وهو بعد في الرابعة والعشرين من عمره، وبعدها سافر (مصدَّق) إلى (فرنسا)؛ لاستكمال دراسته، ثم إلى (سويسرا)، التي حصل منها على شهادة الدكتوراه، في القانون الدولي، وعاد إلى (إيران)، ليتبوأ منصب وزير المالية، في حكومة (أحمد قوام السلطنة)، عام ١٩٢١م، ثم منصب وزير الخارجية، في حكومة (مشير الدولة)،

عام ١٩٢٣م، وبعدها أعيد انتخابه كنائب في البرلمان، عن الدائرة نفسها... ومع انتخابه للمرة الثانية، بدأ (محمد مصدَّق) حركة مناهضة لعسكرة الحكم، وقام بالتصويت ضد انتخاب (رضا خان) شاهًا على (إيران)، في تحد سافر مباشر للنظام القائم...

وفي عام ١٩٢٥م، ظهر نضوجه السياسي واضحًا، عندما أسس (الجبهة الوطنية)، أو (جبهة ملى)، مع الدكتور (حسين فاطمي)، و(أحمد زاركزادة)، و(على شاكان)، و(كريم سنجابي)، وصار قائدًا لها، وكان اهم أهدافها تأميم النفط الإيراني، وبالتحديد شركة النفط الأنجلو- إيرانية، والتي كانت تسيطر تقريبًا، على عالم النفط في (إيران) كلها... ولقد احتدم الصراع بين (محمد مصدَّق) والشاه (رضا)، مع بدايات أغسطس عام ١٩٥٣م، وعلى الرغم من استهتار الشاه بالأمر في البداية، وشعوره الرائف بقوته وقوة أمنه، إلا أنه سرعان ما أدرك قوة (مصدَّق)، فآثر الفرار إلى (إيطاليا)، عبر (العراق)، إلا أنه، وقبل فراره مباشرة، وقع قرارين هامين...

القرار الأوَّل بعزل (محمد مصدَّق)، والقرار الثاني بتعيين الجنرال (فضل الله زاهدى) في موقعه...

وعبر الاتصالات المباشرة مع الشاه، بدأت المخابرات الأمريكية في دراسة الموقف في (إيران)، مع المخابرات الانجليزية، التي أقلقتها فكرة تأميم شركات النفط الأنجلو- إيرانية، وتم الاتفاق على أن يتولى ضابط المخابرات الأمريكي (كيرميت

روزفلت) تدبير انقلاب عنيف، يطيح بحكومة (مصدَّق)، ويساعد الشاه على العودة إلى (إيران) منتصرًا، مقابل إلغاء قرار تأميم شركات النفط، ومنح نسبة كبيرة منها للشركات الأمريكية، وبدأ (كيرميت روزفلت) في وضع خطة الانقلاب، عبر عملية أطلق عليها اسم (عملية أجاكس) (Operation Ajax)...

وفي نفس الوقت، الذي قصف فيه الجنرال (زاهدي) منزل (محمد مصدَّق)، وسط مدينة (طهران)، بدأ (كيرميت روزفلت) في تنظيم حملة دعائية مناهضة لحكم (مصدَّق)، في وسائل الإعلام الإيرانية والعالمية، كما نجح في إقناع كبير زعران (إيران)- في ذلك الحين- (شعبان جعفري)، بالسعي للسيطرة على الشارع الإيراني، ودفعه إلى القيام بتظاهرات في الشارع الإيراني، تريد هتافات رخيصة مهينة، تحط من قدر (مصدَّق)، وتسقط هيبته...

في نفس الوقت وضع خطة؛ لاغتيال الزعامات الإيرانية البارزة، المؤيدة للرئيس (محمد مصدَّق)، وأبرز قيادات (جبهة ملى)... وفي وضح النهار، وفي قلب الشارع، تم اغتيال الدكتور (حسين فاطمي)، على نحو أرهب الكثير من القيادات...

ومع تواصل (كيرميت روزفلت) في تنفيذ خطته، بدأت شعبية (مصدَّق) تتراجع بالفعل، وسيطرة الجنرال (زاهدي) تتزايد، حتى أتى الوقت، الذي صار فيه من الممكن أن يعود الشاه ظافرًا إلى (إيران).. ومع عودة الشاه، تم إلقاء القبض على (محمد مصدَّق)، في نفس الوقت- تقريبًا- الذي ألغى فيه قرار

تأميم شركات النفط، وأوفى الشاه بوعده، ومنح الأمريكيين نصيبًا كبيرًا في عالم النفط الإيراني، وبدأ نظامه الأمني (السافاك) في اعتقال كل من وقف إلى جانب (مصدَّق)... ولقد أقيمت محاكمة صورية للرئيس (مصدَّق)، وصفها المراقبون بأنها مهزلة قانونية، على كل المستويات، ووصفها (جليل بزركمهر)، محامي (مصدَّق)، بأنها لم تكن تتمتع بالحد الأدنى من الحيادية، أو الشروط القانونية السليمة...

وفي نهاية تلك المحاكمة الهزلية، صدر الحكم على (محمد مصدَّق) بالإعدام... وكانت صدمة للمجتمع الإيراني، وصدمة أخرى للمخابرات الأمريكية، فقد كان (كيرميت روزفلت) يرى، أن إعدام (مصدَّق)، سيحوله إلى أسطورة شعبية، وربما يساعد على إعادة ولادة (جبهة ملى) من جديد، لذا فقد سافر بنفسه إلى (طهران)، والتقى بالشاه العائد وأقنعه، أو ربما أجبره، على إصدار قرار بتخفيف الحكم على (مصدَّق)، من الإعدام إلى السجن الانفرادي لمدة عامين، ثم الإقامة الجبرية مدى الحياة، في قرية (أحمد أباد)، في شمال (إيران)...

وبينما كان الدكتور (محمد مصدَّق) يجتر ذكرياته، في منفاه الإجباري، كان (كيرميت روزفلت) يتباهى بنجاحه في تغيير مصير أمة كاملة، عبر سلسلة الخداع، التي رتبها بمنتهى الدقة، والتي استعان فيها بالشعب الإيراني نفسه، الذي منح آذانه للشائعات، التي نشرها (كيرميت) في المجتمع، وارتفع غضبه،

فتحَّول، دون أن يدرى، إلى سلاح في قبضة هذا الأخير، يحرِّكه وقتما وكيفما يشاء، ويصوِّبه إلى صدر كل من يشاء...

وهكذا روى لنا (مايلز كوبلاند) في كتابه التفاصيل، وروى لنا أيضًا كيف كانت المخابرات الأمريكية تصنع بديلًا، لكل شخصية عالمية، يمكن أن تتعارض معها يومًا، بحيث يمكن لتلك الشخصية البديلة، ان تفكِّر تمامًا كالشخصية الأصلية، وأن ترى الامور بنفس عيونها، وتعطي نفس ردود افعالها، حتى تكون مرآة اختبارية، لكل رد فعل منتظر، من كل زعيم عالمي، ووسيلة شديدة الفاعلية؛ لتحديد كيفية التعامل معه، وهدمه إذا ما اقتضى الأمر...

والحديث عن المخابرات الأمريكية يطول ويطول، والحديث عن تقنية التجسُّس التي تبتكرها، أو تسعى للاستفادة منها اطول، والحديث عن فنون الجاسوسية أطول وأطول... بكثير....

* * *

(١٢)

عالم المخابرات والجاسوسية عالم بلا حدود، بل هو عالم يتفرّد بأنه يسعى دومًا لتخطي كل الحدود، حتى حدود العقل البشرى نفسه، ولهذا، ففي منتصف الخمسينات، من القرن العشرين، كانت هناك تجربة عجيبة تجرى في الاتحاد السوفييتي، بوساطة فريق من علماء الطبيعيات، وتحت إشراف المخابرات السوفيتية (KGB) مباشرة، وفي سرية تامة...

الأمر الفريد والمميَّز، في تلك التجربة، هو أنها كانت تجري في مكانين في آن واحد، ودون أي اتصال مباشر...

ففي (موسكو)، جلس شاب سوفيتي بسيط، لم يتم تعليمه أبدًا، داخل حجرة من الرصاص السميك، القادر على حجب أية إشارات لاسلكية، وأمامه منضدة خشبية صغيرة، وضع فوقها رسم عشوائي، وضعه أحد افراد فريق العلماء المشرف على التجربة، دون تخطيط مسبق...

وكان كل المطلوب من ذلك الشاب، هو أن يحدِّق في ذلك الرسم العشوائي، ويفكِّر في شاب آخر، يجلس في ظروف مماثلة، داخل حجرة مشابهة، وتحت إشراف فريق علماء مشابه، وطاقم من المخابرات السوفييتية... وكانت أمامه منضدة صغيرة مماثلة،

فوقها ورقة وقلم..

الفارق الأساسي، كان أن الورقة لم تكن تحمل أية رسوم، بل كانت ورقة بيضاء تمامًا... أما الفارق الآخر، فكان أن ذلك الشاب الثاني، لم يكن في (موسكو)...

بل كان في (لينجراد)..

ولقد بقي الشاب الثاني يتطَّلع إلى الورقة البيضاء بضع لحظات، ثم لم يلبث أن أمسك القلم، وراح يخط رسمًا على الورقة، دون أن يفهم حتى ما يعنيه هذا الرسم...

الأمر العجيب، أن ذلك الرسم العشوائي، الذي وضعه شاب (لينجراد)، كان نسخة طبق الأصل من الرسم العشوائي، الذي رسمه أحد العلماء، ووضعه أمام شاب (موسكو)...

التجربة أدهشت علماء الطبيعيات إلى حد كبير، خاصة وأنهم يدركون أن الشابين لا توجد أية اتصالات مباشرة بينهما، وان المسافة بين (موسكو) و(لينجراد) تزيد عن ألفي كيلو متر، والرسم كان عشوائيًا وعفويًا تمامًا...

وبعد إعادة التجربة ست مرات، مع النتائج المدهشة نفسها، أدرك العلماء، وأدرك رجال المخابرات السوفييتية، أنه هناك رابط عقلي غير مفهوم بين الشابين، وهو ما أطلق عليه منذ زمن اسم (التخاطر العقلي)، أو (التليباثى)...

وعلى الرغم من أن هذا يخالف تمامًا طبيعة عمل المخابرات، إلا أن كل جديد، يمكن الإفادة منه فيه...

ولهذا، فقد استبقت المخابرات السوفيتية الشابين، في محاولة للبحث عن وسيلة الاستفادة من الاتصال العقلي بينهما، على نحو استخباراتي...

في البداية، وعندما تسَّربت المعلومة إلى المخابرات الأمريكية، بدا لهم أنه أمر لا يستحق مجرَّد التفكير، وأن المخابرات السوفيتية تسعى وراء خرافات، لا محل لها من الإعراب...

ولكن البحث في ملفات الحرب العالمية الثانية، أثبت أن علماء النازيين كانوا أوَّل من أولى اهتمامًا كبيرًا للظواهر فوق الطبيعية، وفوق النفسية، وأنهم أوَّل من سعى لاستغلالها، في عمل أجهزة مخابراتهم، خلال فترة الحرب...

وهنا بدأت المخابرات الأمريكية تأخذ الأمر بالجدية اللازمة...

وفي نهاية الخمسينيات، بدأت أولى تجاربهم على الاتصال العقلي...

ففي غوَّاصة أمريكية، وضع العلماء عددًا من أجنة الأرانب، وغاصوا بها إلى عمق كيلو متر كامل، تحت سطح الماء، في حين تركوا الأم في (واشنطن)، موصلة بأجهزة لقياس انفعالاتها...

وفي الغوَّاصة، تم ذبح أجنة الأرانب واحدًا بعد الآخر، مع تسجيل التوقيت بمنتهى الدقة...

وعندما عادوا إلى واشنطن، تبيَّن لهم أنه في كل مرة، يتم فيها ذبح أحد الأجنة، كانت الأرنبة الأم تصاب بحالة من الهياج

العصبي، في نفس التوقيت بالضبط، وبدقة مدهشة...

وأثبت هذا أن السوفييت لم يكونوا يعبثون، وأن التخاطر العقلي حقيقة، والأهم أنه موجود لدى كل البشر بنسب مختلفة، ولكنه لا يبرز إلا تحت عوامل خاصة، وضغوط بعينها...

ولقد سجَّلوا حالة لرجل، كان ينام في فراشه في هدوء، ذات ليلة من ليالي الشتاء، عندما سمع في وضوح صوت أقرب أصدقائه إليه يناديه، ويناشده المساعدة، فهب من نومه فزعًا...

ويبدو أن ما شعر به كان من القوة، حتى أنه نهض يرتدي ملابسه الثقيلة ومعطفه، ثم يستقل سيارته، ويقودها تحت المطر، لأكثر من خمسين كيلو مترًا، دون أن يدري لماذا يفعل هذا، ثم لم يلبث أن توقَّف عند نقطة بعينها، وغادر سيارته، ودخل إلى الغابة، عبر منحدر صغير، وكأنما هناك قوة تدفعه لهذا... العجيب أنه، بعد خمسين مترًا فحسب، وجد سيارة صديقه مقلوبة، وهذا الأخير لا يستطيع الخروج منها، بسبب ضغط مقعد القيادة على ساقه...

ولقد عاون الرجل صديقه، الذي اندهش بشدة لقدومه، وأخبره أنه في محنته، لم يفكِّر في سواه، ودار بخلده أن يطلب منه النجدة...

تلك الحالة سجَّلتها المخابرات الأمريكية، وتيقَّنت منها، إلا أنها لم تدر كيف يمكن أن تستفيد منها مخابراتيًا، أما علماء الطبيعيات، فقد توصلوا إلى قاعدة الاتصال العقلي الأساسية، والتي تتكَّون من مرسل ومستقبل...

ولقد تبيّن أن المرسل يجب أن يكون في حالة توتر شديد، تدفع (الادرنالين) إلى عروقه، وأطلقوا على هذه الحالة اسم (أدرينيرجيا) (Adrenergia)، أما المستقبل، فينبغي أن يكون في حالة استرخاء، يطلق مادة (الأستيل كولين) في عروقه، وهي مادة معاكسة للأدرينالين، وأطلقوا على هذه الحالة اسم (كولينرجيا) (Cholenergia)...

العلماء توصلوا لمعادلة الاتصال العقلي، ورجال المخابرات، سواء الأمريكية أو السوفيتية، لم يتوصلوا إلى كيفية الاستفادة منها...

أو أنهم قد توصلوا، إلا أنهم لم يفصحوا، واعتبروا هذا أحد أهم أسرارهم، التي قد لا تنكشف أبدًا، في عالم المخابرات، الذي لا يعرف أية حدود..

حتى حدود التعامل مع أسطورة الأطباق الطائرة...

ولهذا رواية أخرى...

* * *

في عام ١٩٤٧م، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، بعامين فحسب، كان رجل الأعمال الأمريكي (كينيث أرنولد) يقود طائرته الخاصة، عندما انتبه إلى تشكيل من سبع أجسام مستديرة، يلاحقه على نحو منتظم.. وكان ذلك التشكيل لا يشبه أية طائرات عرفها من قبل، كما كان يتخذ شكلًا أشبه بتشكيل المقاتلات الأرضية المعروفة...

ولقد لاحقه ذلك التشكيل لما يزيد على الدقيقة الواحدة، وعندما أراد الدوران لمواجهته، ارتفع ذلك التشكيل فجأة، على نحو عمودي مباشر، يستحيل فيزيائيًا أن تقوم به أية مركبة طائرة أرضية، وانطلق إلى أعلى بسرعة خرافية، قبل أن يختفي تمامًا...

ولقد أبلغ (كينيث أرنولد) المسئولين ووكالات الأنباء بما شاهده، وعندما سأله أحد الصحفيين، عن شكل مركبات ذلك التشكيل، أخبره (أرنولد) أنها تشبه أطباقًا مقلوبة..

ومن هنا، برز إلى العالم، ولأوَّل مرة، مصطلح (الأطباق الطائرة)؛ لوصف تلك الأجسام مجهولة الهوية، التي راح الكل يصفها بأنها مركبات فضائية من عالم آخر، لزوَّار أتوا لكشف كوكب الأرض، وسرى هذا التفسير في كل الأوساط، وقنع به البعض قناعة شديدة، في حين رفضه البعض الآخر في شدة، ونفته القوات الجوية الأمريكية، وأكَّدت أن راداراتها لم ترصد شيئًا، في الموقع الذي أشار إليه (أرنولد)... وقبل أن ينحسم هذا الجدل، أعلنت بعض الصحف المحلية، في بلدة (روزويل)، بولاية (نيومكسيكو)، عن سقوط جسم مجهول الهوية في أطراف البلدة، وتحطمه، ورصد جثث لثلاث كائنات فضائية، متناثرة حوله...

وسرعان ما كانت القوات الأمريكية تحيط بمنطقة سقوط ذلك الجسم، وتعلن أنه بالون اختبار، سقط بسبب عطل فني، في حين تساءل العديدون عن مدى أهمية ذلك البالون، حتى تضرب القوات الأمريكية حصارًا على المنطقة كلها، على هذا النحو!...

ولسنوات وسنوات، راحت المخابرات الأمريكية تلعب مع الشعب الأمريكي، لعبة القط والفأر، في شأن الأطباق الطائرة، أو الأجسام الطائرة مجهولة الهوية؛ فلا هي تعلن الحقائق، ولا هي تنفيها، وكأنها تريد أن تشغل الشعب الأمريكي بقضية بلا حل، أو أنها تحاول إخفاء أمر آخر...

ومضت عقود في هذه اللعبة، حتى فوجئ العالم كله بفيلم تسجيلي، لم يكن معروفًا من قبل، قلب قصة الأطباق الطائرة وسكان الفضاء رأسًا على عقب...

الفيلم يثبت أن الأطباق الطائرة، كانت أهم المشاريع النازية، في زمن الحرب العالمية الثانية، وأكثرها سرية وخطورة... وعبر مجموعة من اللقطات التسجيلية القديمة، يرصد لنا الفيلم أوَّل طبق طائر، صمَّمه علماء النازية، في بداية الأربعينيات، والذي هو صورة طبق الأصل، من مشاهدات الأطباق الطائرة، التي سجلها كتاب شهير، جمع كل تلك المشاهدات، في الخمسينيات والستينيات، تحت عنوان (الكتاب الأزرق)... ولقد ابتكر علماء النازية تلك المركبة، مع بدايات الأربعينيات، وكانوا يعتمدون في تسييرها، على الدفع الهوائي، والمجالات الكهرومغناطيسية، التي تتنافر مع جاذبية الأرض، فتؤمن لها سرعة الانطلاق، والقدرة المدهشة على تغيير المسارات، إلا أن التكنولوجيا المتاحة في ذلك الحين، لم تسمح بإنتاج الأطباق الطائرة وتشغيلها، كسلاح فعَّال في فترة الحرب...

ومع سقوط (ألمانيا) النازية، لم يكن مشروع الأطباق الطائرة قد اكتمل بعد، وكان قد أضيف إليه مشروع آخر، عرف باسم (الجناح الطائر)، وهو عبارة عن طائرة شديدة السرعة، انكمش جسمها إلى الحد الأقصى، وصارت أشبه بجناحين بلا جسم، مما يجعل مقاومة الهواء لها أقل مما ينبغي، ويمنحها قدرة على المناورة، لا تملكها أية مقاتلة عادية، من التي كانت معروفة في ذلك الحين...

وعقب سقوط النازية، قام مكتب الخدمات الاستراتيجية، وهو الأب الأوَّل لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، بالتحفُّظ على طاقمي علماء المشروعين بالكامل، مع كل الرسوم والتصميمات الأوَّلية، وتم نقلهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية...

وعلى الرغم من تسجيل وصول طاقمي علماء المشروعين، فقد اختفوا جميعًا، دون أي أثر، بعد وصولهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية بأيام، ولم تعلن السلطات الأمنية الأمريكية، أو يعلن مكتب الخدمات الاستراتيجية أي أمر بشأنهم...

وبعدها بعامين فحسب، بدأت مشاهدات الأطباق الطائرة، في كل أنحاء (أمريكا)...

وبعد سنوات قليلة، ومع حلول المخابرات الأمريكية، محل مكتب الخدمات الاستراتيجية، أجرت القوات الجوية الأمريكية تجاربها، على طائرات من طراز جديد، هو عبارة عن جناح طائر، له جسم يحتل أصغر مساحة ممكنة...

تمامًا مثل تصميمات مشروع (الجناح الطائر) النازي، إلا أن تلك التجارب لم تؤت النتائج المتوقّعة، وأشار بعض رجال المخابرات الأمريكية السابقين، إلى أن جهاز المخابرات الأمريكي، قد اعتبر المشروعين النازيين سرًا حربيًا، من أهم وأخطر الأسرار، الخاصة بالأمن القومي الأمريكي، ورفضت كل محاولات الكشف عنهما، حتى مع طلب بعض الرؤساء الأمريكيين هذا...

ولقد تواصل مشروع (الجناح الطائر)، حتى تحوَّل فيما بعد إلى (الطائرة الشبح)، والتي لو قارناها بالمشروع النازي، لوجدنا تشابهًا كبيرًا، يكاد يبلغ حد التطابق...

أما الأطباق الطائرة، فقد ظلَّ كل ما يتعلَّق بها سرًا، أخفته المخابرات الأمريكية، حتى عن العديد من الرؤساء الأمريكيين المنتخبين، وآخرهم الرئيس الأمريكي (باراك أوباما)، الذي وعد في حملته انتخابه، بالكشف عن كل الأسرار المتعلقة بالأجسام الطائرة مجهولة الهوية، وحادثة (روزويل)، إلا أنه لم يفعل أبدًا، ولم يفصح حتى عن سبب ذلك، بل تجاهل الأمر برمته؛ لأن المخابرات الأمريكية أقنعته بأن الأمر أكثر سرية وخطورة، من أن يتم الإفصاح عنه...

وفي أوائل تسعينيات القرن العشرين، قامت مجلة (أومني) (Omni)، وهي مجلة علمية، ذات صدى بالغ الاحترام، بحملة لجمع مليون توقيع، من المواطنين الأمريكيين؛ لمطالبة المخابرات

الأمريكية بكشف أسرار الأطباق الطائرة وحادثة (روزويل)، ونجحت في جمع مليون وثلاثمائة ألف توقيع بالفعل، إلا أنها أيضًا لم تنجح في دفع المخابرات الأمريكية إلى كشف السرين، مما جعل أحد المحليين يقول: إن هذا يثبت أن ما نطلق عليه اسم (الأطباق الطائرة)، ليس سوى مشروع عسكري بالغ السرية، لن يتم الإعلان عنه، إلا عند اكتماله.... ولهذا نقول: إن عالم المخابرات والجاسوسية عالم بلا حدود...

وفنونه لا تنضب ولا تنتهي، وهي ترتبط بما ندركه، وأيضًا بما لا ندركه، والتكنولوجيا تلعب فيه دورًا بارزًا، بدليل أن برنامج الفضاء الأمريكي ليس يدار لأغراض علمية فحسب، بل وعسكرية أيضًا...

ولهذا رواية قادمة.

* * *

عندما بدأت الولايات المتحدة الأمريكية، في مد كابلات، بينها وبين (اوروبا)، تحت المحيط الأطلنطي، كان الغرض المعلن لهذا هو تسهيل الاتصالات الهاتفية بين القارتين، ثم لم يلبث أن تحوَّل إلى نقل الاشتراكات التليفزيونية أيضًا...

إلا أنه كان من المستحيل أن يحدث أمر كهذا، دون أن تدس المخابرات الأمريكية أنفها فيه، وتضيف إليه وسيلة اتصال مباشرة، بينها وبين عملائها، في كل أنحاء (أوروبا)...

ففي ذلك الزمن، مع نهايات الخمسينات وبدايات الستينات،

كان الصراع بين القوتين العظميين قد بلغ مداه، وكانت كل منهما تسعى للسيطرة على القسم الأعظم، من كعكة العالم كله؛ لضمان وجودها، ووجود وانتشار سياستها وفكرها، في أكبر مساحة ممكنة، وبالذات بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية، وقد ضمَّ الاتحاد السوفيتي إليه (أوروبا) الشرقية، ونصف (ألمانيا)، في حين فاز الحلفاء الباقون بالنصف الآخر من (ألمانيا)، إلى جوار قواعد عسكرية في (إيطاليا)، وفي (اليابان) أيضًا...

ولأن كل قوة كانت تدرك أن القوة الثانية تتربَّص بها، وتسعى لإسقاطها، فقد صار صراع المعلومات هو الساحة الرئيسية، التي يتقاتل عندها الجميع، حتى أنه ذات يوم، وبمصادفة بحتة، كشفت السفارة الروسية في (باريس)، وجود نفق كامل أسفلها، صنعته المخابرات الأمريكية؛ للسيطرة على كل كابلات الهاتف، المتصلة بالسفارة الروسية؛ حتى يمكن رصد أية مكالمات صادرة منها، أو واردة إليها...

وكم كانت دهشة المخابرات الفرنسية نفسها، أن تم كل هذا العمل، تحت ستار الإصلاحات والإنشاءات الحكومية، دون أن ينتبه أحد، حتى تم إكمال مركز رصد كامل، يحوي أحدث الأجهزة، بمقاييس ذلك الزمن، أسفل السفارة الروسية، وتم نقل كافة المعدات إليه، في وضح النهار، عبر فتحات الصرف، وبوساطة عملاء يرتدون الزي الرسمي لعمال الصيانة الفرنسيين!!...

في نفس الفترة، أهدت السفارة البريطانية في (اسبانيا)،

ساعة حائط أنيقة، إلى السفير الروسي هناك.. وكإجراء أمنى تقليدي، تم فحص الساعة بمنتهى الدقة، واتفق كل الفنيين الذين فحصوها، على أنها مجرَّد ساعة حائط عادية، حتى أن السفير الروسي قد وضعها في مكتبه شخصيًا...

وبعد عامين كاملين، كشف السوفييت أنه ما إن يتم توصيل التيار الكهربي إلى تلك الساعة، حتى يعمل جهاز بسيط داخلها، ينقل كل الذبذبات الصوتية التي تصدر في حجرة السفير، بما فيها محادثاته الخاصة والسرية للغاية، عبر شبكة أسلاك الكهرباء في المبنى، إلى عميل في قسم الصيانة والمتابعة، يعمل في قبو المبنى، والذي كان يقوم بتسجيل كل ما يصله، ثم يسلمه لمندوب المخابرات البريطانية، الذي ينقله بدوره إلى القسم الفني في (لندن)، حيث يتم تحويل الذبذبات إلى صوت مسموع، ينقل إلى البريطانيين كل أحاديث السفير، وكل ما يدور في مكتبه...

ولقد استمرت حرب المعلومات هذه لسنوات، كان الطرفان يعملان خلالها على تطوير الصواريخ، وإنفاق عشرات المليارات على أبحاث الفضاء، التي كان الغرض المعلن لها هو الكشف العلمي لأسرار الكون، في حين كان الغرض الأهم، والذي لم يعلن كلاهما عنه صراحة، هو إيجاد وسيلة مراقبة فضائية شاملة للطرف الآخر....

وفي دستور وكالة (ناسا) الفضائية الأمريكية، (NASA)، والتي أنشئت عام ١٩٥٧م، بتمويل سنوي يقدَّر بستة عشر مليار

دولار، وهو مبلغ يساوى ميزانيات دول في ذلك الحين، تحديد لدور تلك الإدارة الوطنية للملاحة الفضائية والفضاء، بأنها مسئولة عن البرنامج الفضائي، بالإضافة إلى مسئوليتها عن الأبحاث المدنية والعسكرية الفضائية طويلة المدى، وهذا يعني، وبكل وضوح، أن دورها يتجاوز البحث العلمي، إلى دور عسكري فضائي، يتعلَّق بإطلاق أقمار التجسَّس، التي تدور حول الكوكب كله، ويمكنها رصد أية تحركات عسكرية، لتمنع حدوث أية هجمات مفاجئة، كتلك التي وجهها سلاح الطيران الياباني للأسطول الأمريكي، في ميناء (بيرل هاربور)، والتي كانت السبب الرئيسي في دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية...

ومنذ أطلقت الأقمار الصناعية حول الأرض، بدأت حقبة جديدة من حقبات التجسَّس، وصار من الصعب إخفاء أية تحركات عسكرية كبيرة، إلا لو تمت عبر برنامج مناورات منتظم، يمكن لتلك الأقمار رصده، دون تفسير الهدف الأساسي منه...

ولقد كانت المخابرات الأمريكية تتبادل صور الأقمار الصناعية مع (الموساد) الإسرائيلي، طوال حقبة الستينات، وحتى قرب نهاية السبعينات، عندما استغل (الموساد) تلك الصور، في ترتيب ضرب المفاعل النووي العراقي (أوسراك)، دون الرجوع إلى المخابرات الأمريكية...

وهنا صدر قرار بمنع منح صور أقمار التجسُّس الأمريكية لجهاز (الموساد)، إلا في حدود خمسة وأربعين ميلًا، من (تل أبيب)،

باعتبار أن هذه المساحة تكفي لحماية الأمن القومي الإسرائيلي....

ولم يعجب هذا القرار الإسرائيليين بالطبع، وحاولوا جاهدين إلغاءه، إلا أن الرد جاءهم أن الأمن القومي الأمريكي يتعارض مع هذا...

وهنا لجأ (الموساد) إلى لعبته التقليدية، فجمع كل المعلومات عن العاملين في رصد وتحليل صور الأقمار الصناعية التجسسية الأمريكية، ونجحوا في الإيقاع بأحدهم، وتجنيده للعمل لحسابهم، بحيث ظل لأكثر من سبع سنوات، ينقل إليهم سرًا صور الأقمار الصناعية، التي تتجاوز المساحة المسموح لهم بها...

في تلك الفترة، انتبهت المخابرات الأمريكية إلى أن التحركات السياسية والعسكرية الإسرائيلية، تتم على نحو يوحي بحصولهم على ما يتجاوز مساحة الأميال الخمسة والأربعين المسموح بها، فقامت بمتابعة ومراقبة ومراجعة كل العاملين في هذا المضمار، إلى أن تم كشف ذلك الجاسوس، في موقع شديد الأهمية، يتيح له الاطلاع على كل صور أقمار التجسَّس بلا استثناء، وتم إلقاء القبض عليه، وكان هذا سببًا في حدوث أزمة ديبلوماسية محدودة، بين (إسرائيل)، والولايات المتحدة الأمريكية...

ولكن عالم الجاسوسية والمخابرات، لا يختلف كثيرًا عن عالم السياسة، من حيث إنه لا يتم فيه قطع كل العلاقات، من منطلق تجاوز أحد الأطراف، وإنما يتم وضع ضوابط جديدة للتعامل...

هذا لأن عالم الجاسوسية والتخابر عالم شديد التعقيد إلى حد

يصعب وصفه...

ولهذا قصة أخرى.

* * *

جندي بسيط، في الجيش الإسرائيلي، يجلس في أحد مناطق خط (بارليف)، في بداية السبعينات، خرج لتدخين سيجارة، بالقرب من الساتر الترابي، الذي يحمى خط (بارليف)، ويطل على الشاطئ الآخر لقناة (السويس)، حيث تمركزت قوات الجيش المصري آنذاك...

وفي سرعة، وعندما صار وحيدًا، أخرج الجندي الإسرائيلي من جيبه كيسًا صغيرًا، وضع فيه بعض تراب الساتر، ثم دسه في جيبه، وعاد إلى مكانه، داخل خط (بارليف)، ونام ملء عينيه...

مندوبون من وزارة الزراعة المصرية، زاروا (ألمانيا)، للتعاقد على مضخات مياه جديدة، تملك من القوة ما يكفي لري مناطق كبيرة من الحقول، بالسرعة المناسبة...

شاب فرنسي تقدَّم بطلب عمل، في أحد مصانع الكيماويات الفرنسية، وجذب انتباه رؤسائه؛ بنشاطه الملحوظ، وعقليته التي تفوق مستواه الدراسي، حتى أنه انتقل للعمل في قسم خاص، يقوم بتصنيع مادة حارقة معقدَّة التركيب...

رجل في الأربعينات من عمره، انضم إلى طاقم العمال، في مصنع بلجيكي؛ لصنع المضخات الماصة الكابسة، وساهم في استكمال شحنة من تلك المضخات، مرسلة إلى الشرق الأوسط...

رجل أعمال إسرائيلي، تربطه علاقات طيبة، بعدد من السياسيين والعسكريين الإسرائيليين، يوقّع عقدًا لبعض التركيبات المهمة، في قلب (سيناء)...

وفي المخابرات المصرية، تجتمع كل هذه المعلومات...

عينة الرمال، التي أرسلها المجنَّد الإسرائيلي إلى فتاته في (روما)، وعينة المادة الحارقة، التي أرسلها الفرنسي الشاب من (باريس)، إلى (لندن)... وتركيبة المضخات الماصة الكابسة، التي أرسلها الرجل البلجيكي، على ميكروفيلم دقيق...

ووصول شحنة المضخات الزراعية، التابعة لوزارة الزراعة... ويبدأ رجال المخابرات في تحليل العينات...

عينة تربة الساتر الترابي، حدَّدت القوة الدافعة، اللازمة لإذابته في مياه القناة....

وهكذا، اشتركت العينات الترابية، مع مضخات وزارة الزراعة، التي انتقلت إلى الجيش، في إزالة الساتر الترابي، مع اندلاع حرب ١٩٧٣م...

أما عينة المادة الحارقة، وتركيبة المضخات الماصة الكابسة، فقد ساعدت على إجراء تجارب عملية، في نيل (حلوان)، على مواجهة النابالم، الذي قال الإسرائيليون أنهم سيضخونه، على سطح القناة، في حالة محاولة المصريين عبورها...

التجارب انتهت إلى تدمير تسعين في المائة من موجة الهجوم الأولى، لو تم ضخ النابالم بالفعل...

وهنا جاء دور رجل الأعمال، الذي يحيا بهوية إسرائيلية منذ سنوات، متخليًّا عن هويته المصرية الأصيلة، ودون أن يتخلَّى، ولو لحظة واحدة عن انتمائه لوطنه الأصلي (مصر)...

وعبر رجل الأعمال هذا، وصلت خريطة أنابيب النابالم، إلى المخابرات المصرية...

وفي فجر السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، بدأت عمليتان هما الأخطر والأهم، في تلك الحرب...

العملية الأولى انزلت فريقًا من الكوماندوز، في قلب (سيناء)، لقطع أنابيب النابالم، بحيث يضخ السائل الحارق في قلب الرمال، وليس في القناة...

أما العملية الثانية، فقد قام بها رجال الضفادع المصرية؛ لسد فتحات النابالم، بحيث لا يصل السائل الحارق إليها، مهما كانت الاحتمالات...

وعندما بدأ عبور قناة (السويس)، أسرع الإسرائيليون يضغطون أزرار تشغيل مضخات النابالم الماصة الكابسة، التي صنعتها المصانع البلجيكية خصيصًا من أجلهم...

وعملت المضخات بكل كفاءة... ولكن النابالم الحارق لم يصل إلى سطح القناة، فالأنابيب مقطوعة، والفتحات مسدودة... ونجح العبور، بأقل خسائر يمكن تصوُّرها...

هكذا يكون عمل أجهزة المخابرات دومًا... أفعال عديدة، في أماكن شتى، تجتمع كلها على مائدة المعلومات والتحليل،

وتخرج بنتائج شديدة الأهمية والخطورة...

والشخص العادي، لا يمكنه أبدًا فهم ترتيب الأحداث، الذي يقود إلى النتائج؛ فهو يرى دومًا خطوة واحدة، قد تبدو له بلا معنى، أو بلا قيمة، ولكن ضباط الحالة، الذين يديرون اللعبة كلها، هم الذين يرون الصورة الكاملة، والذين يستطيعون ربط الأمور ببعضها البعض؛ للوصول إلى النتائج المنشودة...

تمامًا مثل لعبة البازل...

كل قطعة منها، لا يمكنها أن توحي لك بالصورة الكاملة، مهما حاولت؛ لأنك لا ترى سواها...

ولكن المسئول عن جمع القطع، ورصِّها إلى جوار بعضها البعض بالوسيلة الصحيحة، هو الذي يستطيع رؤية الصورة الكاملة...

وهذا ينطبق على رجال المخابرات أنفسهم، فيما عدا ضابط الحالة، المسئول عن الصورة الكاملة للعملية...

ففي المخابرات قاعدة أساسية تقول: « المعرفة بقدر الحاجة»....

وهذه القاعدة تعني، أنه إذا ما تولَّى شخص ما، مهمة بعينها، فله كل الحق، في معرفة وجمع كل المعلومات اللازمة؛ لأداء مهمته على أكمل وجه، ولكن ليس من حقه السؤال عن سبب قيامه بمهمته تلك، أو عن علاقتها بالصورة الكاملة...

وهذه القاعدة تتبعها كل أجهزة المخابرات، في كل مكان

في العالم، والغرض منها هو الحفاظ على أقصى درجات السرية للعملية، والتي تضم، أو ربما تضم، عددًا لا بأس به من المهام الصغيرة أو الكبيرة، فكل شخص يقوم بمهمته فحسب، على أكمل الوجوه؛ ليساهم بقطعة من البازل، الذي يقوم بتكوينه ضابط الحالة، وهو ضابط المخابرات المسئول عن العملية الكاملة، والذي يقوم بتوزيع المهام وتحديدها، وفقًا للخطة التي وضعها مع فريقه، بحيث تقوم كل المهام بخدمة الغرض الأساسي للعملية، حتى ولو بدت متباعدة، وغير مترابطة، بهدف منع العدو من معرفة، أو حتى استنتاج الهدف الرئيسي للعملية...

وكلما ازداد تعقيد المهام وتباعدها الظاهري، زادت حيرة العدو في فهمها، وفي تحليلها بالتالي...

وفي بعض الأحيان، تكون من بين تلك المهام ما ليست له أية صلة مباشرة بالعملية الرئيسية، وهذا لكي يحاول العدو وضع تحليلاته مستندًا إليها، في حين أن الهدف الرئيسي منها هو إرباكه، ودفعه إلى جانب يخالف الهدف الرئيسي تمامًا...

وهذا هو أعظم فن من فنون عالم الجاسوسية والمخابرات...

التمويه والإرباك، هو فن أيضًا شديد التعقيد...

وله حديث آخر.

* * *

كيف تربك الخصم؟!...

ربما يكون هذا أحد اهم فنون عالم المخابرات والجاسوسية،

والفن الذي يعتمد عليه نجاح تسعين في المائة من عمليات التجسَّس، التي تدور في شتى أنحاء العالم بلا انقطاع، وطوال الوقت...

فلعبة المخابرات أشبه بمباراة قوية في الشطرنج، بين بطلي العالم، كل منهما يدرك جيدًا كل فنون اللعبة، وكيفية الاستفادة إلى أقصى حد، من حركة كل قطعة على الرقعة، وكل منهما يحاور ويناور، وهو يدرك أن الطرف الآخر يراقبه في دقة، ويدرك اللعبة كما يدركها، وعليه أن يسعى لتشتيت انتباهه، وخداعه بحركات جانبية، حتى يلتف حول ذكائه، ويربح المباراة...

وفي هذا الصدد، تستطيع أن تقول: إن ألعاب عالم المخابرات تشبه ألعاب الحواة، عندما يضع الحاوي شيئًا في يده أمام عينيك، ثم يحرِّك يده في سرعة، ويفتحهما فتجد أن ذلك الشيء قد اختفى، قبل أن يعود هو إلى إظهاره، فيبهرك بلعبته...

وطرق الإرباك والالتفاف في عالم المخابرات هي فن ما بعده فن...

عندما يقوم جهاز مخابرات بعملية كبيرة مثلًا، وتحتاج إلى عدد من العمليات الفرعية لبلوغها، فقد يقوم في الوقت ذاته بعملية لا تنتمي بصلة للعملية الأصلية، من خلال عملاء لا يمثلون له أهمية ذات شأن، ويسير فيها على نحو يمكن كشفه، بحيث يقوم بجذب انتباه العدو إلى هدف زائف، يرصده، ويسعى إليه، ويضع الخطط للسيطرة عليه، وينشغل به، مما يمنح جهاز المخابرات الأساسي الفرصة لبلوغ هدفه الحقيقي، من خلال العملية الأصلية، التي تدار بشكل جديد، شديد التعقيد والتركيب...

وفي أحيان أخرى، يتم تجنيد جاسوس، ليس بغرض الاستفادة منه، وإنما بغرض كشفه، كتغطية لعميل آخر أكثر أهمية، ففي إحدى العمليات، خلال الحرب العالمية الثانية، دفع البريطانيون عميلًا المانيًا إلى القيام بمهمة محدودة، ثم جعلوا عميلهم الأساسي يكشف أمره، بحيث يكتسب العميل الأساسي المصداقية، ويثبت أنه وطني مخلص لبلاده...

في تلك العملية، كان العميل الأقل شأنًا هو الضحية، ولكن دعونا لا ننسى أن المخابرات البريطانية لم تتورع عن دفع (اليابان) إلى مهاجمة ميناء (بيرل هاربور) الأمريكي، والذي راح ضحية الهجوم عليه أكثر من ألف وخمسمائة شخص، وخسرت فيه (أمريكا) سبعين في المائة من قطع أسطولها، فقط لتدفع (أمريكا) إلى دخول الحرب العالمية الثانية، بجنودها وأسلحتها...

اللعبة الأكثر فاعلية، في فن المراوغة وإرباك العدو، هي عندما تكشف المخابرات جاسوسًا قويًا، يثق العدو فيه وفي قدراته، وتدرك أنه ينقل إلى العدو معلومات بالغة الأهمية، ثم لا تلقي القبض عليه، وإنما تستخدمه كوسيلة للإرباك والتشويش..

تمامًا كما حدث في حالة (إبراهيم سعيد شاهين) و (انشراح على موسى)، اللذين جندهما الإسرائيليون في (سيناء)، ثم ساعدوهما على الانتقال إلى (القاهرة)، خلال فترة ما بعد نكسة ١٩٦٧م، وما قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣م...

وفور انتقالهما إلى (القاهرة)، بدأ الجاسوسان في عقد عدد

كبير من الصداقات، في محيط سكنهما، وعدد أكبر من العلاقات، عبر عملهما وتجارتهما الوهمية، وخاصة مع بعض المجندين وعمَّال المطارات؛ للحصول على البيانات والمعلومات، عن تحركات الجيش، وتسليحه واستعداداته، وسرعان ما كشف ابنهما الأكبر (نبيل) ما يفعلانه، مما جعله يطالبهما باقتسام التورتة، فزادوا من مصروفه، وطلبوا منه معاونتهم في لعبة التجسُّس، ثم سرعان ما ضما إليهما ابنهما الأصغر (محمد) أيضًا، لتتحوَّل العائلة كلها إلى مستنقع خيانة كبير...

وعلى الرغم من أن (نبيل) قد بذل قصارى جهده؛ لجلب البيانات والمعلومات، حتى يثبت أنه مناسب للعمل، وحتى يمكنه المطالبة بمزيد من المال، إلا أنه ارتكب أكبر غلطة، يمكن أن يرتكبها جاسوس، فقد راح ينفق عن سعة، بما لا يمكن أن يتناسب مع دخل الأسرة ووضعها، مما جذب انتباه عيون صقور المخابرات المصرية، وجعلهم يتساءلون عما تفعله تلك الأسرة...

وفي منتصف عام ١٩٧٢م، كشفت المخابرات المصرية اللعبة، وعلى الرغم من هذا، فهي لم تلق القبض على أي من أفراد تلك العائلة المسمومة...

لقد قرَّر صقور المخابرات التعاون معهم، على نحو خفي، لكي يحوِّلوهم من جواسيس، إلى سلاح ممتاز لإرباك العدو، ودفع المعلومات الخاطئة إليه...

ولقد كانت سعادة (نبيل) غامرة، عندما التقى بأحد

المجندين، الذين يقضون مدة خدمتهم على الجبهة، فعمل على توثيق صداقتهما، وبدأ يدعوه إلى المنزل، ويقضي معه سهرات خارجية أيضًا، وينفق عليه بسخاء؛ حتى يحصل منه على كل المعلومات عن الجبهة واستعداداتها، وعن إجابة السؤال، الذي ظل يشغل (إسرائيل) طوال ست سنوات كاملة...

هل تستعد (مصر) لشن حرب ثأرية أم لا ؟!...

ولقد كان ذلك المجنَّد ساذجًا طيب القلب، ما إن تلقى عليه مجرَّد استفسار، حتى يثرثر بكل ما يعلمه دون تحفُّظ، ولهذا عمل (نبيل)، وعملت الأسرة كلها على تقريبه منها، وضمان استمرار علاقته بها...

والواقع أن ذلك المجنَّد الساذج الطيب البسيط، كان أحد رجال المخابرات العامة، والذي انتحل تلك الصفة؛ حتى يصبح عينًا للجهاز، داخل منزل العائلة المسمومة، وحتى ينقل إليهم بعض المعلومات الكاذبة، التي يدسُّها بين معلومات صحيحة، تصل عبر جواسيس الأسرة إلى العدو، فيبني عليها كل حساباته، مما يربك خطته، ويفسد معلوماته...

ولقد كان أهم دور قام به المجنَّد الزائف، هو اقناع (نبيل) و(إبراهيم) و(انشراح)، بأن كل شيء على الجبهة يوحى بأنه لا حرب قادمة، ولو بعد خمس سنوات....

ثم قامت حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وكانت صدمة عنيفة للإسرائيليين، أثبتت أن صقور المخابرات المصرية هم الأذكى والأبرع،

والأقدر على استخدام وإدارة لعبة الإرباك والخداع والمراوغة...

وبعدها بشهور قليلة، صدر أمر بإنهاء عملية (إبراهيم) و(انشراح)، فتم القبض على العائلة المسمومة، وصدرت الأحكام العادلة على من خانوا الوطن...

هكذا تدور اللعبة...

وهكذا يكون الفن...

والحديث عن فنون المخابرات لا ينتهي، ولكن لا يمكن التوقّف هنا، دون الإشارة إلى فن أخير...

أخطر فن.

* * *

الجاسوسية فن...

والجاسوسية المضادة أيضًا فن...

ومن أهم وأخطر فنون الجاسوسية المضادة، ضرب علاقة المهابة والاحترام، بين الشعب وجهاز مخابراته، مما يقطع الصلة بينهما، ويجعل المواطن يشعر، وكأن جهاز مخابراته، الذي يفترض منه أن يحمى أمنه، ويصون أسراره، ويكون درعًا دائمًا في وجه أعدائه، وسيفًا يحول بينهم وبين أمن الوطن وسلامته، هو جهاز فاسد، وخائن...

على الرغم من أن هذا مستحيل عمليًا...

هذا لأن فساد جهاز المخابرات لا يعنى ضعف المخابرات فحسب، ولكنه يعنى انهيار كل كيان الدولة تدريجيًا، حتى لا

يعود لها كيان أو وجود، وسط عالم متصارع، متلاطم الأمواج في عنف، تدور فيه حرب الجاسوسية والمخابرات طوال الوقت بلا انقطاع أو توقف، ولو لثانية واحدة....

ومادامت الدولة، أية دولة، قائمة، يجد فيها الناس قوت يومهم، زاد أو نقص، فهذا يعني أن جهاز مخابراتها – أيًا كان – يعمل بكفاءة، ويواصل حمايتها بنجاح...

هذا لأن عمل أجهزة المخابرات، مع سريته البالغة والدائمة، ضرورة حتمية؛ لبقاء أية دولة، وهو أشبه بالأنفاس التي تتردَّد في صدورنا...

نتنفسها طوال الوقت، ونملأ صدورنا بها، ونحيا ونعيش بالهواء الذي تجلبه لنا، ولكننا لا نشعر أبدًا بأننا نتنفس؛ لأننا نفعل هذا طوال الوقت، في سلالة وتلقائية...

فقط نبدأ الشعور بأنفاسنا، عندما تضيق، أو تصاب بأزمة ما، تمنع سلاسة التنفس، وتجعله ثقيلًا....

هكذا عمل المخابرات....

لو أنها تعمل بكفاءة ودقة ونجاح، ودون كلل أو ملل، وعيونها ترصد كل شيء، طوال ساعات الليل والنهار، ولا تجامل أو تحابي أحدًا، على حساب أوطانها، فنحن لا نشعر بوجودها، ونتصوَّر أنه لا عمل لها...

أما لو توقفت، ولو لساعة واحدة، فسينتهز الأعداء الفرصة، وينقضون بلا رحمة أو شفقة، وعندئذ سنشعر بغياب

دور المخابرات، وبغيابها عن الساحة....

ومن أهم فنون الجاسوسية، في لعبة هدم الدول وإضعافها، أن يدفع جهاز مخابرات ما، مواطني دولة معادية له، أو مترصدًّة لمحاولاته، إلى الشك في جهاز مخابراتهم، أو توجيه الاتهامات بالفساد والتجاوز إليه...

ولأن عمل المخابرات سري، ويعتمد على مصادر يستحيل كشفها، أو يمكن أن يؤدي كشفها إلى إفساد عدد آخر من عمليات، تعتمد على المصادر نفسها، فالمخابرات لا تجد وسيلة مناسبة للرد، أو إثبات أنها تعمل كما ينبغي..

ومن هذا المنطلق، يسعى العدو إلى دفع المزيد من الشائعات والأخبار الكاذبة إلى الشارع؛ لاستثارته على جهاز مخابراته، وهذا لتحقيق هدفين أساسين...

أوَّلهما إنشاء شعور شعبي، بالعداء لجهاز المخابرات، مما يضعف من تركيزه، ويضعف من ثقة الناس فيه، في الوقت ذاته، فلا يميلون إلى التعاون معه، أو مد يد المساعدة إليه، فيفقد بهذا ركيزة هامة، من ركائز سبل معلوماته...

والهدف الثاني أن يستطيع، مع ضعف ثقة الناس بجهاز مخابراتهم، أن يجتذب إليه ضعاف النفوس، من أبناء الشعب العدو، فيصنع منهم طابورًا خامسًا، يسعى دون حتى أن يدرى، إلى تحطيم الجبهة الداخلية لوطنه، عبر ترديد الشائعات، التي يدسها العدو في مهارة؛ لتوسيع الصدع بين الشعب ومخابراته

رويدًا رويدًا.....

وفي كل الكتابات والدراسات، التي تتحدَّث عن عالم الجاسوسية والمخابرات، تم تصنيف نوع من الجواسيس، باعتباره أقوى أنواع الجواسيس، وأكثرهم فاعلية وخطورة، وهو الجاسوس، الذي لا يعلم أنه جاسوس...

وهنا يدور التساؤل: كيف يمكن أن يكون الإنسان جاسوسًا، دون أن يعلم أنه جاسوس؟!...

وإجابة هذا الأمر ليست عسيرة، كما قد يتصوَّر البعض؛ فهناك أنواع عديدة من الجواسيس، الذين لا يدركون فعليًا أنهم جواسيس، مثل الشخص الذي يتحدَّث في مكان علني، عن بعض أسرار جهة عمله، غير مدرك ما الذي يمكن أن يسفر عنه الأمر، إذا ما كانت هناك آذان تستمع، وعقول تتذكَّر، وأعين ترصد، وأجهزة معادية بكاملها، تجمع كل معلومة، صغيرة أو كبيرة، وترصها إلى جوار بعضها البعض؛ لتصنع منها صورة حيوية واضحة كاملة، يمكن أن تتحوَّل إلى سلاح قاتل، عندما تحين اللحظة المناسبة لاستخدامها....

وهناك الشخص، الذي يصدِّق كل ما يصدر عن العدو من شائعات، ويرددُّها، ويضيف إليها ما يؤيدها، فيتحوَّل بهذا إلى صدى للعدو، ومنفذ لأهدافه دون حتى أن يدري...

الأمر الهام، الذي ينبغي أن ننتبه إليه وندركه، هو أن الشائعات، التي يطلقها العدو، لا تكون أبدًا بسيطة ومباشرة،

مثل أية شائعة، يطلقها شخص ما، أو تطلقها جماعة ما؛ لتحقيق أهداف محدودة...

الشائعات التي يطلقها العدو، تكون دومًا شائعات مدروسة بعناية، يقوم على وضعها فريق كامل من المحترفين في هذا المجال، ويعتمدون فيها على مجموعة من الحقائق المعروفة، مع إعادة صياغتها، وتحديد مضامين مخالفة لها، وترتيبها على النحو الذي يحقِّق المستهدف منها، كما لا يتم إطلاق الشائعة، إلا بعد التمهيد لها، بشائعات أصغر، تحوى وسطها بعض الحقائق، مما يمنح الشائعة النهائية صورة زائفة من المصداقية، تعتمد في الأساس على مشاعر الناس، وعلى رغبتهم في استنتاج كل ما يخفي عنهم، وعلى ما تميل إليه نفوسهم، بحيث تخرج الشائعة في صورة نهائية، قابلة للتصديق، على الرغم من عدم ربطها بأية أدلة أو براهين...

وبهذا يتحقِّق فن أخر من فنون الجاسوسية، وهو فن إثارة الشعوب، وتجنيدها لتحقيق أهداف العدو، دون حتى أن تدرى انها تفعل هذا!!..

وفي كل الأحوال، يعمل كل جهاز مخابرات، من أجل الحفاظ على الأمن القومي لوطنه، حتى لو أدّى هذا إلى هدم أوطان أخرى....

فعالم الجاسوسية والمخابرات في النهاية، أشبه برقعة شطرنج كبيرة، يحتاج ربح المباراة عليها إلى عمل دؤوب، لا ينقطع ليلًا

أو نهارًا...

وإلى عيون ترصد، وعقول تحلّل، وقلوب لا تخشى في الحق لومة لائم...

إنه عالم العقول...

والجرأة...

والابتكار..

والفن..

كل الفن.

* * *

مـــــلاحق
جاسوس النصف قرن

خمسون عامًا تمر، على أوَّل ظهور لأشهر جاسوس على الشاشة، طوال نصف قرن من الزمان، دون أن تنجح أية شخصية جاسوسية أخرى في منافسته، أو حتى بلوغ ذلك المستوى الذي بلغه، من عدد مشاهديه، أو إيرادات أفلامه، بدءًا من (دكتور نو)، وحتى (كازينو رويال)... والعميل السري، أو الجاسوس البريطاني الأشهر (جيمس بوند)، الذي يحمل الرقم (٠٠٧)، وهو ذلك الرمز الكودي المتميِّز، الذي يعنى انه يحمل تصريحًا دائمًا بالقتل، دون الرجوع إلى رؤسائه، بدأ كروايات أو قصص قصيرة، لمبتكر الشخصية (أيان فليمنج)، والذي كوَّن الشخصية من مزيج من بعض الشخصيات، التي التقى بها، أو عمل معها، عندما التحق بالمخابرات البحرية البريطانية، في زمن الحرب العالمية الثانية...

والطريف أن (فليمنج) كان شابًا عابثًا، لأسرة انجليزية عريقة، يئست أمه من محاولة تقويم سلوكه، أو حتى إقناعه بالعمل في شركة الأوراق المالية، التي تملكها الأسرة، فسعت لإلحاقه بكلية عسكرية؛ لعل هذا يساعده على الانضباط، إلا أنه استغل وسامته الشديدة، لإقامة علاقة مع زوجة مدير الكلية

العسكرية، أدى انكشاف أمرها إلى فصله من الكلية، مما أجبره على العمل في شركة الأوراق المالية للأسرة، ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية اجبر الشركة على إغلاق أبوابها، وخشيت الام من عودة (فليمنج) إلى حياة العبث، ومن اضطراره للالتحاق بالجيش، والسفر إلى الجبهة، فسعت لإلحاقه بوظيفة عسكرية إدارية، عبر صديق للأسرة، اتخذه سكرتيرًا خاصًا، في المخابرات البحرية البريطانية...

وهناك تألَّقت قريحة (فليمنج)، وظهرت مواهبه الفذة، في ابتكار وسائل العمليات الاستخباراتية غير المعتادة، والتخطيط للضربات على نحو غير متوقع... وعلى الرغم من مواهبه، لم يتجاوز (فليمنج) وظيفته كسكرتير عسكري، داخل المخابرات البحرية، حتى وضعت الحرب أوزارها، فتم صرفه من الخدمة، ليعود مضطرًا للعمل في شركة الأوراق المالية، التي فتحت أبوابها مرة أخرى بعد الحرب...

في تلك الفترة، ابتكر (فليمنج) شخصية (بوند)، الجريء، المغامر، صاحب الشخصية المميزة، واختار له اللهجة الإسكتلندية، التي أعجبته من رئيسه المباشر، في فترة العمل في المخابرات...

ومن مجموعة قصص قصيرة إلى رواية واخرى، جذبت الشخصية انتباه واهتمام صنَّاع السينما، واختاروا قصة (دكتور نو)، كأوَّل عمل يقدِّم (بوند) على الشاشة، والطريف أنهم

اختاروا الممثل ذائع الصيت آنذاك (جريجورى بيك)؛ لأداء دور (جيمس بوند)، ولكن (بيك) كانت له مطالب، رفض المخرج الرضوخ لها، فقرَّر أن يتحدّى شعبية (جريجورى بيك)، ويختار ممثلًا جديدًا؛ للعب دور (بوند) على الشاشة...باختصار، لقد راهن على الشخصية، بأكثر مما راهن على النجم...

وعندما بدأ اختيار من يؤدى دور بوند، لم يرق أي من المتقدَّمين للمخرج (تيرنس يونج)، حتى انه فكَّر في إعادة التفاوض مع (جريجورى بيك)، لولا أن ساقت إليه الأقدار (شين كونرى)، الذي جذب بعض اهتمامه، بلهجته الاسكتلندية المتميَّزة، وقامته الرياضية الممشوقة، إلا أنه لم يحسم قراره بشأنه تمامًا، وبدأ التفكير في (بيك)، حتى بعد انصراف (كونرى)...

وكان (يونج) منهمكًا في التفكير أمام النافذة، عندما شاهد (كونرى) ينصرف، بقامة ممشوقة، وخطوات واثقة قوية، فهتف فجأة: « أريد هذا الرجل»...

وقد كان... وفي عام ١٩٦٢م، ظهر أوَّل أفلام (بوند) (دكتور نو)، المأخوذ عن رواية بنفس الاسم، كتبها (فليمنج) عام ١٩٥٨م، وقام ببطولته (شين كونرى)، مع صاروخ الإغراء في ذلك الحين (أورسولا أندرسن)، حيث دارت الاحداث في (جاميكا)، وهناك يتصدَّى (بوند) للعدو (دكتور جولياس نو)، الذي يعترض إطلاق الصواريخ الأمريكية، بموجات راديو قوية... لم تكن رواية (دكتور نو) هي أوَّل روايات (فليمنج) عن

شخصية (بوند)، وإنما كانت روايته الأولى هي (كازينو رويال)، والتي لم تنتج سينمائيًا إلا بعدها بعشرات السنين، ولكن (دكتور نو) كانت بداية الانطلاق لشخصية (بوند) في عالم السينما، ولعدد آخر من شخصيات حاولت تقليده، في سينما الجاسوسية، ولكن تركيبتها لم تحقِّق النجاح ذاته...

ولقد تعاقب عدد من الممثلين على اداء شخصية (بوند)، خلال نصف قرن، فمن بداية الشخصية سينمائيًا، مع (شين كونرى)، ثم محاولة إحلاله بالممثل المسرحي (جورج ليزنبى)، فقط لمجرد التشابه الشكلي بينهما، ثم فشل (ليزنبى) بعد فيلم واحد، واختيار (روجر مور)، بطل الحلقات التليفزيونية (القديس)، للعب دور (بوند) لعدة سنوات، ثم (تيموثى دالتون)، وبعده (بيرس بروسنان)، ثم (دانيال كريج)...

تعاقب من أدوا الدور، وبقيت شخصية (بوند) تتحدَّى عالم سينما الجاسوسية، وتنتقل من نجاح إلى نجاح، على نحو تحوَّل إلى أسطورة على الشاشة، تصعب منافستها، بعد نجاح دام واستقر لنصف القرن...

وعلى الرغم من ان (بوند) يمثل التيار الكلاسيكي النمطي، في شكل وطبيعة الجاسوس، ومن ان عشرات الشخصيات الاخرى قد سعت لمواكبة التطوُّر، ونجحت في رسم صورة مغايرة للجاسوس، إلا أن شخصية (بوند) بقيت مطلوبة على الشاشة، بكل كلاسيكيتها ونمطها، فهو الجاسوس الوسيم،

الحذر، الذكي، صاحب العقلية الثعلبية، والمهارات التي لا حدود لها، والذي يواجه دومًا شخصيات غير عادية، لكل منها نمط غير تقليدي، وتسعى كلها إلى هدف واحد، ألا وهو السيطرة على العالم، على نحو أو آخر...

فالجمهور أحب (بوند) على ما هو عليه، وعشق دهاءه، وذكاءه، وسعة حيلته، وحتى شغفه بالجميلات، والملابس الأنيقة، والأجهزة الحديثة المبتكرة، التي يفاجئ بها جمهور السينما دومًا، في مواجهاته مع الآخرين...

المدهش أن معظم الابتكارات، التي ظهرت في عالم (بوند)، والتي بدت مبهرة في حينها، قد صارت اليوم سلعًا متاحة، على شبكة الانترنت، لأي مستهلك عادي، ولم تعد مبتكرات (بوند) هي التي تثير المشاهد، وإنما (بوند) نفسه، والذي ينتظر الكل فيلمه القادم في شوق ولهفة، دلالة على نجاح الشخصية المبهره، خلال نصف قرن...

وعلى الرغم من النجاح الكبير لأفلام (جيمس بوند)، في المجتمعات العربية على وجه العموم، والمجتمع المصري على وجه الخصوص، إلا أن شاشات السينما لدينا لم تنجب بعد أية شخصية مماثلة، ربما لأن القانون يفرض مراجعة الأجهزة الاستخباراتية والأمنية لمثل هذه الأعمال الدرامية، على الرغم من ضعف الثقافة الدرامية لدى رجال الجهات الأمنية والاستخباراتية في هذا الشأن، وحساسياتهم المفرطة تجاه كل ما يتعلَّق بهم، وإصرارهم

على أن كل ما لا يتوافق مع الحقيقة والواقع، بنسبة مائة في المائة، يسيء إليهم وإلى أجهزتهم، على الرغم من أننا لم نسمع أو نقرأ دراسة واحدة، تشير، أو حتى توحى بأن أفلام (جيمس بوند) أو مثيلاتها، قد أساءت إلى جهاز المخابرات البريطاني، أو الأمريكي، أو أي جهاز آخر، بل على العكس تمامًا، لقد زادت من انبهار العامة به، ومن احترامهم له، ولكنها مشكلة الرقابة دومًا، أيًا كانت جهتها، أنها تصر على تسييد فكرها ورؤيتها، دون محاولة النقاش أو المراجعة...

وبغض النظر عن عدم وجود شخصيات سينمائية استخباراتية على الشاشة، على الرغم من وجودها في الأدب المطبوع، فأفلام الجاسوسية على نحو عام، لم تبلغ لدينا حد الفيلم المتقن، بأي حال من الأحوال، فقديمًا شاهدنا فيلم (جريمة في الحى الهادي)، والذي بدا فيه الجواسيس في صورة ساذجة ضعيفة، يسيل لعابهم على امرأة جميلة، ويدمنون المواد المخدَّرة، ويفقدون أعصابهم في سرعة، وكل ما يخالف طبيعة أصغر جاسوس، في أصغر دولة، ورأينا فيلم(الجاسوس)، لملك الترسو آنذاك (فريد شوقي)، والذي حاول من خلاله تقليد أفلام وشخصية (بوند)، حتى أنه اختار للبطل أن يكون ضابطًا في القوات البحرية؛ حتى يرتدي نفس الزى الذي ارتداه (بوند)، في بعض أفلامه، وفي ذلك الفيلم شاهدنا الفنان (عزت العلايلي) يلعب دور الجاسوس، على النحو الذي يناسب الأفلام الهزلية،

بأكثر مما يناسب الأفلام الجادة؛ إذ يرتدي معطف مطر، ومنظار شمس أسود في قلب الليل، ولا تنقصه سوى لافتة توضع على صدره، وعليها إشارة واضحة إلى أنه جاسوس....

ولكن أفلام الجاسوسية الأفضل، لم تظهر على الشاشة، إلا عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣م، عندما ظهر أوَّل فيلم عن الجاسوسية، مأخوذ عن قصة حقيقية، ومعالج بحرفيه، جعلته أفضل فيلم جاسوسية مصري، وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور، وهو فيلم (الصعود إلى الهاوية)، والذي روى تفاصيل واحدة من أنجح عمليات المخابرات العامة المصرية، قبيل حرب أكتوبر...

والفيلم الذي قام ببطولته الفنان القدير (محمود ياسين)، مع النجمة الراحلة (مديحة كامل)، واخرجه (كمال الشيخ)، تعامل ولأوَّل مرة على الشاشة العربية، مع عالم المخابرات بوعي واقتدار، وبحرفية تتناسب مع الواقع الفعلي لذلك العالم المثير، وفتح الباب لنوعية جديدة من دراما الجاسوسية، والتي كان الفيلم هو نقطة التحول في مسارها...

وهذا يختلف بالتأكيد، عما خرجت علينا به (نادية الجندي)، من مجموعة من أفلام ساذجة المضمون، ولكنها حققت نجاحًا جماهيريًا كبيرًا، فقط لأنها تتحدَّث عن عالم المخابرات، بكل غموضه وأسراره... في ذلك الحين، ومع قلة عدد أفلام المخابرات، على الشاشة الكبيرة، فاجأ التليفزيون المصري مشاهديه، بواحد من أروع مسلسلات الجاسوسية، عبر تاريخ الدراما كله، وهو

مسلسل (دموع في عيون وقحة)، والذي قام ببطولته الفنان (عادل إمام)، مع (معالى زايد)، و(مشيرة)، و (مصطفى فهمى)، وروى قصة (أحمد الهوَّان)، الذي حاول الإسرائيليون تجنيده، عقب نكسة يونيو ١٩٦٧م، ولكنه لجأ إلى المخابرات المصرية، الذي جعلته يتعاون معها، على خداع العدو الإسرائيلي، الذي وثق في انتمائه إليه تمامًا، حتى أنه منحه أحد أقوى واحدث أجهزة الاتصال حينذاك، والذي لم يكن سوى النسخة الأوَّلية، من الهاتف المحمول، الذي يحمله كل شاب الآن...

حوَّل المسلسل، الذي كتبه الراحل المبدع (صالح مرسى)، اسم (أحمد الهوَّان) إلى (جمعة الشوَّان)؛ لأسباب أمنية صرفة، وتعلَّقت عقول وقلوب شعب (مصر)، من (الاسكندرية) إلى (أسوان) بمجموعة المسلسل، الذي يطلق عليه الناس اسم (مسلسل جمعة الشوَّان)، حتى أن الشوارع كانت تخلو من المارة، في زمن عرضه، وتألَّق فيه (عادل إمام)، وهو يؤدى دور الشاب البسيط، الذي وجد نفسه أمام موقف يفوق إمكانية، فلجأ إلى مخابراته، التي أدارت صراعًا عبقريًا مع العدو، وربحته في النهاية، لتحقَّق انتصارًا جديدًا على المخابرات الإسرائيلية...

وتعود أهمية هذا المسلسل بالتحديد، إلى أنه قد وضع المشاهد أمام حالة جديدة من دراما الجاسوسية، إذ لم يكتف عم (صالح) بنقل تفاصيل العملية الاستخباراتية، وإنما صنع خلفية اجتماعية ممتازة لبطله (جمعة الشوَّان)، وجعلك تشعر به،

وبحياته، ومعاناته، ومشكلاته، وتتفهّم مبررات سفره، وتعامله مع مندوب المخابرات الإسرائيلية، ثم تتفاعل مع موقفه، عندما قرَّر، مع كل ما يمر به من أزمات، أن يتخلى عن كل إغراءات العدو، ويمد يده إلى وطنه..

وكما كان فيلم (الصعود إلى الهاوية) علامة فاصلة، في سينما الجاسوسية، على الشاشة الكبيرة، صار مسلسل (دموع في عيون وقحة)، علامة فاصلة في دراما الجاسوسية، على الشاشة الصغيرة...

فبعدها لم يكن من الممكن انتاج مسلسلات ساذجة المعنى، أو بسيطة المضمون، وصار المسلسل هو النموذج، الذي ينبغي أن تسير عليه المسلسلات التالية...

ولكن دراما الجاسوسية لم تحظ بعدها بالاهتمام الكافي، على الرغم من نجاح مسلسل (دموع في عيون وقحة)، وإعادة عرضه أكثر من مرة، فقد جاءت الأعمال التالية للمسلسل ضعيفة، ودون المستوى، مما ادى إلى انصراف المشاهدين، عن هذه النوعية من الأعمال، حتى عاد عم (صالح) مرة أخرى...

فذات يوم، طالعتنا مجلة المصوَّر بالحلقة الأولى، من رائعة عم (صالح)، ودرة دراما المخابرات (رأفت الهجَّان)، وهي رواية مأخوذة من واقع ملفات المخابرات المصرية، عن شخصية (رفعت الجمَّال)، الذي تم تجنيده، في زمن سابق لإنشاء المخابرات العامة رسميًا، من اجل رصد تحركات إليهود المصريين بعد الثورة، خاصة وأن (إسرائيل) كانت تشعر أن الثورة المصرية

نقطة خطر في مسارها، وكان معظم اليهود المصريين يزورونها، في ذلك الحين، مما وضع فكرة زرع عين للأمن وسطهم، ومع سقوط (رفعت) في قبضة الأمن، ومع ما يتمتَّع به من ذكاء، وبراعة، وقدرة على الاحتيال على الآخرين، تم إقناعه بالعمل لحساب الأمن المصري، مقابل العفو عن بعض تجاوزاته السابقة، ثم ومع نجاح تقمصه، واندماجه في المجتمع اليهودي، والذي تزامن مع قرار إنشاء المخابرات المصرية، تم إعداده للسفر إلى (إسرائيل)، كعميل مزروع هناك؛ بحيث يصبح عينًا نافذة للمخابرات المصرية، في قلب المجتمع الإسرائيلي...

ولقد لاقت رواية عم (صالح) رواجًا مدهشًا، ونجاحًا عظيمًا، مما أسفر عن تحويلها إلى مسلسل تليفزيونى، يعد الأشهر، بين كل دراما الجاسوسية على الشاشة الصغيرة، حتى يومنا هذا، على الرغم من ميزانية انتاجه المحدودة، وديكوراته البسيطة، ولكنه جذب المشاهدين من اللحظة لأولى، مع مشهد موت البطل، الذي بدأت به الأحداث، والذي جمع النجمين (محمود عبد العزيز) و (يسرا)، والذي كان يفترض منه أن يكون بمثابة خطأ درامي إذ أنه ليس من الطبيعي، أن تتابع دراما جاسوسية، ينبغي أن تشعر فيها بالقلق على البطل، في حين أنك تعلم، من المشهد الأول، أنه قد مات في فراشه، في سن متقدمة، ودون أن ينكشف أمره ولكن المشاهد حوَّل وجهة تفكيره، مع تلك البداية، إلى سؤال مختلف تمامًا، وهو: كيف نجح في أن ينتحل

شخصية يهودي، ويحيا كل هذا الوقت في (إسرائيل)، ويكوَّن كل هذه العلاقات، دون ان ينكشف أمره؟!...

ولأن الاحداث قد انتقلت، من هذه المفاجأة الأولى، إلى متابعة كيفية العثور على (رفعت الجمَّال)، أو (رأفت الهجَّان)، كما اسماه عم (صالح)، ومبررات اختياره، وخطوات تدريبه على مهمته، فقد شغف المشاهد بهذا العالم الغامض، وأساليبه الدقيقة غير المباشرة، وانبهر بتطوُّرات الموقف، وسيطرة المخابرات المصرية على رقعة اللعبة، في كل خطواتها، وانحبست أنفاسه مع المواقف، التي واجهت (رأفت)، في مرحلة إعداده، وتلاحقت نبضاته، مع كل مواجهة، مع عيون (الموساد) في (مصر)...

وأخيرًا رقص الكل طربًا، مع مشهد النهاية، عندما كان (رأفت) يودع رجل المخابرات (محسن ممتاز)، قبيل رحيل سفينته من (مصر) مباشرة...

ومرة أخرى خلت الشوارع من المارة تقريبًا، وصمتت الأصوات في المقاهي، مع زمن عرض الجزء الأوَّل من (رأفت الهجان)، ونجح عم (صالح)، للمرة الثانية، في أن يصنع من الجاسوس شخصية ثلاثية الأبعاد، تشعر بها، وتعيش معها، وتتعاطف مع كل خطوة لها، وتفرح بنجاحها، وتحزن كلما واجهت الخطر...

الأهم من هذا أن مسلسل (رأفت الهجَّان)، وما صاحبه من نجاح مبهر، قد أعاد الحيوية في قوة، إلى دراما الجاسوسية،

سواء على الشاشة الكبيرة، أو الصغيرة، وشهدت السينما موجة من أفلام الجاسوسية، منها تلك الأفلام التي أشرنا إليها من قبل، للفنانة (نادية الجندي)، مع أفلام استغلت نجاح (محمود عبد العزيز)، في أداء دور الجاسوس، مثل (إعدام ميت)، وأفلام أخرى للفنان (نور الشريف) وغيره...

ثم جاء الجزء الثاني من مسلسل (رأفت الهجَّان)، والذي يبدأ بوصوله إلى (إسرائيل)، ومراجعة الأمن له هناك، ثم سار معه في مشوار حياته، حتى استطاع مد جذوره في المجتمع الإسرائيلي، وما صحب هذا من علاقات عاطفية، خلبت لب المشاهد، وسحرته بعالم من الغموض، والأسرار، والرومانسية، والمغامرة، والخطر...

وكالمعتاد، سال لعب عدد من كبار الفنانين، على دراما الجاسوسية، وانضم إليهم المخرجون، وشركات الإنتاج، وبدأ التهافت على أعمال عم (صالح)، فظهرت مسلسلات مثل (الحفَّار)، والذي لم يحظ بأي نجاح يذكر، على الرغم من قوة مؤلفه (صالح مرسى)، وقوة العمل الأدبي المطبوع، و(الثعلب) للكاتب (إبراهيم مسعود)، والذي لاقى المصير نفسه، مع عدد من أفلام السينما، التي لم ترق أبدًا لمستوى أوَّل أفلام دراما الجاسوسية الحقيقية (الصعود إلى الهاوية)... ومع عرض الجزء الثالث من (رافت الهجَّان)، والذي لم يلق نفس نجاح الجزأين السابقين، كانت هناك عدة اعمال من دراما الجاسوسية، على

الشاشتين، تحاول التفوق عليه، أو حتى اللحاق به، إلا أنها، وعلى الرغم من ضعف الجزء الثالث عما سبقه، لم تستطع الفوز بنصيب إلى جواره...

ثم، ومع نهاية التسعينات، هدأ سباق دراما الجاسوسية إلى حد ما، وانشغل الكل بدراما الفساد السياسي، التي صارت سمة من سمات ذلك العصر، وراحت الشاشتان تتحوَّلن إلى صرخة شعب، يجأر مما يحيط به من فساد، كاد أن يسلبه حتى الانتماء لوطنه...

ثم فجأة، ومع الألفية الثالثة، دبت الروح مرة أخرى في دراما الجاسوسية على الشاشتين، وعادت مسلسلات الجاسوسية تشق طريقها، وسط سباق الدراما الرمضانية، والتي صارت الدراما الوحيدة، التي يسعى إليها منتجو الشاشة الصغيرة، ولكن الاعمال هذه المرة، على الرغم من ميزانية انتاجها الضخمة، التي تفوق بخمسين ضعف على الأقل، ميزانية الجزء الأوَّل من (رأفت الهجان)، ومن حشد عدد هائل من النجوم فيها، ومن مشاهدها العديدة، التي يتم تصوير معظمها خارج (مصر)، لم تكن بنفس جودة ونجاح المسلسلات القديمة، ربما لأن مخرجيها، على الرغم من تاريخهم العريق، لم يحاولوا فهم واستيعاب قواعد ونظم المخابرات، والاستعانة بمن يرشدهم إليها، كما كان يفعل (كمال الشيخ) و(يحيى العلمي) قديمًا، لذا فقد جاءت التصرفات الأمنية في المسلسلات الحديثة، أقرب إلى تصرفات البحث الجنائي، منها إلى تصرفات استخباراتية دقيقة

ومدروسة، وبدا بعضها ساذجًا، إلى حد لا يصلح حتى لخفير نظامي، فما بالك برجال مخابرات، يواجهون خصومًا محترفين طوال الوقت!!...

والأمر الذي أثار المشاهدين، في دراما الجاسوسية الجديدة، هي انفصال المشاهد عن زمن الأحداث، على نحو لا يمكن وصفه إلا بأنه مستفز، فالأحداث تدور في الستينات، أو أوائل السبعينات، وعلى الرغم من هذا، يستخدم من فيها سيارات حديثة، تعود إلى الألفية الثالثة، ويجرون اتصالاتهم بهواتف محمولة، لم توجد قبل التسعينيات، وعبر أجهزة فاكس، تم اختراعها في الثمانينات، ويسيرون في شوارع بها لوحات رقمية مضيئة، وفي محال تستخدم أجهزة كمبيوتر محمولة ومتطوِّرة، ثم يدور الحديث طوال الوقت باعتبار أن كل هذا يعد لحرب أكتوبر ١٩٧٣م، وكأن المشاهد سيساير الأحداث، أو يغض النظر عما يراه...

وهكذا حققَّت دراما الجاسوسية في (مصر)، حالة فريدة من نوعها، في أي مكان في العالم، إذ بدأت قوية جذابة، ثم راحت تنحدر، حتى صارت هزيلة هزلية...

كل هذا و (جيمس بوند)، الذي تتطوّر أفلامه في سرعة وقوة، مازال يواصل نجاحه، ويواصل جذب المشاهدين، وحصد الإيرادات، وإثبات أنه، وعلى الرغم من كل الانتقادات، التي وجهت له عبر تاريخه، مازال أشهر وانجح جاسوس عرفته السينما، في كل عصورها....

الجاسوس الذي حصل هذا العام على لقب لم يفز به أحد من قبل...

لقب (جاسوس النصف قرن).

* * *

كلام في سرك...!!

« الكلمة تعنى وطن...»...

«... «كلمة تشعل حربًا...»...

« فكِّر قبل أن تتكلم..»...

عبارات مثلها، أو تشبهها، خرجت إلينا في حملة دعائية كبيرة، تعيد إلى ذاكرتنا تلك الأيام العصيبة، في الفترة ما بين نكسة يونيو ١٩٦٧م، وانتصار أكتوبر ١٩٧٣م، حيث كنا نطالع اللافتات الإرشادية المشابهة، في كل المصالح الحكومية، وكل المنشآت الحيوية، وحتى في الصحف والطرقات...

هذا لأن عالم الأسرار عالم شديد التعقيد، وشديد البساطة في الوقت ذاته، فأجهزة الاستخبارات الكبرى، لا تحصل على كل ما لديها من معلومات، عبر جواسيس محترفين، ومغامرات تشبه أفلام (جيمس بوند)، بل إن الجانب الاعظم من المعلومات، تحصل عليه من مصادر علنية، متاحة للجميع، مثل الصحف والمجلات، والقرارات الحكومية المعلنة، وأحيانًا أسعار السلع الأساسية، مثل الخبز والبنزين، حتى أن دولة كبرى مثل (الصين)، لا تنشر تقاريرها الاقتصادية أبدًا، وتعتبرها سرًا

قوميًا، لابد من الحفاظ عليه بأي ثمن...

وهناك جزء من المعلومات بالطبع يحتاج إلى زرع وتجنيد الجواسيس، للوصول إلى مكامن الأسرار، وخزائن المعلومات، إلا أن الجزء الأخطر، هو الذي يمكن الحصول عليه، من خلال رصد أحاديث عادية، أو الدفع إلى ترويج شائعة بعينها، في وقت محدود بدقة بالغة...

والأمثلة عن استقاء المعلومات العلنية، والاستفادة منها مدهشة، لعل أشهرها واقعة الصحفي السويسري (برتولد جاكوب)، والذي نشر كتابًا في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين، في الوقت الذي كانت فيه (المانيا) النازية تعد جيشها، وتعمل على تقويته، في سرية بالغة، ليصف كتابه، وبكل الدقة، كل تفاصيل الجيش النازي، بألويته، وفصائله، وأسماء قادة الألوية والفصائل، ومواقع تمركز كل كتيبة... وهكذا... ولما كانت المعلومات بالغة الدقة، إلى حد مذهل، فقد أصيب (هتلر) بالجنون، واستدعى إليه قائد (الجستابو) (هملر)، وطلب منه، وبكل الغضب والصرامة، البحث عن مصدر المعلومات، وكيفية حصول (جاكوب) عليها...

ولما كان التحقيق مع قادة الجيش جميعهم أمرًا عسيرًا، فقد قام (هملر) بما بدا أنه أقصر طريق؛ للوصول إلى الهدف، فأرسل فريقًا من رجاله إلى (سويسرا)؛ لاختطاف (جاكوب)، وإحضاره إلى (برلين)، وهناك، في مقر (الجستابو)، الذي كان

يعرف باسم (بيت الثعالب)، انهار (جاكوب) رعبًا، وروى لهم، وبكل التفاصيل، كيف حصل على معلوماته الدقيقة...

وكانت المفاجأة أن (جاكوب) ليس لديه أي مصدر لكل هذه المعلومات، سوى صفحات الوفيات، في الصحف الألمانية، والتي ظل يطالعها طوال عام كامل؛ ليجد بينها نعيًا يقول: « العقيد فلان، قائد الفرقة رقم كذا، ينعى زوجة اللواء علان، قائد الفرقة كذا... وهكذا»... إعلانات وفيات من هذا القبيل، راح يجمعها، ويصنفها، ومنها حصل على كل تفاصيل الجيش النازي، التي لم تحصل عليها دول كبرى، في ذلك الحين... تلك الواقعة نبهت النازيين، والعالم كله من بعدهم، إلى ضرورة عدم ذكر أية تفاصيل عن رجال الجيش، أثناء نشر نعيهم، أو نعى أحد من ينتمون إليهم، بعد أن أدرك الكل مدى خطورة هذا، وكم المعلومات المدهش، الذي يمكن الخروج به، من مجموعة من المعلومات الصغيرة، التي تبدو وكأنه لا قيمة لها..

فالمعلومات، في تعريف رجال المخابرات، أشبه بلعبة بازل كبيرة، مكوَّنة من عدد من القطع الصغيرة، إذا ما قمت برصها إلى جوار بعضها البعض، بالترتيب الصحيح، فإنها ستكون في النهاية صورة كبيرة واضحة، تحوي الكثير من التفاصيل والمعلومات...

قبل حرب ١٩٦٧م مثلًا، كانت خطب الزعيم (جمال عبد الناصر) نارية ملتهبة، وكان واثقًا من قوة جيشه وتسليحه، حتى أنه طلب سحب القوات الدولية، التي تمركزت في عدة مناطق في

(سيناء)، عقب انسحاب (إسرائيل) منها، عام ١٩٥٦م، وعلى الرغم من أنه قد طلب سحب القوات الدولية من (شرم الشيخ) وحدها، إلا أن القوات الدولية رفضت الانسحاب المحدود، وأصرَّت على الانسحاب الكامل من (سيناء)، في نفس الوقت الذي تصاعدت فيه حدة خطابات (ناصر)، إلى الحد الذي بدأت فيه (إسرائيل) تقلق، من احتمال استعداده لشن حرب ضدها بالفعل... ولما كان شن الحروب، أو حتى الاستعداد لمواجهتها، يعنى تكلفة مالية هائلة، لم تكن (إسرائيل) مستعدة لشن حرب على (مصر)، إلا عندما تتيقن من أن (مصر) جادة بالفعل، في الاتجاه نحو الحرب، ومن هنا نشط جواسيسها في قلب المجتمع المصري؛ بحثًا عن أية معلومات، تؤيِّد أو تنفي هذا...

والمدهش أن المعلومة التي حسمت الأمر، لم تكن معلومة عسكرية خطيرة، أو معلومة سياسية، من مطبخ صنع القرار، بل أتت من عامل بسيط، في شركة من شركات إنتاج الأغذية المحفوظة، على مقهى صغير، في حي شعبي...

العامل كان يتناول كوبًا من الشاي المصري، وهو يجلس مع أحد أصدقائه، وأخبره أنهم قد ضاعفوا الورديات في المصنع، لإنتاج ضعف الكمية، من علب الخضار المحفوظ.... والتقطت أذن أحد جواسيس (إسرائيل) المعلومة البسيطة، ونقلها وسط معلومات أخرى إلى (تل أبيب)، وهناك، اعتبرها محللو المعلومات قطعة من البازل المعلوماتي، أضافوها إلى معلومة

أخرى، تقول: إنه مع الاستعداد للحروب، يتم مضاعفة تعيين الجندي العادي، فيحصل على علبتين من الخضار المحفوظ يوميًا، بدلًا من علبة واحدة... وهكذا اكتملت بالنسبة لهم الصورة، وبات من الواضح أن (مصر) جادة في الاستعداد للحرب، وقررَّت القيادة السياسية الإسرائيلية، بناءً على تلك المعلومة، شن حرب خاطفة؛ لمنع (مصر) من توجيه ضربة قاصمة لها...

المعلومات إذن ليس فيها كبير أو صغير....

المهم أن تأتى المعلومة، لتكمل جزءًا من البازل المعلوماتي، وتضع صورة واضحة في النهاية... والشائعات لا تختلف كثيرًا، في هذا المضمار، باعتبار أنها سلاح قوى وفعَّال؛ لهدم الجبهة الداخلية لأية دولة، ولقد استخدمها (جوبلز)، وزير (البروباجندا)، أو الدعاية، في حكومة (هتلر)؛ لتحطيم الجبهة الداخلية في (تشيكوسلوفاكيا)، حتى يمكنه احتلالها، بأقل قدر ممكن من الخسائر، مستغلًا وجود أقلية ألمانية، بدأت الشائعات عندها؛ لإقناع أبنائها بأنه هناك محاولة من الحكومة التشيكية لطمس هويتهم، ومزجهم في الأكثرية التشيكية، مما أدى إلى حدوث مصادمات بين الأقلية ورجال الشرطة، سرعان ما تطوُّرت، مع تناقل سيل الشائعات، الذي واصل (جوبلز) تلقيم الأقلية الألمانية به، وتحوَّلت إلى فوضى أمنية عارمة، راحت تنتشر كالعدوى، وسط الشعب التشيكي كله، وبدأ جواسيس (المانيا) اتصالاتهم مع قادة الرافضين، ونصحوهم بعدم قبول أية

عروض، مهما بدت مغرية، من الحكومة التشيكية، التي وصل بها الامر إلى عرض منحهم الحكم الذاتي، ولكنهم واصلوا رفض كل شيء وأي شيء، حتى تدخّل (هتلر) عسكريًا، بعد ان أيقن من تفكك كيان الدولة؛ بحجة حماية الاقليات الألمانية، واحتل (تشيكوسلوفاكيا) بالفعل، بخسائر تكاد لا تذكر...

وفي (انجلترا)، وبعد الدروس المستفادة، بدأت حملة؛ لتوعية الناس بضرورة الحفاظ على الأسرار، وعدم ترديد الشائعات، قبل التيقن من كل ما تحويه، وكانت تلك الحملة، في قلب الحرب العالمية الثانية، تعتمد على النصائح المباشرة هبر المذياع، ولافتات التوعية في الطرقات، وداخل كل المنشآت، والمدارس والمعاهد، وحتى المستشفيات...

في البداية، رأي بعض المثقفين أنها وسيلة ساذجة، لا يمكنها أن تؤدى إلى شيء، إلا أن كل الدراسات خلال وبعد الحرب، أثبتت أن تلك الأساليب، التي نصفها بالنمطية، تأتى بنتائج مدهشة، مع قطاع عريض للغاية من أي شعب، إذ أنها تعتمد على نظرية الإلحاح والتذكير، والتي تؤدى حتمًا، عند نسبة كبيرة من الناس، إلى إعادة التفكير في كثير من الأمور، التي كانوا يقومون بها، على نحو تلقائي، دون الانتباه إلى عواقبها، أو إلى تعريفهم بخطورة الامور البسيطة، التي لم تبد لهم بهذه الأهمية، وهم يمارسونها على نحو تلقائي، كما اشارات تلك الدراسات، إلى أن التفكير على مستوى المثقفين، لا يحسم الأمور على نحو

مثالي؛ باعتبار أنهم، في أية دولة، لا يمثلون أكثر من نسبة ٥٪ من مجموع سكانها، أما الغالبية العظمى، فهي الأكثر تأثرًا بما يراه المثقفون أمورًا نمطية غير فعالة...

وقد يدهش البعض، معرفة أنه، حتى في أروقة كل أجهزة المخابرات في العالم تقريبًا، توجد لافتات إرشادية مماثلة، تحذر العاملين طوال الوقت، وعلى نمط إلحاحي، بضرورة الحفاظ على أدق الأسرار، وعدم ترديد أية أقاويل، دون الرجوع إلى مصادرها، والتأكد من صحتها؛ لعلم أجهزة المخابرات بجدوى وأهمية هذه الأساليب المباشرة، إلى جوار وسائل الدعاية الأخرى غير المباشرة، والتي تتطوَّر أيضًا يوميًا، إلى حد القدرة على الوصول إلى العقل الباطن للشخص العادي، وزرع فكرة بعينها فيه، مثل الصور الخفية، والعبارات ذات التأثير المعنوي وغيرها...

والحديث عن حرب المعلومات والشائعات يطول ويطول؛ لأنه حديث غزير المعلومات، كثير التفاصيل، إلى حد مدهش...

أو ربما مخيف...

ولكن، وفي النهاية، كلام في سرك: هل رددَّت شائعة ما اليوم؟!...

راجع ما فعلته منذ استيقظت، دون انفعال أو تشنج، وأراهنك أنك قد فعلت...

أليس كذلك؟!

***